

مَقَرَّرُ الْفَيْسِيَرِ بِالسَّنَةِ الْأُولَى
بِرَأْسِ التَّوْحِيدِ بِمَعَالِمِ الْعَالَمِينَ الْأَوَّلِينَ بِالْمَدِينَةِ الْمَوْسُطَةِ

الْفَيْسِيَرُ الْمَوْسُطُ

فِي الْأَصْنَافِ الْمُتَقَبَّلَةِ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْفَيْسِيَرِ الْمُتَقَبَّلَةِ

الجزء الأول

أَلْفَهُ

عَبْدُ اللَّهِ خِيَاطُ

منشورات

مَكْتَبَةُ الْبَنِي خِيَاطُ

جدة

مقرر التفسير للسنة الثالثة
بالمدارس المتوسطة

التفسير الميسر

خلاصات تفهيمية من أشهر التفاسير المعتمدة

الجزء الثالث

الفئة

عبد الله خياط

منشورات

مكتبة النجّاح

جدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمدك اللهم وأشكرك ، وأصلي وأسلم على أشرف خلقك ، محمد
عبدك ورسولك ، وعلى آله وصحبه . وبعد :

فهذه هي الحلقة الثالثة من كتاب « التفسير الميسر » تبتدىء
من سورة محمد وتنتهي بانتهاء سورة الرحمن وتشمل مقرر السنة الثالثة
بالمدارس المتوسطة ، وهي خلاصات اعتمدت في وضعها على التفاسير
المشتهرة المعتبرة .

والله أسأل أن ينفع بها ويعينني على إتمام بقية السلسلة إنه أكرم
مستول .

وصلى الله على خير خلقه ، محمد وآله وصحبه .

تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١)
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) » .

ابتدأ سبحانه هذه السورة ، بعد مقارنة بين الكافرين والمؤمنين .. أوضح فيها جزاء الفريقين . فأخبر أن الكافرين الذين جحدوا توحيد الله وعبدوا غيره ، سواء كانوا من قريش ، أو من غيرهم ، وصدوا عن سبيل الله ، وهو الإسلام ؛ يكون جزاؤهم على ذلك : إبطال أعمالهم ، وإحباطها فلا يؤجروا عليها .. والأعمال : كعمارة المسجد الحرام ، وقرى الأضياف ، وغير ذلك . وقيل المراد بإبطال الأعمال : إبطال كيدهم الذي كادوه لرسول الله ﷺ .. وإنفاق الأموال لمحاربتة .. وعلى عكسهم المؤمنون الذين صدقوا بالوهمية الله ، وعبدوه وحده ، وصدقوا بالكتاب المنزل على الرسول وهو القرآن .. والقرآن : هو الحق الذي لا شك فيه ، أنزله على رسوله .. هؤلاء : يكون جزاؤهم ، تكفير السيئات الماضية وصلاح شأنهم وأعمالهم ..

ثم أوضح سبحانه السبب في إبطال أعمال الكفار وإحباطها ، وإصلاح شأن المؤمنين فقال :

(أضل) (أحبطها وأبطلها) . (كفر عنهم) (أزال ومحا عنهم) . (أصلح بهم) (حلهم وشأنهم) .

« ذَلِكَ بَانَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ » .

أي اختاروا الباطل الذي أوحى به الشيطان إليهم فاتبعوه .

« وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ » .

أي اتبعوا الحق الذي أوحى به الرحمن إلى عبده ورسوله محمد؛ ثم قال تعالى :

« كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) » .

أي : بمثل هذا البيان الذي أوضحه ، يبين الله للناس أحوال الفريقين وأوصافهما .. وقيل أمثالهم : أي أشباههم ، فالمؤمنون يتبعون الحق ، فيكون في ذلك فوزهم ؛ والكافرون يتبعون الباطل ، فيكون في ذلك خسارتهم .. ثم أوضح سبحانه الطريقة التي يسلكها المؤمنون في جهاد أعدائهم المشركين لإرهابهم وكسر شوكتهم ، قال تعالى :

« فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ » .

أي : إذا التقيتهم في الحرب ، فاضربوا رقابهم وافصلوها عن الأجساد !

« حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ » .

أي إذا أكثرتم فيهم القتل ، فأحكموا شد الأسارى منهم لئلا يفلتوا . وبعد انتهاء المعركة فالإمام مخير في الأسرى بين المنّ عليهم .. وإطلاق سراحهم بدون عوض .. وإما أن يطلقهم بعوض يفقدون به أنفسهم .. قال تعالى :

« فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » .

(أثنخنتموهم) أوسعتموهم قتلاً وجراحاً . (فشدوا الوثاق) فأحكموا قيد الأسارى منهم .
(فداء) بلال أو بأسارى المسلمين . (مناً) بإطلاق الأسرى بغير عوض .

ثم أخبر سبحانه أن جهاد الكفار على هذه الطريقة ، لا يزال قائماً حتى تنقضي الحروب بين المسلمين والمشركين بحيث لا يبقى إلا مسلم ، أو مسلم للمسلمين ، بينه وبينهم عهد ، قال تعالى :

« حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » .

وأوزار الحرب ، أثقالها وآلاتها المعروفة كالسلاح قديماً وحديثاً .. والمراد أهل الحرب ، أي حتى يضعوا أسلحتهم ، ثم قال سبحانه : « ذَلِكَ » أي ما ذكر من أحكام القتال ، فافعلوا بهم ذلك .. ولو شاء الله لأهلكهم بدون قتال ، ولكنه شرع الجهاد تمحيصاً للمؤمنين فيما ينالهم من قتل وجراح ، ومحققاً للكافرين ومعالجة عليهم بالنقمة .. قال تعالى :

« ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَتْصَرَّ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ » .

أي : يختبر بعضهم ببعض .

ثم أخبر سبحانه عن مصير قتلى المؤمنين الذين استشهدوا في سبيله فقال :

« وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ (٤) » .

أي : لن يضيعها بل ينميها ويأجرهم عليها ..

« سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) » .

أي يهديهم في الدنيا إلى أفضل الأمور .. ويهديهم في الآخرة إلى الجنة .. (ويصلح بالهم) أي أمرهم وحالهم .

(تضع الحرب أوزارها) تنقضي الحرب ، (ليبلو) ليختبر ..

« وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) » .

أي : يدخلهم الجنة .. ويهديهم إلى بيوتهم ، ومساكنهم ، لا يخطئون الطريق إليها ، كأنهم سكنوها منذ أن خلقهم الله .. !

ثم حفز سبحانه هم المؤمنين للقيام بنصر دينه ورسوله .. ووعدهم على ذلك بالنصر على أعدائهم ، وتثبيت أقدامهم في القتال ، قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) » .

ثم أردف سبحانه هذا الوعد الكريم للمؤمنين بقوله في حق الكافرين :

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ » .

أي : فهلكوا لهم .. يقول ذلك سبحانه على سبيل الدعاء عليهم .

« وَأَضْلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) » .

أي أبطلها .. وأحبطها .. لأنها كانت في طاعة الشيطان .

ثم أوضح السبب في خيبة الكفار وهلاكهم فقال :

« ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ (٩) » .

أي : كرهوا نزول القرآن لما فيه من الهدى والأحكام ، وأشركوا بالله في عبادته ، فأحبط الله أعمالهم .. لأن الشرك محبط للأعمال .

ثم حذر سبحانه المشركين عاقبة شرهم وتكذيبهم للرسول ، وأرشدهم إلى النظر في عاقبة الأمم المكذبة للرسول ، قال تعالى :

(فتعسا لهم) فهلكوا أو عثارا أو شقاء لهم . (فأحبط أعمالهم) فأبطلها .

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَعَادٍ وَثَمُودَ وَغَيْرَهُمْ .. » دَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .

أي أهلك كل ما يختص بهم من الأنفس والأهل والأموال .. وتوعد سبحانه
كل من يصنع مثل صنيعهم من الكفر والتكذيب للرسول بمثل هذا الهلاك ..
قال تعالى :

« وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) . »

ثم أوضح سبحانه السبب في إهلاك الكافرين والمكذبين فقال :

« ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ بَدَّلُوا آيَاتِنَا بِآيَاتِ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى
لَهُمْ (١١) . »

أي : أن الله سبحانه ، هو المتولي لأموال المؤمنين وناصرهم ، أما الكفار ،
فليس لهم من ناصر أو مجير .

ثم أوضح سبحانه مآل الفريقين في الآخرة فقال :

« إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » .

وعلى عكسهم الكفار .. وصفهم سبحانه أبشع وصف فقال :

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ » .

يتمتعون في الدنيا بشهواتهم ، ويأكلون كآكل الأنعام ، لا يهمهم غير

(دمر الله عليهم) أطبق الهلاك عليهم . (مولى) ولي وناصر .

بطونهم ، ولذلك ليس لهم حظ في الآخرة ، بل تكون النار مقامهم ومستقرهم ،
قال تعالى :

« وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ (١٢) » .

ثم وجه سبحانه الخطاب للرسول ﷺ قائلا :

« وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ » وكثير من أهل القرية « هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً
مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ » أي كانت أهلها أشد وأقوى من أهل مكة
« أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) » .

أي أهلكهم الله لما كذبوا رسله ، فلم يكن لهم من ناصر يمنع عنهم عذاب الله
وهلاكه لما حل بهم ، وفي ذلك وعيد شديد لكفار مكة وتهديد لهم .

ثم ذكر سبحانه الفارق العظيم بين المؤمنين والكافرين فقال :

« أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ » .

أي : على يقين وبصيرة في أمر الله ودينه .

« كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) » .

أي زين له الشيطان سوء عمله ، واتبع هواه في عبادة غير الله .

وفي الآيات التالية أوضح سبحانه ما أعد له لكلا الفريقين من نعم ومتعة ،
أو جحيم ونكال ، قال تعالى :

« مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ » أي صفتها وما فيها من ألوان

(مشوى لهم) موضع نواء وإقامة لهم . (كأين من قرية) كثير من القرى .

النعيم .. ثم أخذ يفصله فقال « فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ »
أي أنهار جارية من مياه غير متغيرة الطعم والريح « وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ
يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ » أي لا يتغير بالحموضة كما تتغير ألبان الدنيا « وَأَنْهَارٌ مِّنْ
خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ » .

أي : وفيها أنهار من خمر لذيذ لمن يشربها ، ليست كريهة كخمر الدنيا .
« وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى » .

أي : وفيها أنهار من عسل خالص ليس فيه شمع كعسل الدنيا ، ولم يخرج
من بطون النحل ، وفوق ذلك لهم من جميع أصناف الثمار .. يضاف إلى ذلك
مغفرة من الله لذنوبهم ، ورضاؤه عنهم ، قال تعالى :

« وَ لَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ » .

أما الكفار المكذبون ، فقد وصف سبحانه حالهم وسوء مصيرهم فقال :
« كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ » .

أي : هل يستوي حال المؤمنين ونعيمهم في الآخرة ، بحال المشركين المخلدن
في النار الذين يسقون من الحميم ، أي : الماء الحار الذي اشتد غليانه فتنقطع من
شربه أمعاؤهم ، قال تعالى :

« وَ سُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ (١٥) » .

ثم انتقلت الآيات إلى وصف حال المنافقين في حضورهم مجلس رسول الله
ومواعظه ، فقال تعالى :

(غير آسن) غير متغير ولا متعفن . (عسل مصفى) منقى من جميع الشوائب . (ماء حميماً)
بالغاً الغاية من الحرارة .

« وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا » .

أي : يستمعون إلى الرسول ﷺ وهو يقرأ القرآن ، أو يعظ ويخطب ولا يلقون له بالاً .. فإذا خرجوا من مجلس الوعظ سألوا أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ كعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، قائلين على وجه الاستهزاء : ماذا قال محمد الآن ؟ ثم أخبر سبحانه ، إن هذا الصنف من الناس ، قد ختم الله على قلبه ، فلا يعقل الحق ولا يؤمن به ، وقد اتبع هواه في ما ذهب إليه من الكفر والنفاق .. قال تعالى :

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) » .
وعلى عكسهم المؤمنون الذين قصدوا الهداية فيما يسمعون من الوعظ والتذكير ، فإن الله زادهم بذلك هدى وبصيرة وأعطاهم جزاء تقواهم .. أو أعانهم على التقوى والعمل بما أمروا به .. قال تعالى :

« وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) » .
ثم أخبر سبحانه ، أن المنافقين والكافرين لم يتعظوا بأخبار الهالكين قبلهم .. ولم يبق لتذكيرهم إلا قيام الساعة فجأة ، وقد غدت قريبة لظهور علاماتها .. ومن تلك العلامات : مبعث النبي ﷺ ، قال تعالى :
« فَهَلْ يَنْظَرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا »
أي علاماتها « فَأَنِّي لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) » .

« ماذا قال آنفًا » ماذا قال الآن ، أو الساعة القريبة . « جاء أشراطها » علاماتها وأماراتها .
« وأنى لهم » فكيف ، أو من أين لهم ؟ « ذكراهم » تذكيرهم ما ضيعوا من طاعة الله ..

أي : فكيف يكون لهم التذكر ، إذا جاءتهم الساعة بغتة ؟ !
ثم وجه سبحانه الخطاب لرسوله مقررراً تفرده بالالوهية ، ليعبد وحده دون
سواه ، أمر آله بالاستغفار من ذنبه ، وإنما أمره بالاستغفار لتسبب ذنبه ، وإلا
فقد غفر له سبحانه ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وأمره أيضاً أن يستغفر
للمؤمنين والمؤمنات ، قال تعالى :

« فَأَعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ » .

ثم أوضح سبحانه سعة علمه ، وإحاطته بكل أحوال عبادده ، قال تعالى :

« وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ » (١٩) .

المتقلب : المراد به التصرف ، والمثوي : المسكن والمأوى ، والمراد أن الله
محيط علمه بأحوال عباده في كل تصرفاتهم ، ومطلع على أحوالهم في تجوالهم
واستقرارهم .. وعندما يأوون إلى مضاجعهم ! .

ثم أخبر سبحانه عن رغبة المؤمنين في الجهاد ، وأنهم يطلبون نزول سورة
يشرع لهم فيها قتال الأعداء .. قال تعالى :

« وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ » .

ثم أوضح حال المنافقين في كراهيتهم لذلك ، قال تعالى :

« فَإِذَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » أي نفاق « يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْغَشْيَةِ عَلَيْهِ
مِنَ الْمَوْتِ » .

(يعلم متقلبكم) متصرفكم حيث تتحركون . (مثواكم) مقامكم حيث تستقرون .
(الغشى عليه) من أصابته الغشية والسكره .

أي : إذا أنزل الله آية محكمة ، وليست متشابهة ، يذكر فيها بيان حكم القتال ، ترى المنافقين ينظرون إليك بتحديق شديد .. نظر من أصابته غشية الموت ، بأن تشخص أبصارهم هلعاً وجبناً .. ثم قال تعالى :

« فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ » (٢٠) .

وهي كلمة توعد وتهديد ، كقولك : ويل لهم . ثم قال تعالى :

« طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ » .

أي : كان الأولى بهم ، أن يسمعوا ويطيعوا بدلاً من الاستنكار .

« فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ » أي إذا جد الأمر ولزم القتال « فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ

لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » (٢١) .

أي : لو أخلصوا النية في الجهاد ، وفي إظهار الإيمان والطاعة ، لكان ذلك خيراً لهم .

« فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ » .

أي : لعلكم إن توليتم عن الجهاد ، ونكلتم عنه .

« أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ » (٢٢) .

أي : تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالمعاصي ، وسفك الدماء ، وتقطيع الأرحام .

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ » (٢٣) .

« فأولى لهم » قاربهم ما يهلكهم واللام مزيدة أو العقاب أحق وأولى بهم . « طاعة » خير لهم وأمثل بهم . « عزم الأمر » جد وفرض الجهاد . « فهل عسيتم » فهل يتوقع منكم « أي يتوقع » . « توليتم » الحكم وكنتم ولاة أمر الأمة .

أي : أبعدهم عن رحمته ، وأصم أسماعهم عن سماع الحق ، وأعشى أبصارهم عن طريق الهدى !

ثم أنكر على المنافقين عدم تدبرهم للقرآن ، فقال تعالى :

« أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ » .

أي : أو ما كان الأجدر بهم أن يتدبروا القرآن ، ويتفكروا في مواظبه وزواجه ، وما أخبر به عن نهاية النصاة ؟

« أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) » .

أي بل قلوبهم مقفلة .. إذ قد طبع الله عليها ، فلا تصل إليها موعظة .. !
وأوضح سبحانه أن ارتدادهم عن الإسلام ومفارقتهم له بعد أن وضع لهم الحق ، ما هو إلا من تزوين الشيطان لهم ، وخداعه إياهم ، ومدة لهم في الأمل ..
قال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ
الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) » .

ثم قال تعالى « ذَٰلِكَ » أي ارتدادهم « بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا
مَا نَزَّلَ اللَّهُ » .

أي بسبب أن المنافقين قالوا لليهود الكارهين لنزول القرآن :

« سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ » .

أي : في عداوة الرسول « محمد » ﷺ ، وترك الجهاد معه ! وكانوا يقولون

(أقفالها) مغاليقها التي لا تفتح . (سول لهم) زين وسهل لهم خطاياهم . (أملى لهم) مد لهم في الأمانى الباطلة .

ذلك سرّاً .. فأخبر الله تعالى أنه مطلع على جميع ما يسرونه .. قال تعالى :

« وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ » (٢٦) .

وأخبر سبحانه أن هذه الحيل من المنافقين ، وممالاتهم لليهود .. إن أجدت عنهم في الدنيا ، فكيف تجدي حين ينزل بهم الموت ؟ وما هي حيلتهم حين توفاهم ملائكته على أبشع صورة ، تضرب منهم الوجوه والأدبار ؟ قال تعالى :

« فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأُدْبَارَهُمْ » (٢٧) « وأشار بقوله « ذَلِكَ » إلى التوفي على هذه الصورة
بأنهم اتبعوا ما أسخط الله « أي من ترك الجهاد « وَكَرِهُوا
رِضْوَانَهُ » أي كرهوا ما فيه من رضوانه من الإيمان والطاعة « فَأَحْبَطَ
أَعْمَالَهُمْ » (٢٨) أي أبطلها .

ثم سجل سبحانه في الآية التالية ضعف عقول المنافقين ، لظنهم أن الله تعالى لن يطلع رسوله على نفاقهم ، ويظهر له حقدهم على الإسلام ، وإضرارهم السوء له .. قال تعالى :

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، أَيْ نفاق « أَنْ لَنْ يُخْرِجَ
اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ » (٢٩) .

(يعلم أسرارهم) إخفاءهم كل قبيح . (أضغانهم) أحقادهم الكامنة .

وأخبر سبحانه : أنه لو شاء لأوضح لرسوله أشخاص المنافقين، وأراه إياهم،
فعرّفهم بعلامات يحملها الله علماً عليهم .. قال تعالى :

« وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيَائِهِمْ » .

وأكد الرسول : إنه سوف يعرفهم من أحاديثهم الدالة على مقاصدهم ، ومن
أسلوبهم ، وفجوى كلامهم ، قال تعالى :

« وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » ثم عقب على ذلك بقوله « وَاللَّهُ
يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ » (٣٠) .

أي لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ، وسوف يجازيهم عليها ..

ثم أخبر سبحانه أنه يختبر العباد بالأوامر والنواهي من ذلك الأمر يجهاد
الكفار حتى يتبين المجاهدين الصابرين على دينهم الذين يقاتلون عن إيمان ثابت ،
ويكشف من يأبى القتال ولا يصبر على شدائده . قال تعالى :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ
وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » (٣١) .

والمراد بعلم الله هنا : العلم الذي تقوم به الحجة عليهم وبما يصدر منهم من
أعمال ، وإلا فقد علم الله الأشياء قبل كونها ..

ثم أوضح سبحانه عاقبة من ارتد عن الهدى بعد أن تبينت له دلائله ، وصد
الناس عنه ، وعادى الرسول وخالفه ، وأنه لن يضر بذلك إلا نفسه .. فالله
غني عنه .. وسوف يعاقبه بإحباط كل عمل قبل ارتداده ، لا يأجره الله عليه ،
قال تعالى :

(بسياهم) بعلامات نسهم بها . (لحن القول) أسلوب كلامهم الملتوي . (لنبلونكم)
لنختبرنكم بالتكاليف الشاقة . (نبلو أخباركم) نظهرها ونكشفها .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ » (٣٢) .

قيل : المعني بذلك المنافقون أو اليهود .

ثم أمر سبحانه المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ، وعدم إبطال أعمالهم الصالحة بكبائر الذنوب ، قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ » (٣٣) .

ثم عقب على ذلك بالوعيد الشديد لمن كفر بالله وصد عن دين الله ، ومات على عداائه للإسلام وكفره ، قال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » (٣٤) .

لن يتجاوز عن سيئاتهم ، بل يؤاخذهم عليها ، ويعذبهم لاقترافها .

وعاد سبحانه يستحث المؤمنين على قتال الكفار ، وينهاهم عن مسألتهم إظهاراً للعجز ، في حين أنهم الأعلون بمجنتهم ، الغالبون بنصر الله لهم ، فقد وعدم أن يكون معهم بالنصر على أعدائهم ووعدهم أن لا ينقصهم شيئاً من أجور أعمالهم الصالحة وجهادهم ، قال تعالى :

« فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالُكُمْ » (٣٥) .

ثم أوضح سبحانه شأن الدنيا ، وأن حاصل أمرها باطل وغرور ، ورغب في الإيمان والتقوى ، ووعد على ذلك بإيتاء أجور الأعمال في الآخرة ، قال تعالى :

« إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِيَكُمْ أَجُورُكُمْ » .

وختم سبحانه السورة بالحث على الإنفاق في سبيله ، وذم البخل وبدأ ذلك بقوله :

« وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالُكُمْ » (٣٦) .

أي لا يطلب الله ورسوله منكم دفع أموالكم كلها في الصدقات ، وإنما يطلب منكم دفع جزء يسير ، هو : ربع العشر ، ثم قال تعالى :

« إِنْ يَسْأَلُكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ » .

أي : أن يطلب منكم إخراج جميع الأموال ، فيجهدكم بطلبها .

« تَبْخَلُوا » أي بالأموال فلا تعطوها « وَيُخْرِجْ أَضْغَانُكُمْ » (٣٧) .

أي : يخرج - بالإلحاف في طلب الأموال - أحقادكم .. ومع الافتصار على طلب إخراج الواجب المفروض من زكاة الأموال ، فإن البعض يبخل عن إخراجها .. قال تعالى :

(فلا تهنوا) فلا تضععوا . (السلم) الصلح والوادعة . (يترككم أعمالكم) ينقصكم أجورها . (فيحفكم) يجهدكم بطلب كل المال . (أضغانكم) أحقادكم الكامنة على الإسلام .

« هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ
يَبْخُلُ » .

غير أن من يفعل ذلك ، فإنما يعود وبال ذلك عليه ، حيث يحرم من الأجر ..
بل يعاقب على منعه للواجب ! والله سبحانه الغني عن كل خلقه ، وكل الخلق
مفتقرون إليه ، قال تعالى :

« وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ » ، والله سبحانه الغني عن كل
خلقه وكل الخلق مفتقرون إليه ، قال تعالى : « وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ » ،
ثم قال تعالى : « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا
أَمْثَالَكُمْ » (٣٨) .

أي : إن تعرضوا عن أوامر الله ورسوله ، يأت بقوم آخرين ، يكونون
أمثل منكم وأكثر استجابة لأوامر الله وطاعة له ، بما في ذلك إنفاق الأموال في
سبيل الله ... !

تفسير سورة الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ
ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢)
وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) » .

افتتح الله سبحانه هذه السورة بامتنانه على رسوله ﷺ بالفتح المبين الظاهر،
وقد كان من غير قتال ، ولا إجهاد .. والمراد به صلح الحديبية عند أكثر
المفسرين ، فقد نزلت هذه السورة عندما رجع رسول الله ﷺ ، من صلح
الحديبية ، وسمى هذا الصلح فتحاً باعتبار ما كان فيه من المصلحة ؛ وامتن الله
سبحانه على رسوله بأن غفر له ذنبه ما تقدم منه وما تأخر . والمراد بالذنب :
ما بدر منه خلاف الأولى ، بالنسبة لمقامه ﷺ ، مما عاتبه الله عليه ، كقصته مع
عبد الله بن أم مكتوم ، حيث أنزل الله عليه « عبس وتولى » وأمثال ذلك ..
وامتن الله على رسوله أيضاً ، بإتمام النعمة عليه بالنبوة ، وهدايته إلى الصراط
المستقيم وهو الإسلام ، وامتن عليه أيضاً بنصره على أعدائه ، نصراً غالباً لا ذل بعده !
وبدأ سبحانه بالآية التالية قصة صلح الحديبية ، قال تعالى :

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ » .

(فتحاً مبيناً) هو صلح الحديبية . (السكينة) الطمأنينة والثبات .

أي : أنزل الطمأنينة في قلوب المؤمنين بهذا الصلح ، فاستجابوا لأمر الرسول ﷺ :

« لَيَزِدَّادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ » .

أي : لما اطمأنت قلوب الصحابة لهذا الصلح ، واستجابوا لأمر الرسول فيه ، زادهم الله عليه إيماناً مع إيمانهم ! ثم قال تعالى :

« وَٱللَّهُ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » .

أي : ولو شاء لانتقم من أعدائه بإرسال ملك واحد عليهم لتدميرهم .. ولكنه شرع الجهاد ، لإقامة الحجة على الكافرين بتأييد المسلمين ، ونصره لهم وخذلان الكافرين ، وهو سبحانه العليم بما يصلح عباده الحكيم في تدبيره وتقديره . قال تعالى :

« وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيْمًا حَكِيْمًا (٤) » .

ثم قال تعالى : « لِيَدْخُلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا » .

أورد ابن كثير رحمه الله عند تفسير هذه الآية حديث « أنس ، وفيه : إن رسول الله ﷺ قال حين أنزل عليه « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » الآيات : لقد أنزلت علي آية ، هي أحب إليّ من الدنيا جميعاً .. فلما تلاها .. قال رجل من القوم : هنيئاً مريئاً لك .. قد بين الله ما يفعل بك .. فماذا يفعل بنا ؟ ! فأنزل الله قوله : « ليدخل المؤمنين والمؤمنات ، الآية .. لما استجابوا لأمر الله ورسوله

في العودة دون أن يحدثوا مع المشركين حدثاً .. أو ينشبوا قتالاً .. جازاهم الله بهذا الجزاء العظيم وفوق ذلك : يكفر لهم السيئات والخطايا ، فلا يعاقبهم عليها وهذا الجزاء العظيم ، إلى جانب غفران الذنوب ، هو الفوز العظيم عند الله لعباده المؤمنين .. قال تعالى :

«وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ» وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً (٥) .

وعرض بعد ذلك سبحانه للمنافقين والمشركين ، وسوء مصيرهم فقال :

«وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظِنَّ السَّوْءِ» .

أي : يعذبهم لظنهم السيء ، حيث كانوا يظنون : أن الله سوف يخذل رسوله والمؤمنين ويقضي عليهم بالقتل على أيدي أعدائهم . قال تعالى :

«عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ» .

أي : سوف يحيط بهم العذاب والهلاك .. جزاء ظنهم ووراء ذلك غضب الله عليهم ، ولعنته لهم وتهية النار مسكناً ، ومستقراً يأوون إليها ، وبلمست النار من مصير يصيرون إليه . قال تعالى :

«وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦)» .

وعاد سبحانه يقرر : أن له جنود السموات والأرض ، ولو شاء لانتقم من أعدائه ، وعاجلهم بالعقوبة بواسطة جنوده من الملائكة ، وغيرهم ، فهو العزيز

«ظن السوء» ظن الأمر الفاسد المذموم ، «عليهم دائرة السوء» دعاء عليهم بوقوعه بهم .

في سلطانه ، الحكيم في تدبيره وقضائه وتقديره ، قال تعالى :

« وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧) » .

وحدد سبحانه في الآية التالية مهمة الرسول ﷺ فقال :

« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا » أي : على أمتك بما أجابوا من دعوتك « وَمُبَشِّرًا » أي : مبشرًا لمن آمن منهم بالجنة « وَنَذِيرًا (٨) » .

أي : منذرًا من أعرض عن دعوتك بعذاب الله وانتقامه . وأوضح بعد ذلك العلة في إرسال الرسول فقال تعالى :

« لَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » أي : لتصدقوا بربوبيته ، وألوهيته « وَرَسُولِهِ » .

أي : لتعترفوا برسالة رسوله ﷺ .

« وَتَعَزَّزُوا » أي : ولتعينوه ولتنصروه « وَتَوَقَّرُوا » .

أي : ولتعظموه ؛ وإلى هنا ينتهي ما كان خاصاً بالرسول ﷺ ؛ ثم قال سبحانه :

« وَتَسَبَّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) » .

يريد بذلك : الصلاة في أول النهار ، وآخره ؛ وقيل : إن الضمائر من قوله تعالى : « وتعزروه وتوقروه وتسبحوه » هي لله تعالى .

وانتقلت الآية بعد ذلك : يقص الله فيها خبر بيعة الرضوان ، وخلاصة ذلك : أن رسول الله ﷺ عندما وصل إلى الحديبية ، بعث « عثمان بن عفان » رضي الله عنه ، يخبر « قريشاً » بخبر مقدم الرسول ﷺ ، وأنه لا يريد قتالاً . ولكنه

« تعزروه » تنصروه تعالى بنصر دينه . « توقروه » تعظموه تعالى وتبجلوه . « بكرة وأصيل » غدوة وعشيا ، أو جميع النهار .

يريد الاعتار .. فاحتبست « قريش » ، « عثمان » رضي الله عنه ، بعد أن أبلغها رسالة رسول الله .. وشاع بين المسلمين أن « عثمان » قد قتل ! فبايع رسول الله ﷺ جميع الصحابة ، عند شجرة بالحديبية ، على مناجزة قريش .. وعدم الفرار .. أو بايعهم على الموت .. فأرعب ذلك المشركين .. فأطلقوا « عثمان » ومن كان لديهم من المسلمين .. ودعوا رسول الله ﷺ إلى المودعة والصلح .. وفي ذلك يقول الله تعالى لرسوله ﷺ ، تعظيماً له وتكريماً :

« إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » .

قال « ابن كثير » ، رحمه الله : أي : هو حاضر معهم ، يسمع أقوالهم ، ويرى مكانهم ؛ فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله ؛ وقال « السدي » : كانوا يأخذون بيد رسول الله ﷺ ، ويبايعونه .. ويد الله فوق أيديهم في المبايعة ! وفي قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » ، إثبات صفة اليد لله تعالى ؛ وهو مذهب السلف رضوان الله عليهم ، يشبتون لله يدأ تليق بحلاله وعظمته .. ثم قال تعالى :

« فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ » .

أي من نقض هذه البيعة ، فإنما وبال ذلك على نفسه .

« وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِثْوَتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) » .

أي : من قام بما عاهد الله عليه من القتال ، وعدم الفرار ، فسوف يجزل

الله له الأجر .. بأن يدخله الجنة دار الكرامة والنعيم ..

ثم انتقلت الآيات : يقص الله فيها خبر المتخلفين عن رسول الله ﷺ حين نديهم للخروج معه إلى « مكة » لغرض الاعتار عام الحديبية ، قال تعالى :

« سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا » .

اعتذروا عن الخروج مع الرسول ﷺ ، باستغفاهم بأموالهم ، ونسائهم ، وذريتهم ، وعدم وجود من يخلفهم فيها ؛ وطلبوا من الرسول : أن يستغفر لهم الله عن هذا التخلف ، فأكذبهم الله بقوله تعالى :

« يَقُولُونَ يَا لَسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » .

أي : لم يكن طلبهم الاستغفار ، عن صدق واعتقاد ، وإنما كان مصانعة .. وتقية لسبر نفاقهم .. وأمر الله الرسول أن يسألهم سؤالاً فيه معنى النفي ، حيث يقول تعالى :

« قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً » .

أي : من الذي يستطيع أن يملك دفع السوء عنكم لو أراد الله بكم ذلك .. أو يملك جلب النفع لكم ؟ والجواب : لا أحد يملك ذلك .. ! ثم قال تعالى :

« بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) » .

أي أن الله سبحانه ، هو المطلع على السرائر ، يعلم ما يضمرونه من نفاق ..
مهما صانعوا .. وأظهروا التقية .. فهو الخبير بكل أعمالهم !

ثم أوضح سبحانه السبب الحقيقي في تخلف المتخلفين عن رسول الله ﷺ :
وهو اعتقادهم أن الله سوف يخذل رسوله والمؤمنين .. ويمكن لأعدائهم .. ولن
يرجع الرسول ولا المؤمنون أبداً إلى أهلهم .. وذلك ظن سيئ لا يليق بعدل
الله ، ولا يتفق مع وعده للرسول والمؤمنين في النصر والتأييد ، قال تعالى :

« بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ
أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ » .

أي : زين الشيطان هذا الظن السيئ في قلوبكم .

« وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) » .

جمع بائر ، أي : هالكين ، فاسدين ، لا تصلحون لشيء من الخير .

ثم قال سبحانه متوعداً إياهم على النفاق ، وإظهارهم خلاف ما يبطنون :

« وَمَنْ لَمْ يُوْثِقْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » .

أي : من لم يكن باطنه كظاهره ، يعتقد بقلبه ، ما يقوله بلسانه من دعوى
الإيمان بالله ؛ وتصدىق رسوله ، فإن الله سوف يعذبه في النار ، حيث تلسع به ،
وقد أعدّها الله للكافرين أعدائه .. قال تعالى :

« فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) » .

« لن ينقلب » لن يعود إلى المدينة . « قوماً بوراً » هالكين أو فاسدين .

وأخبر سبحانه أنه مالك السموات والأرض ، والحاكم المتصرف فيها ،
فيغفر ذنوب من يشاء من عباده ممن سبق في علمه هدايته .. ويعذب من يشاء من
علم ظلمه وكفرانه .. فهو الغفور لذات عباده ، الرحيم بهم ، قال تعالى :

« وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن
يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٤) » .

وفي الآية التالية : يذكر سبحانه ، تطلع المتخلفين إلى مغنم خيبر ، وطلبهم
أن يأذن لهم الرسول في الخروج معه إليها ، وقد وعد الله بغنائم خيبر ، أهل
صلح الحديبية ، خاصة : الذين آزرُوا رسوله ، واستجابوا لأمره ، قال تعالى :

« سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِّتَأْخُذُواهَا
وَهِيَ مَغْنَمُ خَيْبَرَ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ » اتركونا نخرج تبعاً لكم
« يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ » .

أي : يريدون بالخروج إلى خيبر ، أن يخلف الله وعده السابق في تخصيص
مغنم خيبر لمن حضر صلح الحديبية ، وأمر الله الرسول أن يرد عليهم طلبهم ..
قال تعالى :

« قُلْ لَّنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ » .

أي : مثل هذا الوعد قد سبق من الله من قبل أن يعود الرسول ومن معه

من الحديدية ، بأن غنائم خيبر - خاصة - لمن حضر الحديدية ، ليس لغيرهم فيها نصيب . وأخير سبحانه عن جواب المتخلفين حين منعوا من الخروج إلى خيبر ، قال تعالى :

« فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا » .

أي : لم يكن منعهم عن الخروج إلى خيبر عن أمر الله وإنما كانت حسداً فقط ، لئلا يصيبوا من الغنائم شيئاً .. فأكذبهم الله تعالى ، قال تعالى :

« بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا » .

أي : ليس الأمر كما زعموا .. ولكنهم لا يعلمون ما لهم وما عليهم من الدين إلا قليلاً منهم ، وهم من صدق الله ورسوله ..

بعد ذلك أمر الله الرسول ﷺ ، أن يعلن هؤلاء المتخلفين بأن باب الجهاد لا يزال مفتوحاً .. وأنهم سوف يندبون لقتال ومنازلة قوم أهل شدة ، وقوة في الحروب ، واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء القوم .. وليس الغرض هنا التعيين ، وإنما الغرض أن يكشف الله سبحانه أمر المتخلفين ، وكذبهم في زعمهم الرغبة في الجهاد ، قال تعالى :

« قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ » .

« أولي بأس » أصحاب شدة في الحرب .

أي : يستمر قتالهم إلى أن يسلموا فيكف عنهم .

« فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا » .

أي : إن يطع هؤلاء المتخلفون أمر الله ورسوله في قتال هؤلاء القوم الأشداء . فسوف يحسن لهم الأجر بأن يدخلهم الجنة .

« وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) » .

أي : وإن أعرضوا ، ولم يستجيبوا لأمر الله ورسوله ، كما أعرضوا وتخلفوا عن الرسول إذ دعاهم للخروج معه إلى الحديبية ، فإن الله سوف يعذبهم في الآخرة عذاباً مؤلماً بأن يدخلهم النار ..

ثم أوضح سبحانه الأعذار المبيحة للتخلف عن الخروج للجهاد ، فقال :

« لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمُرِيضِ حَرْجٌ » .

أي : ليس على أصحاب هذه الأعذار من بؤس أو مؤاخذة ، لو تخلفوا عن الجهاد .. ثم أخبر بما أعدّه للمجاهدين المطيعين لله ورسوله ، من النعم في الآخرة ترغيباً في الجهاد . فقال تعالى :

« وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » .

وخوف المعرضين المتخلفين عن الجهاد بما أعده لهم في الآخرة من عذاب النار .. قال تعالى :

« وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) . »

ورفع الله سبحانه من مكانة المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، حيث أعلن رضاه عنهم ، فقال تعالى :

« لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ . »

علم الله ما في قلوبهم من صدق الإيمان ، والوفاء بما عاهدوا عليه ، فأنزل الطمأنينة على نفوسهم .

« وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) . »

أي : حيث فتح الله عليهم خيبر بعد صلح الحديبية وقريباً منه .

« وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَا خُذُونَهَا . »

أي : من أموال يهود « خيبر » وكانت « خيبر » ذات عقار وأموال .. فقسمها رسول الله ﷺ بينهم .

« وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) . »

يعز من يشاء بطاعته ... ويذل من يشاء بمعصيته وله الحكمة في ذلك !

ثم قال تعالى :

« وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا » .

وهي الفتوح التي تفتح للمسلمين إلى يوم القيامة .

« فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ » .

أي : عجل فتح خيبر وغنائمها لهم .. وامتنّ عليهم بأن كف عنهم أيدي أهل خيبر ، وحلفائهم ، حيث قذف في قلوبهم الرعب .. قال تعالى :

« وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ » .

وقيل : كف أيدي أهل مكة بالصلح ، ثم قال سبحانه :

« وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ » .

أي : ليكون كف أيدي الناس عن المسلمين وسلامتهم آية على صدق الرسول وعلى حراسة الله لعباده ، وحفظه لهم ، ولينهديهم - ببركة انقيادهم لأمر الرسول وطاعتهم له - صراطاً مستقيماً ، بأن يثبتهم على الإسلام ، ويزيدهم بصلح الحديبية وفتح خيبر يقيناً بالله ، قال تعالى :

« وَيَهْدِيكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (٢٠) » .

وعدى ذلك ، فقد وعد الله المؤمنين بمغانم كثيرة أخرى ، وفتح بلدات لم يكونوا قادرين عليها ، قال تعالى :

« وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا » .

أي : علم الله أنها ستكون لهم ، وأنه سوف يفتحها عليهم ..

« وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) » .

أي : لا يعجزه شيء .

وعاد سبحانه يؤكد لأهل صلح الحديبية نصره لهم لو أزمع المشركون القتال .. قال تعالى :

« وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ » ، أي لانهمزوا
« ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) » .

أي : لن يجدوا لهم من ولي يتولاهم ، أو ناصر ينصرهم ..

وتلك سنة الله الماضية في خلقه ، نصره للمؤمنين أوليائه ، وخذلانه
للكافرين أعدائه .. قال تعالى :

« سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ
تَبْدِيلًا (٢٣) » .

أي : وليس لهذه السنة الماضية من تغيير ولا تبديل ..

ثم قال تعالى ممتناً على أهل صلح الحديبية :

« وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ » .

أي : أيدي المشركين عن المسلمين ، فلم يصلوا إليهم بسوء .

« أحاط الله بها » أعدما لكم أو حفظها عليكم .

«وَأَيْدِيكُمْ عَنْهُمْ يَبْطِنُ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَ كُمْ عَلَيْهِمْ» .
أي : وكف أيدي المؤمنين عن المشركين بالحديبية لأن المراد بمكة الحرم ؛
والحديبية من الحرم ؛ ومعنى قوله « من بعد أن أظفركم عليهم » أي : أظفر
المسلمين على فريق من المشركين ، هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابه ، وأرادوا
أن يصيبوا منهم غرة ، فأخذوا ...! وجيء بهم إلى رسول الله ﷺ
فمعا عنهم ...!

«وَكَانَ اللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤)» .

أي : أحاط علمه ، وسمعه ، وبصره بكل ما يعمل العباد ...
وعادت الآيات تفصل في قصة صد المشركين لرسول الله ﷺ وأصحابه عن
دخول « مكة » عام « الحديبية » قال تعالى :
«هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ
مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلُّهُ» .

أي : والهدي محبوساً عن أن يصل إلى المحل الذي ينحر فيه ، وهو « مكة »
والهدي : ما يهدي إلى الحرم من بهيمة الأنعام تقرباً إلى الله بذبحه فيه ثم
قال تعالى :

«وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ
تَطُؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُنَّ مَعْرَةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ» .
أي : لولا وجود رجال مؤمنين ، ونساء مؤمنات ، بين المشركين ،

(بطن مكة) بالحديبية . (أظفركم عليهم) أظفركم عليهم وأعلام . (الهدي) اليد التي
ساقها الرسول صلى الله عليه وسلم . (معكوفاً) محبوساً . (المحل) المكان الذي يحل فيه نحره .
(تطؤهم) تهللكوهم . (معرة) مضرة أو ضربة .

مستضعفين ، لم تعلموا بهم ، فيصيبهم من المؤمنين مكروه بأن يقتلوه ، فتلحقهم بقتلهم مسبة وعار حيث يقال : قتلوا أناساً على دينهم - لولا ذلك - لسلط الله المؤمنين على المشركين فأبادوهم .. ثم قال تعالى :

« لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ » .

أي : حال سبحانه بين الرسول وفتح مكة ، ليخلص المستضعفين من المسلمين من بين أظهر المشركين ، ويهدي من يشاء من المشركين إلى الإسلام ، ويدخل الجميع في رحمته أي : في جنته ، فمن دخلها فهو مرحوم . قال تعالى :

« لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (٢٥) » .

أي : لو تميز المؤمنون المستضعفون المقيمون بمكة عن المشركين ، لسلط الله المجاهدين على المشركين فقتلوه .. وذلك عذابهم : في الدنيا بالقتل .. ولهم في الآخرة عذاب مؤلم في النار ..

وهذا القتل في الدنيا ، حين جعل الكفار حمية الجاهلية - أي أنفتها - في صدورهم ، فصدوا رسول الله وأصحابه عن البيت قائلين : قد قتلوا أبناءنا ، وإخواننا ، ثم يدخلون علينا .. فتتحدث العرب أنهم دخلوا رغم أنوفنا و « اللات » و « العزى » لا يكون ذلك .. أما المؤمنون ، فقد أنزل الله في قلوبهم الطمأنينة فلم تدخلهم الحمية ، فمعضوا الله بقتالهم للمشركين .. وقد أمروا بالكف عنهم ، قال تعالى :

« إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ

(تزيلوا) يميزوا من الكفار . (الحمية) الأنفة والغضب .

فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، فَاطمأنوا للصلح
« وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ » .

أي : الكلمة التي تقي قائلها الشرك ، والعذاب ، وهي « لا إله إلا الله » في
قول أكثر المفسرين لأنها : تنفي الألوهية عن غير الله ، وتثبتها لله الواحد الأحد ؛
وأخبر سبحانه أن المسلمين هم أحق بهذه الكلمة ، كلمة التوحيد من الكافرين ..
وهم أهلها الذين يعملون بما تدعو إليه من عبادة الله وحده ، وينتهون عما تنهى
عنه من عبادة غير الله في أي نوع من أنواع العبادة .. قال تعالى :

« وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) » .
أي أحاط علمه بكل الأشياء .

بعد ذلك انتقلت الآيات تذكر رؤيا رسول الله ﷺ ، عام الحديبية قبل
خروجه إليها ، قال تعالى :

« لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ » .

أي : إن الله تعالى ، سوف يحقق رؤيا رسوله فهي حق وصدق ، وتفصيل
الرؤية : أن رسول الله ﷺ رأى عام الحديبية في منامه ، أنه وأصحابه
يطوفون بالبيت وبعض أصحابه محلق والبعض منهم مقصر ، فأخبر بذلك
أصحابه ، ففرحوا .. وظنوا أن هذه الرؤيا سوف تتحقق عام الحديبية .. فلما
تم الصلح ، صلح الحديبية ، ورجعوا إلى المدينة ، ولم يدخلوا مكة ، شق عليهم
ذلك ، فأنزل الله تعالى « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق » فهي رؤيا حق ،
وقد تحققت فعلا ، ودخل رسول الله ﷺ وأصحابه المسجد الحرام في العام

الذي بعد عام الحديبية ، معتمرين آمنين .. لم يعرض لهم أحد بسوء ..
قال تعالى :

« لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ
وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ » .

وأخبر سبحانه أنه علم - من المصلحة في الصلح عام الحديبية ، وفي عدم
دخول الرسول مكة في ذلك العام - ما لم يعلمه أصحاب الرسول الذين شق
عليهم عدم دخولهم مكة .. قال تعالى : « فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا » .

وأخبر سبحانه أنه جعل لهم قبل دخولهم الحرم ، فتحاً قريباً يتقوون
به .. قيل : المراد بالفتح ، فتح خيبر وقيل : صلح الحديبية . قال تعالى :

« فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) » .

ثم قال تعالى :

« هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى » .

أي : أرسله بالدين الذي فيه هداية العباد إلى صراط الله .

« وَدِينَ الْحَقِّ » .

أي : الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده .

« لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » .

أي : أرسل الله الرسول بهذا الدين ، ليعليه على جميع الأديان .

« وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (٢٨) » .

أي حسب الرسول بأن يشهد له ربه أنه مرسل من عنده بخير الأديان ،
صادق فيما يخبر به ، ثم قال تعالى :

« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » .

أي : مرسل من عند الله ؛ وفي ذلك تأكيد لرسالته .. وعقَّب على ذلك
بذكر أوصاف المدح ، والثناء لأصحابه ، فقال :

« وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » .

وصفهم سبحانه بالشدة والغلظة على الكافرين ، وبالرحمة ولين الجانب فيما
بينهم .

« تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً » .

وصفهم أيضاً بكثرة العبادة ، ومن أفضل العبادة الصلاة ، ودوام الركوع ،
والسجود ، يرجون بذلك ثواب الله ورضاه عنهم ، ولهم من كثرة عبادتهم ،
وطول سجودهم لله علامات في وجوههم ، قال تعالى :

« سَيَأْتِيهِمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ » .

وذكر المفسرون عن هذه العلامات أقوالاً منها أن المراد بها : استنارة
وجوههم من كثرة ما صلوا .. ومنها : أن السجود أورثهم الخشوع ، والصمت
الحسن الذي يُعرفون به .. ثم قال تعالى :

« ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ » .

« سيأتمهم » علامتهم . « مثلهم » صفتهم .

إشارة إلى أن هذه الأوصاف لأصحاب الرسول ، مثل ما وصفوا به في التوراة ، وقوله تعالى :

« وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ » .

أي : أما وصفهم في الإنجيل فكما أخبر الله في الكلمات التالية .. قال تعالى :

« كَزَرَاعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ » .

أي : كمثل زرع أخرج شطأه ، والشطء : النبات الذي يخرج من الزرع ويتفرع في جانبيه .

« فَتَنَازَرَهُ » أي : قوتى ذلك الشطء الزرع « فَاسْتَعْلَظَ » أي : تحول الزرع من الدقة إلى الغلظ « فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ » أي : استقام ذلك الزرع على أصوله « يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ » .

أي : بعد أن صار الزرع على هذه الصفة من النماء والقوة ، أصبح يعجب زراعاه لحسنه ، وبهائه ، وحسن هيئته .. وكذلك أصحاب رسول الله ﷺ ، كانوا في أول الإسلام قلة ، ثم كثروا .. وآزرُوا الرسول ، ونصروه ، فهم : كالنبات الذي خرج على أشطاء الزرع فتقوتى به ، وشد أزره .. وقوله تعالى :

« لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ » .

« أخرج شطأه » فراخه المتفرعة في جوانبه . « فتنازره » قوتى ذلك الشطء الزرع .
« فاستعلظ » فصار غليظاً . « فاستوى على سوقه » فاستقام على قضبانته .

أي : إنما كثّرهم ، وقوّاهم ؛ ليكونوا غيظاً للكافرين .. وختم سبحانه
السورة ، بالوعد الكريم الصادق في غفرانه لذنوب عباده المؤمنين الذين يعملون
الأعمال الصالحة .. وهم جميع الصحابة ومن تبعهم بإحسان من المؤمنين إلى يوم
القيامة ؛ قال تعالى :

« وَاعِدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا
عَظِيمًا (٢٩) » .



تفسير سورة الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) » .

أوضح سبحانه بهذه الآية لعباده المؤمنين المسلك الذي يجب أن يسلكوه مع رسوله « محمد ﷺ » ، احتراماً لمقامه ، وتوقيراً له .. ومعنى التقدم بين يدي الله ورسوله : عدم التسرع بالقول أو الفعل قبل رسول الله ﷺ ، ويجب أن يكون المؤمنون تبعاً له في كل قول أو فعل ، وألا يجترءوا على فعل شيء إلا بعد أن يحكم الله ورسوله ، وبأذنا فيه ، ثم حثهم سبحانه على مراقبته ، والخوف منه فلا يضيعوا حقوقه ، أو يخالفوا أمره ، فهو السميع لأقوالهم ، العليم بنياتهم ، وأفعالهم ..
ثم قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ » .

أي : في حالة مشاركتكم معه في الحديث .

« وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ » .

« لا تقدموا » لا تقطعوا أمراً من الأمور .

أي : في حالة مخاطبته ، يجب أن لا ترفعوا أصواتكم عن صوته ، كما يخاطب
الند نظيره ، لما في ذلك من الجفوة ، وعدم استشعار الحرمة لمقامه وقوله تعالى :

« أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) » .

أي : خشية أن يبطل الله أعمال من يفعل ذلك من المؤمنين ، وهو لا يشعر
أنه ارتكب محظوراً .

ثم قال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ » .

أي : يخفضون أصواتهم عنده ، احتراماً لمقامه وتوقيراً له .

« أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى » .

أي : اختبرها ، وأخلصها للتقوى .

« لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) » .

وعدم الله على تأديبهم مع رسوله بغفران ذنوبهم ، وتكفير سيئاتهم وأعظم
الأجر لهم ..

وذم سبحانه من يخالف هذا المسلك ، موجهاً الخطاب لرسوله فقال :

« إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا

يَعْقِلُونَ (٤) » .

(تحبط أعمالكم) تبطل أعمالكم . (يفضون أصواتهم) يخفضونها ويتخافتون بها .
(امتحن الله قلوبهم) اختبرها فأخلصها .

الحجرات : جمع حجرة ، وهي منازل نساؤه ﷺ .. نزلت هذه الآية في وفد قدم على رسول الله ﷺ وأخذوا يدعونه في جفوة قائلين : يا محمد ! أخرج إلينا .. أخبر الله سبحانه أن أكثر هؤلاء ليس لهم عقول ترشدكم إلى التأدب مع الرسول ..

ثم أرشد سبحانه إلى ما يجب اتباعه ، فقال :

« وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » .

أي: لو أنهم انتظروا خروجك إليهم دون أن يزعجوك برفع أصواتهم ومناداتهم لكان ذلك أفضل لهم ! ووجههم سبحانه إلى الاستغفار مما فرط منهم بقوله :

« وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٥) .

أي: يغفر زلات عباده ، وهو رحيم بهم .

ثم ذكر سبحانه لعباده قاعدة عامة في وجوب التثبت من رواية خبر الفاسق ، وهو من يخرج على أوامر الله بترك ما أمره ، وارتكاب ما نهى عنه ، قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا » .

أي: تثبتوا ، واطلبوا البيان والمعرفة ، ولا تأخذوا بقوله لأول وهلة .

« أَن تَصِيبُوا قَوْمًا بِيَهَالَةٍ » .

أي : لئلا تعرضوا لقوم بالأذى ، أو القتل خطأ ، وهم أبرياء .

« فَتَّصَبَّحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » (٦) .

أي : فتقدموا بعد ذلك على خطئكم .

ثم قال تعالى :

« وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ، أَي مقيم بينكم » لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ » .

أي : لو يطيعهم الرسول ، ويأخذ بكل ما يروونه ، أو في كثير منه ، مما جانب فيه المخبرون الواقع ، لوقعوا في الإثم والهلاك .. لأن العنت ، هو الوقوع في أمر شاق .. ثم قال تعالى :

« وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ » .

أي : جعل الإيمان أحب شيء إليهم ، وحسنه في قلوبهم .. ومن لازم الإيمان الصدق في رواية الأخبار .

« وَكَرِهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ » أي كره إليهم جحد النعيم « وَالْفُسُوقَ » .

أي : وكره إليهم الخروج عن أمر الله بارتكاب المحرم ، ومن ذلك الكذب .

« وَالْعِصْيَانَ » .

أي : وكره إليهم العصيان ، والمراد به جميع المعاصي .. وأخبر سبحانه أن من اتصف بهذه الصفات : صفات الحمد ، هم الراشدون ، أي : الذين رشدوا باتباع الهدى ، وكان رشادهم واهتداؤهم فضلاً من الله ، ونعمة عليهم ، قال تعالى :

« لعنتم » لأنتم .

« أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) » .

علم : بأحوال عباده ؛ حكيم : فيما يشرعه لهم .
ثم عقيب على ذلك بالحث على إصلاح ذات البين ، فيما لو وقعت خصومة بين طائفتين من المؤمنين بلغت حد المقاتلة .. قال تعالى :

« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا » .
ي : تدخلوا في الصلح بالحسنى .

« فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى » .

أي : تجاوزت إحداها على الأخرى بغير حق ، وأبت الصلح ..

« فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ » .

أي : كونوا يداً واحدة في إخضاع الفئة الباغية المعتدية ، حتى تقسروها على الرجوع إلى حكم الله وترضى به ..

« فَإِنْ قَامَتْ » أي رجعت إلى الحق « فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا » .

أي يجب أن يكون الصلح قائماً بين الفئتين المتقاتلتين على أساس العدل ، وتحكيم كتاب الله ..

« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) » .

(بغت) اعتدت واستطالت . (تفيء) ترجع . (أقسطوا) أعدلوا في كل أموركم .
(المقسطين) العادلين في أحكامهم .

أي : يحب العادلين .. وفي ذلك ، ترغيب في العدل ، وإقامته بين الناس .
وأوضح سبحانه أخوة الإسلام المقتضية للترابط بقوله :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ » .

أي : من مقتضى أخوة الإسلام أن يسود الوئام بين جميع الإخوة ، فإن
حدث انشقاق في صفوف المسلمين ، فمن الواجب تلافيه بالإصلاح .. وأمر
سبحانه ، بالتزام تقواه بفعل ما أمر به ومن ذلك : إصلاح ذات البين وترك ما
نهى عنه ومن ذلك الشقاق ، والفرقة بين المسلمين ، قال تعالى :

« وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) » .

أي : إن تقوى الله سبيل إلى رحمته وبلوغ رضوانه .
ثم ذكر سبحانه في الآيات التالية ، جملة من آداب المعاشرة ، ووجه إليها
المؤمنين لنتم بها الألفة بينهم .. بدأها بقوله :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن
يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ » .

أي : لا يحتقر ، ولا يسخر ، أو يهزأ المؤمنون بعضهم من بعض ، فلعل
المسخور منه والمحتقر ، يكون أفضل من الساخر الهازي .

« وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ » .

أي : وكذلك النساء ، لا يحل لهن أن يسخرن ، ويحتقرن بعضهن ..

« لا يسخر » لا يهزأ .

فالحكم للرجال والنساء سواء ، والدين ، وأحكامه ، والتزاماته يخاطب بها النساء ، كما يخاطب بها الرجال ، ثم قال تعالى :

« وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ » .

اللمز : العيب ، فهي أن يعيب المسلم أخاه المسلم بقول أو إشارة .

« وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ » .

أي : لا يدع المسلم أخاه بلقب يكرهه ، أو بذنب قد تاب منه ، يعيره به ، أو يدعوه باسم الحيوانات ، كالكلب والحمار ، ونحوها استنقاصاً له .. ثم قال تعالى :

« رِبْشَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ » .

أي : بش أن يدعى المسلم بالفسق ، أو بآية نقيصة من النقائص بعد اتصافه بالإسلام ، ثم حذر سبحانه المتعادين في ارتكاب ما نهام عنه من السخرية واللمز والتنازع بالألقاب فقال :

« وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) » .

أي : الظالمون لأنفسهم حيث حملوها ذلك الإثم والمحدور ..

وعقب على ذلك سبحانه ، بالنهي عن ظن السوء بالمسلمين فقال :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ » .

أي : ترفّعوا ، وابتعدوا عن الظنون السيئة بخيار المسلمين .

« إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » .

(تلمزوا أنفسكم) لا يعيب بعضكم بعضاً . (لا تنازروا بالألقاب) لا تتداعوا بالألقاب المستكرهه . (كثيراً من الظن) هو ظن السوء بأهل الخير .

أي : بعض هذه الظنون السيئة ، ذنب يستحق صاحبه العقوبة فكيف بالكثير منها ، ونهى سبحانه عن التجسس ، وهو تتبع عورات الناس ، وما ستروه من أمورهم ، قال تعالى :

« وَلَا تَجَسَّسُوا » .

ونهى أيضاً عن الغيبة ، وهي كما عرفها الحديث الشريف : ذكرك أخاك بما يكره ، قال تعالى :

« وَلَا يَغْتَبِ بَّعْضُكُم بَعْضًا » .

وشبه سبحانه الغيبة بأكل لحم ابن آدم ميتاً ، وأورد في ذلك استفهاماً تقريرياً قائلاً :

« أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ » .

أي : إذا كنتم لا تحبون ذلك بل تكرهونه لأن النفس تعافه ، فاكروهوا أن تفتابوا إخوانكم ، فأكل لحم المسلم ميتاً كغيبته حياً من حيث البشاعة ! ثم أمر سبحانه بالترام تقواه ، ورغب في التوبة بقوله :

« وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ » (١٢) .

يقبل توبة التائبين ، ويرحمهم ، فلا يؤاخذهم بذنوبهم ..

ثم أوضح سبحانه تساوي الناس في البشرية ، وفي نسبتهم لأدم وحواء قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى » .

(لا تجسسوا) لا تتبعوا عورات المسلمين .

وذكر سبحانه : أنه فرّع من هذا الأصل شعوباً وقبائلاً ، فالشعوب : جمع شعب ، وهو الجمع العظيم الذي ينسب إلى أصل واحد ، ويليه في المرتبة القبيلة ، والغرض من هذا التفريع حصول التعارف بينهم ، فتوصل الأرحام وتحفظ الأنساب وتوضح نسبة كل فرد فيقال : فلان ابن فلان من قبيلة كذا .. ولم يكن الغرض من الانتساب إلى الشعب أو القبيلة العصبية أو التعاضد بالآباء والقبائل .. قال تعالى :

« وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » .

يكون التفاضل عند الله بقدر ما في المرء من تقوى الله ، وطاعة لأوامره لا بالشرف ، ولا بالنسب والحسب .

« إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » (١٣) .

عليم بأحوال عباده ، خبير بكل اتجاهاتهم وتصرفاتهم . وانتقلت الآيات بعد ذلك : يذكر الله فيها خبر قوم من الأعراب - قيل : هم بنو أسد بن خزيمه - أظهروا الإسلام طمعاً في الأخذ من الغنيمة .. وكانوا يمينون على رسول الله ﷺ بإسلامهم .. قال تعالى :

« قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا » .

أي : صدقنا ، واطمأنت قلوبنا بالدين .. فأمر الله الرسول أن يرد على هذا الزعم ، قال تعالى :

« قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا » .

أي : لم تصدق قلوبكم ولكنكم أظهرتم الإسلام نفاقاً ، وانقدتم بالعمل انقياداً ظاهراً .

« وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ » .

أي : حتى الآن ... لم يدخل الإيمان قلوبكم !

« وَإِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ » .

أي في صدق الإيمان ، صلاح العمل ، والإخلاص فيه ...

« لَا يَلْتَكُمُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا » .

أي : لا ينقصكم من أجور أعمالكم شيئاً .

« إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (١٤) .

غفور لذنوب عباده ، رحيم بهم .

وأوضح سبحانه في الآية التالية وصف المؤمنين الصادقين في إيمانهم فقال :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا » .

أي : صدقوا بالوحيه الله ورسالة رسوله ، ولم يشكوا في صدق إيمانهم ودينهم .

« وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » .

أي قاتلوا أعداء الله بأموالهم يبذلونها في سبيل الله طيبة بها نفوسهم وجاهدوا - إلى جانب جهادهم بالأموال - بالأنفس يبذلونها ابتغاء رضوان

(ولا يلتكم) لا ينقصكم .

الله . ثم قال تعالى :

« أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) . »

أي : من كانت هذه أوصافه ، فهو بحق صادق في إيمانه ..

ووبخ سبحانه الأعراب بزعمهم الإيمان فقال :

« قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ » .

العلم هنا : بمعنى الاخبار ، المعنى : أتخبرون الله بما في ضمائركم ، وما تزعمونه من دعوى الإيمان والدين ؟

« وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) » .

أي : علمه محيط بكل شيء في السموات والأرض .. لا يخفى عليه مثقال ذرة .. فهل يخفى عليه حقيقة دعواكم في الإيمان والاطمئنان به ؟
ثم رد عليهم سبحانه في امتنانهم على الرسول ﷺ بالإسلام والمتابعة له على دينه ، قال تعالى :

« يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِلَّا مَعَكُمْ » .

يمنون عليك ، لأنهم أسلموا . قل : لا تمنوا علي بذلك ! والخطاب موجه إلى الرسول ﷺ .

« بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) » .

(اتعلمون الله بدينكم) أتخبرونه بقولكم آمنا .

أي : أن المنّة لله عليكم في هدايته لكم الإيمان إن كنتم صادقين في زعمكم
أنكم مؤمنون به .

وختم السورة سبحانه بتقرير سعة علمه .. وأنه يعلم ما غاب وخفي من
أمر السموات والأرض وهو البصير بكل ما يعمل العباد سرّاً أو جهرّاً ..
قال تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ (١٨) » .

تفسير سورة ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) » .

افتتح سبحانه هذه السورة بحرف من الحروف المقطعة كما افتتح غيرها مثل « ص » و « الم » و « ن » والله أعلم بمراده من بدء بعض السور بهذه الحروف وقوله تعالى : « والقرآن المجيد » أي : الشريف الكريم الكثير الخير ، ثم ذكر سبحانه تعجب كفار قريش من إرسال رسول إليهم من جنسهم ومن قبيلتهم ، ينذرهم أي يخوفهم من عذاب الله إذا تمادوا في كفرهم .. ثم قال تعالى :

« إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) » .

أي : الرجعة بعد الموت مستحيلة ، وبعيدة الوقوع ! . ثم رد الله عليهم بقوله :

« قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ » .

أي علم الله سبحانه كل ما تأكله الأرض من أجسادهم .. ومن كان عنده علم ذلك لا يعجزه أن يعيده إلى الحياة بعد الموت .

« وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ (٤) » .

(رجع بعيد) رجوع إلى الحياة غير ممكن .

أي : عند الله سبحانه كتاب يحفظ كل الأشياء ، ومن ذلك أجزاءهم وعددهم .. فلا يعجزه أن يرجع إليهم الحياة بعد أن صاروا رميمًا - وقيل : « حفيظ » أي : محفوظ من التبديل والتغيير ، ثم قال تعالى :

« بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيحٍ (٥) » .

أي بل جاءوا بأفطع من تعجبهم من إرسال رسول إليهم ، وبغتهم بعد الموت وهو تكذيبهم بالحق ، أي القرآن وما تضمنه من الإخبار بالحشر والمعاد وغير ذلك .. فهم « في أمر مريح » أي : مضطرب ، ومختلط . فتارة يقولون عن القرآن : انه سحر وعن الرسول انه ساحر ، وتارة يقولون عن الرسول : انه كاهن .

بعد ذلك ، أخذ سبحانه يسرد الأدلة الواضحة على قدرته العظيمة .. يستنتج منها إثبات البعث ، قال تعالى :

« أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا .

أي كيف رفعها من غير عمد .

« وَزَيَّنَّاها » أي : أودع فيها النجوم زينة لها « وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) » .

أي : وليس فيها شقوق « وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا » أي بسطها

« وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ » أي : جعل فيها الجبال لئلا تميد وتضطرب .

« وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) » .

أي وأخرج فيها من جميع أنواع النبات ما يسر الناظر بحسن منظره ..

(امر مريح) مختلط مضطرب ملتبس عليهم . (فروج) فتوق وشقوق . (الأرض مددناها) بسطانها للاستقرار عليها . (رواسي) جبالاً ثوابت . (زوج بهيج) صنف حسن نضر .

ومن قدر على ذلك كله ، فهو قادر على بعث الأجساد وإعادة الحياة إليها ،
ثم قال تعالى :

« تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) » .

أي : فعل ذلك للتبصير وليكون ذكرى يذكر بها كل عبد منيب أي :
راجع إلى ربه ، خائف وتائب من ذنوبه .

واستمر سبحانه في تعداد نعمه على العباد فقال :

« وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا » .

أي : مطراً ، وصفه بالبركة لكثرة خيره ومنفعته .

« فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ » .

أي : أنبت بالمطر الحدائق والبساتين ، ونحوها .

« وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) » .

أي : أنبت بالمطر سائر الحبوب كالقمح ، والشعير ، وسائر الحبوب التي
تحصد ..

« وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهُمَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) » .

أي : وأنبت بالمطر أيضاً النخل طويلات شاهقات لها ثمر وحمل ؛ والطلع
أول ما يظهر من الثمر قبل أن ينشق ؛ ومعنى نضيد أي منضود بمعنى :
متراكب على بعضه من كثرتة .. ثم قال تعالى :

« رِزْقًا لِلْعِبَادِ » .

(عبد منيب) راجع إلينا بالتوبة والطاعة . (حب الحصيد) حب الزرع الذي يحصد .
(النخل باسقات) طوالاً أو حوامل . (طلع) ثمرها ما دام في وعاله . (نضيد) متراكم
بعضه فوق بعض .

أي : كل هذه النعم جعلها رزقاً للخلق ، ثم قال :

« وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا كَذَّبُ لَكَ الْخُرُوجُ » (١١) .

أي : أحيا بالمطر أرضاً مجدبة ، فأنبث العشب ترعاه الماشية ، ومثل سبحانه لإحياء الموتى ، وبعثهم من القبور ، بإحيائه للأرض المجدبة فقال : « كذلك الخروج » أي من القبور .

بعد ذلك ، أخذت الآيات التالية تستعرض الأمم المكذبة لرسول الله .. يذكر الله فيها ما أنزله بهم من نقمة . وفي ذلك تسلية لرسول الله عن تكذيب المكذبين له ، وتهييب لمن كذبه خشية أن يصيبه ما أصاب الأمم المكذبة من العذاب .. قال تعالى :

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ » (١٢) .

أي كذبت قبل قريش .. « الرس » البئر التي لم تطو أي : لم تبني ، واختلف المفسرون في تحديد موضع البئر .. وفي النبي المرسل إلى أصحاب الرس وليست العبرة في تحديد موضعهم ، أو تعيين نبيهم ؛ وإنما العبرة بإهلاكهم لما كذبوا الرسول المرسل إليهم ، ثم قال تعالى :

« وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ » (١٣) ، أي أمته « وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ » .

الأيكة : واحد الأيك ، وهو الشجر الكثير الملتف .. كذبوا رسولهم شعبياً ، فأهلكهم الله .

« أصحاب الرس » البئر : رموا نبيهم في البئر . « أصحاب الأيكة » سكان الفيضة الكثيفة الملتفة الشجر .

« وَقَوْمٌ تَبِعَ ، وهو « تَبِعَ » الحميري باليمن « كُلُّ كَذَّابٍ الرَّسُلَ
فَحَقَّقْ وَعِيدِ (١٤) » .

أي : كل أولئك كذبوا رسل الله إليهم ، فاستوجبوا ما توعد الله به المكذبين
لرسله من العذاب ..

وعاد سبحانه يقرر البعث بقوله :

« أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ » .

أي : أفعجزنا عن الخلق الأول أي ابتداء الخلق حتى يتوهم منكرو البعث
عجزنا عن إعادته وبعثه ، ثم قال تعالى :

« بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) » .

« في لبس » أي في شك ، والخلق الجديد : المراد به البعث بعد الموت وحيث
كان البعث بعد الموت مخالفاً للعادة المألوفة أنكروه ، وصاروا في شك منه ..
ثم عرض سبحانه لخلق الإنسان ، ووقوفه على خطرات قلبه ، وما تحدثه به
نفسه ، وفي ذلك دلالة على قدرته وسعة علمه ، قال تعالى :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ
أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) » .

أقرب إليه من كل شيء ، من حبل الوريد .. و « حبل الوريد » : عرق كبير
في العنق والمراد : قرب علم الله من العبد ، وإطلاعه على كل أمر من أموره . ثم
أخبر سبحانه عن الملكين الموكلين بإحصاء وكتابة أعمال العبد فقال :

« قوم تبع » الحميري ملك اليمن . « أفمينا بالخلق » أفعجزنا عنه . « في لبس » خلط أو
شبهة . « حبل الوريد » عرق كبير في العنق .

« إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) » .

أي : عن اليمين ملك ملازم وقاعد يكتب عليه الحسنات ، وعن الشمال ملك ملازم وقاعد يكتب عليه السيئات .

« مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) » .

أي : ما يتلفظ العبد بكلمة إلا سجلها عليه « رقيب » بمعنى : ملك حافظ لها « عتيد » أي : حاضر أينما كان !

وأخذت الآيات بعد ذلك تصف المرحلة الأخيرة لنهاية بني آدم ، وما يكون بعدها من البعث والحساب والجزاء .. قال تعالى :

« وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ » .

تلك حالة المحتضر الذي نزل به الموت يعاني سكراته .. أي : شدائده وكربه فتكشف له عن حقيقة الموت الذي كان يحيد ، أي : يفر منه ويحاول أن يبتعد عنه .. قال تعالى :

« ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) » .

وقيل : تكشف له سكرات الموت وما يؤول إليه أمره من سعادة وشقاء . ثم ذكر سبحانه البعث بقوله :

« وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) » .

أي : حين ينفخ في الصور نفخة البعث ، ذلك اليوم هو يوم الوعيد ، أي : اليوم الذي يحقق فيه الوعيد للكفار بالعذاب .. وأخذ يفصل سبحانه في كيفية ذهاب الناس إلى المحشر فقال :

« يتلقى المتلقيان » يثبت ويكتب الملائكة . « قعيد » ملك قاعد . « رقيب عتيد » حافظ لأقواله معد حاضر . « سكرة الموت » شدته وغمرته . « تحيد » تفر وتهرب .

« وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) » .

أي معها ملك يسوقها ، وآخر يشهد عليها بأعمالها ..

« لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا » .

أي : في تشاغل عما تعانيه اليوم من الأهوال والشدائد ..

« فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) » .

أي : كشف عنك ما كان يغطي عينيك وقلبك وبصرك في الدنيا .. فأصبح بصرك اليوم نافذاً قوياً ، يبصر ما كنت تنكره في الدنيا .

ثم أخبر سبحانه عن الملك الموكل بعمل الإنسان يحصيه عليه ، فقال :

« وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) » .

أي هذا الذي حفظته عليه من الأعمال معد محضر بلا زيادة ولا نقصان .
وقيل بل الملك الذي يسوق ابن آدم يخاطب الرب ويقول : هذا ابن آدم الذي وكلتني به قد أحضرته .. وعندئذ يأمر الله الملكين : السائق ، والشهيد ، أن يلقيا في جهنم كل كفار معاند للحق ، قال تعالى :

« أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) » .

وأخذ سبحانه يعدد في أوصاف هذا الكفار العنيد فقال :

« مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ » أي يمنع الحق الواجب عليه في ماله ، وهو الزكاة ..

لا يخرجها ولا يسخو بصدقة « مُعْتَدٍ » .

أي متجاوز للحد فيما ينفقه ، وقيل : معتد ظالم .. لا يقر بالتوحيد .

« فطامك » حجاب غفلتك . « حديد » نافذ قوي . « عنيد » شديد العناد والمجادلة للحق .

« مُرِيبٍ (٢٥) » .

أي : في التوحيد ، فيجعل مع الله إلهاً آخر .. يشركه مع الله في عبادته .. يدعو ، أو يستعين به ، أو يرجوه ويخافه ، أو يستغيث به ، ويتوكل عليه ، أو يذبح له وينذر ، فهو جدير بأن يقذف في العذاب الشديد في جهنم ، قال تعالى :

« الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) »

وعندما يؤمر بإلقاء الكافر في النار ، يحتج قرينه أي : شيطانه الذي كان يغويه في الدنيا قائلاً : ما أخبر الله به حيث يقول :

« قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ » .

أي : يتبرأ منه ويقول : يا رب لم أكن لأضله .

أي : كان في نفسه ضالاً قابلاً للباطل .

« وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) » .

وعندما يطول الجدل بين الإنسي وقرينه الجنّي بين يدي الجبار ، فالإنسي يقرر أن الشيطان سبب إضلاله ، والشيطان يزعم غير ذلك .. عندئذ يقطع الله الجدل بينهما والخصام بقوله :

« قَالَ » أي سبحانه « لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ

بِالْوَعِيدِ (٢٨) » .

أي : قدمت إليكم بالإنذار على لسان الرسل وأنزلت الكتب .. فقامت بذلك عليكم الحجة ، ثم قال تعالى :

(مرِيب) شاك في دينه . (ما أطفيته) ما قهرته على الطغيان والغواية .

« مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ » .

أي : لا تبديل عندي لقولي ، ولا تغيير لقضائي الذي قضيته بتعذيب الكافرين ، وملء جهنم بهم .

« وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) » .

أي : لست أظلم أحداً فأعاقبه من غير جرم .. قال تعالى :

« يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتَ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ (٣٠) » .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : « يخبر الله تعالى أنه يقول للجهنم يوم القيامة : « هل امتلأت » وذلك لأنه تبارك وتعالى وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين ، فهو سبحانه يأمر بمن يأمر به إليها وهي تقول « هل من مزيد » أي : هل بقي شيء تزيدوني ؟ ! هذا هو الظاهر من سياق الآية وعليه تدل الأحاديث .

وبعد أن ذكر سبحانه تسع النار بأعدائه ، ذكر الجنة ودنوها لأوليائه .. قال تعالى :

« وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) » .

أي : قربت الجنة ، وأدنى من المتقين بحيث ينظرون إليها قبل دخولها .. ويقال لهم :

« هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) » .

أي : هذا الذي تشاهدونه ، هو ما كان يوعد به كل رجاع عن ذنوبه .

(أزلفت الجنة) قربت وأدنى . (أواب) رجاع إلى الله بالتوبة .

إلى طاعة الله ورضوانه و « حفيظ » أي حافظ لأوامر الله فيفعلها .. ولنواهيها فيتركها .. واستمر سبحانه في وصف من يستحق الجنة فقال :

« مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) » .

أي : خاف الله في السر حيث لا يراه أحد إلا الله فأطاعه — ولقي الله يوم القيامة بقلب منيب ، أي خاضع إليه .

« ادْخُلُوا هَٰذَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) » .

أي : يقال لأهل هذه الصفات : ادخلوا الجنة بسلامة من العذاب والهدوم ، وقيل : بسلام من الله ومن ملائكته وقد كتب الله لهم فيها الخلود ولا يخرجون منها ولا يموتون .

وأخبر سبحانه أن لهم في الجنة كل ما يطلبونه ويشتونه من النعم المقيم ولهم زيادة من النعم من عند الله مما لم يسألوه أو يخطر لهم على بال .. قال تعالى :

« لَهُمْ مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) » .

وقيل : إن المراد بالمزيد هو النظر إلى وجه الرب الكريم ، يتمتعون به كما يحجب الكفار عن رؤيته .

وانتقلت الآيات بعد ذلك إلى تخويف قريش بأس الله ونقمته كما انتقم من الأمم المكذبة من كان قبلهم . وقد كانوا أشد منهم قوة ، قال تعالى :

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ » أي : كثيراً ما أهلك الله قوماً « هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا » أي : أكثر من قريش قوة وبأساً

(بقلب منيب) مقبل على طاعة الله . (كم أهلكنا) كثيراً أهلكنا . (قوت) أمة . (بطشاً) قوة أو أخذاً شديداً في كل شيء .

« فَتَنْقَبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ » (٣٦) .

أي : طوفوا واضربوا في الأرض ابتغاء المكاسب أكثر مما تصنع قریش ..
فهل كان لهم من محيص ، أي : من مفر من قضاء الله ؟ حين نزل بهم ، وهل نفعمهم
ما جمعوه من أموال في رد العذاب ؟!

ثم وجه سبحانه الأنظار إلى أخذ العبرة من إهلاك الكاذبين والاعتناظ
بمصيرهم فقال :

« إِنَّ بِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ
وَهُوَ شَهِيدٌ » (٣٧) .

أي : لعبرة لكل صاحب قلب واع ، وقيل لكل صاحب عقل ، واستمع
القرآن واستمع ما يلقي إليه من وعظ لا يحدث نفسه بغيره ، فهو شهيد ، أي :
حاضر القلب ، ليس بغافل ، ولا ساه .

وعاد سبحانه يقرر البعث عن طريق الاستنتاج واستخدام العقول في
التفكير فقال :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ » (٣٨) .

أي : لم يصبه من إجماد هذا الخلق العظيم تعب ولا إعياء .. ومن قدر على
هذا الخلق العظيم ولم يصب منه تعب ولا إعياء .. فهو قادر على إحياء الموتى
لن يعجزه ذلك ..

(فتنبؤوا في البلاد) طوفوا في الأرض ضد الموت . (محيص) مهرب ومفرق الموت .
(لغوب) تعب وإعياء .

ثم أمر الله رسوله بالصبر على أذى المكذبين من قومه وما يرمونه به .. كما أمره بالتسبيح قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، قال تعالى :

« فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) » .

أي : صلِّ حمداً لله ، فالمراد بالتسبيح الصلاة ، والمراد بها « قبل طلوع الشمس » صلاة الصبح وبما « قبل الغروب » صلاة العصر .

« وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ » .

وصل من الليل ، والمراد بهذه الصلاة صلاة المغرب ، والعشاء ، وقبل المراد بها التهجد ، وصلاة النافلة في الليل .

« وَأَذْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) » .

قيل : المراد بذلك التسبيح في أذبار الصلوات أو النوافل بعد المكتوبات .

ثم أمر الله الرسول ﷺ - والأمة معنية بالخطاب - قائلاً :

« وَأَسْمِعْ » قيل : المعنى أي : انتظر « يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ

مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) » .

والمنادي هو إسرافيل الذي ينفخ في الصور .. قيل : إنما وصفه بالقرب

لأنه يسمعه جميع الخلق ، وقيل : المكان صخرة بيت المقدس .

« يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ » .

أي : يسمعون النفخة الثانية تأتي بالحق أي البعث الذي كذب به

الكافرون .

(سبح بحمد ربك) نزهه تعالى حامداً له . (أذبار السجود) أعقاب الصلوات .

(يسمعون للصيحة) نفخة البعث .

« ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ » (٤٢) .

أي : ذلك اليوم ، هو يوم الخروج من القبور .

ثم قرر سبحانه كمال قدرته على بدء الخلق وإعادته بعد الموت فقال :

« إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ » (٤٣) .

يحيي سبحانه أي : يوجد الخلق في الدنيا ويميتهم فيها عند انقضاء آجالهم ، وإليه المآل والمرجع في الآخرة للحساب والجزاء ، ثم قال تعالى :

« يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا » .

أي : يخرجون سراعاً من القبور يوم تنفلق الأرض عنهم .

« ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ » (٤٤) .

أي : إعادة الموتى إلى الحياة ، وحشرهم للحساب هيّن ويسير على الله .

ثم أخبر سبحانه عن إحاطة علمه بما يقوله المشركون في تكذيبهم لرسول الله ﷺ ، قال تعالى :

« نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » .

أي : لست بالذي تجبرهم على الهدى ، وتقصرهم على الإسلام ، وإنما بعثت مبلغاً ومذكراً ، وأمره سبحانه أن يستمر على تذكيره ووعظه بالقرآن ، وإنما يتذكر ويتعظ بالقرآن من يخاف الله ووعيده للكافرين بالعذاب الأليم ، قال تعالى :

« فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » (٤٥) .

« تشقق » تنفلق . « سراعاً » مسرعين إلى الداعي . « يجبار » يوال تقهرهم على الإيمان .

تفسير سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَالذَّارِيَّاتِ ذُرُوءًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَّاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا (٤) » .

هذه جملة أقسام أقسم الله بها - والله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته - أما المخلوق فلا يجوز له أن يقسم إلا بالله ربه - فأقسم سبحانه بـ (الذاريات) وهي الرياح تثير التراب وتذروه ، أي تفرقه في الفضاء . وأقسم بـ (الحاملات وقرأ) السحاب يحمل حملاً ، أي يكون مثقلاً بالماء . وأقسم بـ (الجاريات يسراً) السفن تجري في الماء جرياً سهلاً - وأقسم بـ (المقسمات أمراً) الملائكة تنزل بأمر الله ؛ تقسم بين العباد ما أمرت بقسمته من الأمطار والأرزاق والآجال ؛ وكل ذلك يدل دلالة واضحة على قدرة الله وكمال صنعه . ثم ذكر سبحانه المقسم عليه وأخبر أن الجزاء على الأعمال والحساب عليها واقع لا محالة ؛ قال تعالى :

« إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ » .

أي الحساب والجزاء « لَوَاقِعٌ (٦) » .

ثم كرر سبحانه القسم بنوع آخر من مخلوقاته ، فأقسم بالسماء ذات الحبك ؛

(والذاريات ذرراً) أقسم بالرياح تذرو التراب وغيره . (فالحاملات وقرأ) السحب تحمل الأمطار . (فالجاريات يسراً) السفن تجري بسهولة في البحار . (فالمقسمات أمراً) الملائكة تقسم المقدرات الربانية . (إنما توعدون) من البعث (جواب القسم) . (الدين) الجزاء .

التفسير الميسر - الثالث «هـ»

أي ذات الحسن والبهاء ، والخلق المستوي ، ليوجه الأنظار بهذا القسم إلى اضطراب المشركين في أقوالهم عن الرسول وعن القرآن - فقالوا عن الرسول انه ساحر ، وقالوا إنه مجنون - وقالوا عن القرآن إنه سحر أو شعر أو كهانة ، وكل هذه أقوال باطلة تصرف عن الهداية والإيمان كل من أضله الله . قال تعالى :

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُتَخَلِّفٍ (٨) يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُنْفَكِ (٩) » .

ف (يؤفك) أي يصرف - ثم لعن سبحانه أصحاب هذه الأقوال المختلفة المتضاربة الذين هم في غفلة وعمى لاهون وقد قنادوا في الطغيان يسألون الرسول استبعاداً وتكذيباً عن يوم الجزاء ويقولون متى يكون؟ ورد عليهم سبحانه بأن الجزاء سوف يكون في اليوم الذي يدخلون فيه النار وفيها يعذبون وتقول لهم خزنتها : ذوقوا عذابكم - هذا العذاب الذي كنتم تستعجلونه في الدنيا . قال تعالى :

« قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) » .

وبعد أن ذكر سبحانه المكذبين بيوم الجزاء المبطلين في أقوالهم عن الرسول والقرآن - أخذ يصف ما أعده للمؤمنين في الآخرة من النعيم المقيم فذكر أنهم ينعمون في جنات تجري فيها العيون ، ويتقبلون كل ما أنعم الله به عليهم من

(ذات الحبك) الطرق التي تسير فيها الكواكب . (يؤفك عنه) يصرف عن الحق الآتي به الرسول . (قتل الخراصون) لعن الكذابين . (غمرة) جهالة غامرة . (ساهون) غافلون عما أمروا به . (أيان يوم الدين) متى يوم الجزاء (إنكار له) . (يفتنون) يحرقون ويعذبون .

النعم راضية به نفوسهم ، وأوضح سبحانه أن سبب هذا النعم إحسانهم الأعمال في الدنيا ، فقد كانوا يقضون أكثر الليل في تهجد وعبادة لا ينامون إلا القليل منه - في وقت السحر كانوا يستغفرون الله تعالى من ذنوبهم وهو ثلث الليل الآخر ، أرجى ساعات الإجابة - وخصصوا من أموالهم جزءاً مقدراً معلوماً لمساعدة السائلين الذين يتعرضون لطلب الإحسان من ذوي الحاجة والفقر ، أو لمواساة المحرومين ؛ وهم من حرموا من المال بأي وسيلة ، سواء كان الحرمان لجائحة أصابتهم ، أو لأنهم لا يحسنون التكسب . قال تعالى :

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) » .

وبعد أن ذكر أوصاف المتقين وما أعد لهم من النعم ، انتقلت الآيات تسرد شيئاً من الأدلة المحسوسة على قدرة الخالق العظيم . وهي عبر للمؤمنين ازدادوا بها يقيناً بالله إلى يقينهم - فأرض ذات فجاج تضم ألواناً من المخلوقات هي دلالة واضحة على قدرة القادر العظيم ، وفي التدرج في خلق الإنسان من نطفة فعلاقة فضغة إلى تمام الخلق ، آية لمن ينظر بعين الاعتبار . قال تعالى :

« وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) » .

(يجمعون) ينامون . (بالأسحار) أواخر الليل . (المحروم) الذي حرم الصدقة لتعففه عن السؤال مع حاجته .

ووجهت الآية التالية أنظار العباد إلى أعظم سبب يحصل به تيسير الرزق ؛ وهو المطر ينزل من السماء بالخير والبركات . قال تعالى :

«وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ» أما قوله تعالى : «وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)» .

أي من الثواب والجزاء في الآخرة ، كله مقدر مكتوب في السماء . وأقسم سبحانه أن ما ذكره من أمر الرزق في الدنيا والجزاء في الآخرة حق لا مرية فيه يجب أن يجزم المرء بوقوعه كما يجزم بأنه قادر على النطق لا شك عنده في ذلك . قال تعالى :

«فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣)» .

وانتقلت الآيات بعد ذلك تسرد قصص بعض الرسل وأخبارهم مع أمهم ؛ بدأها سبحانه بقصة إبراهيم مع ضيوفه الملائكة فقال (هل أتاك) والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومعناه : هل جاءك خبر بما حدث بين إبراهيم وضيوفه من الملائكة ؟ ووصفهم بالمكرمين لأنهم مكرمون عند الله ، قدموا عليه وسلموا : فردّ التحية واستنكر أمرهم لأنهم غرباء لا يعرفهم ؛ وقام بواجب الضيافة ؛ فأسرع إلى أهله ومال إليهم وهو معنى « راغ » وجاءهم بمعجل سمين مخنوذ من خيار ماله ، وقربه إليهم ليأكلوا منه فامتنعوا ، فعرض عليهم أن يجيبوا دعوته لهم بالأكل قائلا (ألا تأكلون) وأضمر في نفسه الخوف منهم ، فطمأنوه بقولهم (لا تخف) ، وأردفوا ذلك ببشارته بمولود يولد له ، يكون من حملة العلم وأهل المعرفة بالله ودينه .

وسمعت زوجة إبراهيم بهذه البشارة ، فأقبلت عليهم في صيحة وضجة

ضاربة وجهها بيديها تعجباً من إتيانها بالولد وهي في سن اليأس (عجوز عقيم)
أي ألد وقد غدوت عجوزاً وكنت في صباي عقيماً ؟ فأجابها الملائكة بقولهم
(كذلك قال ربك) أي نحن نخبرك عن الله ، والله حكيم في أعماله ، عليم
بمصالح عباده .. قال تعالى :

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) ، إِذْ دَخَلُوا
عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ »
أي مال وأسرع إليهم خفية فجاء بعجل سمين (٢٦) فقرّبه إليهم ،
قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ؛ قَالُوا لَا تَخَفْ ؛
وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ؛ فَصَكَّتْ
وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ؛ إِنَّهُ
هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) .

وبعد أن عرف خليل الله إبراهيم أن ضيوفه ملائكة مرسلون من عند الله ،
أخذ يستوضحهم عن الأمر الذي أمروا به ، فأخبروه أن الله تعالى أرسلهم إلى
قوم لوط بالعذاب لإجرامهم ، وسوف يلقون عليهم حجارة من طين معلّمة
مكتوباً على كل حجر اسم من يرمى به ، أعدّها الله للسرفين . قال ابن عباس
للسرفين أي المشركين ، لأن الشرك أعظم الذنوب - ولقد أخرج الله قبل
إهلاكهم كل من كان في قرية لوط من المسلمين ولم يكن فيها غير أهل بيت
واحد ممن أسلم وآمن بنبي الله لوط ، والبيت هو بيت لوط فيه بنتاه . ولقد ترك
الله القرية بما أنزل عليها من العذاب ، عبرة لمن يعتبر ، ممن يخاف عذاب الله المؤلم

(ضيف إبراهيم) أضيفه من الملائكة . (فراغ إلى أهله) ذهب إليهم في خفية من ضيفه .
(فأرجس منهم) أحس في نفسه منهم الخوف . (صرة) صيغة . (فصكت وجهها) لطمته بيدها .

من المؤمنين ، لأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بالعبر . قال تعالى :

« قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) » .

ثم ذكر سبحانه قصة نبي الله موسى ، حين أرسله إلى فرعون بالأدلة والبراهين الواضحة ، فأعرض فرعون عن الإيمان به معتزاً بجمعه وجنوده الذين كان يتقوى بهم كالركن الذي كان يقوى به البنيان - ورمى نبي الله موسى بالسحر والجنون ، فانتقم الله منه وأغرقه وجنوده في البحر ملوماً على كفره وعناده وجنوده - ففي قصة موسى مع فرعون وانتقام الله منه ومن قومه عبرة لمن يعتبر .

وفي إهلاك عاد لما كذبوا رسول الله هوداً ، عبرة أيضاً إذ أرسل الله عليهم ريحاً وصفها بأنها عقيم ، لا خير ولا بركة فيها أي لا تلقح شجراً ولا تحمل مطراً ، فلم تبق الريح منهم ولا من أموالهم ومواشيهم شيئاً إلا جعلته بالياً هالِكاً .

وفي إهلاك ثمود ، حين كذبوا رسول الله صالحاً ، عبرة أيضاً لمن يعتبر ،

« فما خطبكم » فما شأنكم الخطير . « مسومة » معلقة .

وذلك حين عقروا الناقة - أنذرهم رسول الله صالح بالعذاب فلم يكثرثوا ،
وتقادوا في الطغيان ، فأرسل عليهم الصاعقة أخذتهم بالنهار وهم ينظرون
إليها ، ولم يستطع أحد منهم الهرب والإفلات ، ولم يقدرُوا على الانتصار لأنفسهم
مما نزل بهم .

وفي إهلاك قوم نوح ، قبل هذه الأمم المكذبة ، عظة وعبرة لأنهم خرجوا
عن أوامر الله وانتهكوا حرمانه ، قال تعالى :

« وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨)
فَتَوَلَّىٰ بِرْكُهُ ، وَقَالَ سَحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ،
فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ
كَالْرِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا
عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا
أَسْتَطْعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ
قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) » .

وانتقلت الآيات بعد ذلك تذكر جملة من الأدلة على ربوبية الله وعظيم
قدرته ، فذكرت أنه سبحانه خلق السموات (بأيد) أي بقوة ، ذكر ذلك
ابن عباس وغيره من مفسري السلف . وهو سبحانه القادر العظيم على إيجاد
هذا الخلق العظيم ، حيث جعله رفيعاً من غير عماد ، واسع الأرجاء - والأرض

« فتولى بركته » أعرض يحنوده عن الإيمان . « وهو ملهم » آت بما يلام عليه من الكفر .
« الريح العقيم » المهلكة لهم ، القاطعة لنسلبهم . « فعتوا » فاستكبروا . « فأخذتهم الصاعقة »
أهلكتهم صيحة أو نار من السماء .

فرشها ، أي مهدها وجعلها صالحة للسكنى والانتفاع بها ، فنعم الخالق العظيم .
ومن جميع صنوف المخلوقات خلق صنفين مختلفين : فخلق سماءً وأرضاً وليلاً
ونهاراً ، وشمساً وقمرأ ، وذكرأ وأنثى ، ليكون ذلك حافزاً على العظمة
والتذكرة بقدرة الله تعالى ، ودليلاً على ربوبية الخالق العظيم ، وليفر العباد من
ذنوبهم إليه سبحانه بالتوبة كما أمر بذلك وإلى طاعته والعمل بما يرضيه ، فكما
أنه فرد في الخلق والتصوير فهو فرد في الألوهية والتدبير ، ولهذا أنذر الرسول
ﷺ العباد ، وخوفهم عقوبة الله ، وأمرهم أن لا يجعلوا له سبحانه شريكاً في
العبادة ، فالعبادة حق لله ، وصرفها لغير الله شرك بالله وقد توعد الله المشرك
بنار الجحيم . قال تعالى :

« وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا
فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) وَلَا
تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١) . »

بعد هذا أخذ سبحانه يعزي الرسول ﷺ ، عن كفر قومه به ، وتكذيبهم
له ، ورميهم إياه بالسحر والجنون ، ويذكر له أنهم كأسلافهم المكذبين لرسول
الله ، كانوا كلما جاءهم رسول من عند الله رموه بالسحر والجنون ، وتساءل
سبحانه قائلاً : (أتواصوا به) أي هل أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة ، حتى
قال المتأخر نفس مقالة المتقدم ، ثم أجاب سبحانه على هذا التساؤل قائلاً :
(بل هم قوم طاغون) أي لكنهم طغاة تشابهت منهم القلوب ، فتطابقت
الأفعال ، قال تعالى :

« بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ بِقُوَّةٍ وَقُدْرَةٍ . « إِنَّا لَمُوسِعُونَ » لِقَادِرُونَ . « الْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا » مَهْدْنَاهَا
كَالْفِرَاشِ . « فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ » السَّوْرُونَ الْمُصْلِحُونَ . « خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ » صَنَفَيْنِ وَنَوْعَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ .
« فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ » فَامْرَبُوا مِنْ عِقَابِهِ إِلَى ثَوَابِهِ . »

« كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ » (٥٢) أَتَوَاصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) .

ثم أمر الله الرسول ﷺ بالإعراض عنهم ، فلا لوم عليه بعد أن أدى الرسالة أتم الأداء وأكملها ، وأمره باستدامة التذكير مخبراً إياه أن الذكرى لا ينتفع بها غير المؤمنين ، حيث قد شرح الله صدورهم للإيمان . قال تعالى :

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ » (٥٤) وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) .

ثم عرض سبحانه الحكمة من خلق الجن والإنس ؛ وهي عبادته وحده دون سواه ؛ وتوحيده وإخلاص الدين له ؛ وأوضح أنه لم يخلق الخلق عبثاً ؛ أو ليتكثروا بهم من قلة . كما أنه لا يريد منهم أن يرزقوا أحداً من خلقه ، أو يرزقوا أنفسهم ؛ ولا أن يطعموا عباده . قال البغوي : وإنما أسند الإطعام إلى نفسه ، لأن الخلق عيال الله ، كما جاء في الحديث : « يقول الله يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمني » أي فلم تطعم عبدي . اهـ .

وقيل أيضاً في معنى (وما أريد أن يطعمون) أي أنه سبحانه منزه عن الأكل والشرب وكل صفات البشر ، وأخبر سبحانه أن بيده رزق جميع العباد ، وأنه المقتدر على كل ما أراده ويريده . ثم أخذ سبحانه يتوعد الكفار لاستعجالهم العذاب ، ويذكر أن لهم نصيباً كبيراً منه ، وهو معنى قوله تعالى : (ذنوباً) كنصيب أمثالهم في الكفر الذين أهلكتهم الله ، كقوم نوح ، وعاد ، وثمود . وأصل الذنوب في اللغة ، الدلو العظيمة المملوءة . فلا يستعجلوا العذاب فإنه واقع بهم لا محالة ، فالويل لهم منه يوم القيامة . ذلك اليوم الذي وعد الله فيه بالجزاء . قال تعالى :

« وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ (٦٠) » .

« ذُنُوبًا » نصيبًا من العذاب . « فَوَيْلٌ » هلاك أو حسرة .

تفسير سورة الطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مُّسْنُونٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّيْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨)».

أقسم الله سبحانه بالطور ، وهو الجبل الذي كلم الله عليه رسوله موسى . وأقسم بالكتاب المسطور في رق منشور - فالكتاب هو القرآن ، أو جميع الكتب المنزلة ، أو هو اللوح المحفوظ . والمسطور : هو المكتوب . ومعنى (في رق منشور) في الصحيفة أو الجلد الذي كتب فيه الكتاب المسطور ، وأصل الرق : الجلد ، والمنشور : الذي ينشر ويقرأ على الناس ، فيكون معنى الآية : يقسم الله تعالى بالكتاب المكتوب في الصحيفة التي تنشر وتقرأ .

وأقسم سبحانه بـ (البيت المعمور) وهو بيت في السماء السابعة كالكنعبة في الأرض ، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ، يطوفون به ويصلون فيه ثم لا يعودون إليه .. سمي بالمعمور ، لعمارتها بالقاصدين والعابدين من الملائكة . وأقسم سبحانه بـ (السقف المرفوع) أى بالسماء - وأقسم بـ (البحر المسجور) والمراد به ، بحار الدنيا . والمسجور هو المملوء ؛ والمتوقد المتأجج ؛ كما جاء في الحديث « إن البحر يسجر يوم القيامة فيكون ناراً » . أقسم سبحانه بكل

(والطور) الجبل الذي كلم الله عليه موسى . (كتاب مسطور) مكتوب على وجه الانتظام . (رق) ما يكتب فيه . (منشور) مبسوط غير مختوم عليه . (البيت المعمور) هو بيت في السماء أو الكنعبة . (البحر المسجور) الموقد ناراً يوم القيامة .

هذه المخلوقات الدالة على قدرته ؛ أن عذابه واقع بأعدائه ، لا أحد يستطيع أن يدفعه عنهم ؛ وسوف ينزل بهم العذاب يوم القيامة ؛ ذلك اليوم الذي تضطرب فيه السماء ؛ فتتحرك وتموج في بعضها موجاً ، وتذهب فيه الجبال عن أماكنها فتصير هباء ، فيا لشديد عذاب المكذبين في ذلك اليوم .

ووصف سبحانه المكذبين بقوله : (الذين هم في خوض يلعبون) أي كانوا في الدنيا يخوضون في الباطل ، ويتخذون دينهم هزواً ولعباً ، فجزاؤهم يوم القيامة أن يدفعوا إلى النار دفعاً بعنف وجفوة . ويقول لهم خزنتها (هذه النار التي كنتم بها تكذبون) أي في الدنيا ، أفهذا الذي تشاهدونه من العذاب والهوان ، سحر أم أنتم لا تبصرون كما كنتم في الدنيا لا تبصرون الحق ؟ يقال لهم ذلك تأنيباً ثم يؤمروا بدخولهم النار ، ويقال لهم : ذوقوا حرها ، وقاسوا شدتها ، سواء صبرتم على عذابها أم جزعتم منه فلن يظلمكم الله بهذا العذاب ، إنما يحزبكم به على سوء أعمالكم في الدنيا . قال تعالى :

« يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ لِلْمُكْذِبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ (١٤) أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) » .

وبعد أن أخبر سبحانه عن حال المكذبين ومصيرهم في الآخرة ؛ وصف

« تمور السماء » تضطرب وتدور كالرحى . « فويل » هلاك ، أو حسرة . « خوض » اندفاع في الأباطيل . « يدعون » يدفعون بعنف وشدة . « اصلوها » ادخلوها ، أو قاسوا حرها .

حال عباده المتقين وما هم فيه من النعيم ، فأخبر أنهم يتفكّهون بما أعطاهم الله من أصناف المآكل والمشارب ، وجميع الملاذ ، وقد نجاهم من عذاب النار ويقال لهم : كلوا واشربوا أكلاً هنيئاً لا تنغيص فيه ولا كدر ، وذلك جزاء ما عملتم من الأعمال الصالحة في الدنيا . قال تعالى :

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) » .

ثم ذكر سبحانه لونا من ألوان النعيم الذي هم فيه يرفلون فقال :

« مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) » .

أي صفت لهم السرر التي يجلسون ويتكئون عليها وجعلت وجوه بعضهم إلى بعض وجعل لهم زوجات من الحور العين . والحور جمع حوراء ، وهي شديدة بياض العين ، شديدة السواد فيها . والعين جمع عينا ، وهي الكبيرة العينين مع جمال فيها . ثم ذكر سبحانه عاملاً آخر من عوامل سرور المؤمنين في الجنة ، وهو إلحاق أبنائهم بهم في المنزلة ، حيث ترفع درجة من نقص عمله من الأبناء إلى منزلة آبائهم ، دون أن ينقص من درجات الآباء ، ولا من ثواب أعمالهم . وذلك معنى قوله تعالى في الآية التالية (وما ألتناهم من عملهم من شيء) وهذا مقام الفضل منه سبحانه .

أما مقام العدل فهو ما أخبر عنه سبحانه بقوله : (كل امرئ بما كسب رهين) أي مرتبه بعمله ، لا يحمل عليه ذنب غيره ، سواء كان ذلك الغير أباً أو ابناً .

(فاكهين) مطلقين ناعمين . (سرر مصفوفة) موصول بعضها ببعض . (زوجناهم) قرناهم . (بحور عين) بنساء بيض نجل العيون ، حسانها .

قال تعالى :

« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ » (٢١).

واستمر سبحانه في وصف نعيم المتقين ، فذكر أنهم يزدون على نعيمهم من أنواع الفاكهة وأصناف اللحوم مما تشتهي نفوسهم . وأنهم يتعاطون في الجنة كأساً من الخمر ليست كخمر الدنيا ، لا تحملهم على التكلم بالغو ، وهو الباطل ، ولا الفحش والكذب الذي يأثرون به - أما خدمهم ، فكانهم في الحسن والنضارة والبهاء ، اللؤلؤ المصون الذي لم يسه أحد . قال تعالى :

« وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) » .

وعندما آمنوا من عذاب الله وصاروا إلى ما هم فيه من النعيم ، أقبل بعضهم على بعض يتحادثون عن ماضيهم في الدنيا ، وما كانوا فيه من خوفهم من الله إذ كانوا بين أهلهم ، وإشفاقهم من عذابه ويذكرون نعمة الله عليهم حيث أبدلهم من الخوف والاشفاق أمناً من عذابه ؛ ومنهم عليهم بالمغفرة ، ووقاهم عذاب السموم . والسموم اسم من أسماء جهنم ، وهو الريح الحارة التي تدخل المسام فسميت بها نار جهنم . وقالوا في محادثتهم معترفين بعظيم منة الله عليهم - (إنا كنا من قبل ندعوه ، إنه هو البر الرحيم) أي : كنا نتضرع إلى الله

(ما ألتناهم) ما نقصناهم (رهين) رهون . (كأساً) خراً . أو إناء فيه خمر . (لا لغو فيها) لا كلام ساقط فيها . (ولا تأثيم) ولا فعل يوجب الإثم . (لؤلؤ مكنون) مستور مصون في أضداده .

ونخلص له الدعاء فاستجاب لنا فهو (البر) أي الصادق فيما وعد به المحسنين من عباده ، الرحيم بهم ، قال تعالى :

« وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدُْعُوهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) » .

وانتقلت الآيات بعد ذلك ، يأمر الله فيها رسوله بالمداومة على التذكير والموعظة . ويمزيه عما رماه به قومه من السحر والجنون . قائلا :

« فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ » أي برسالة ربك وإنعامه عليك بالنبوة « يَكَاهِنَ وَلَا يَجْنُونَ (٢٩) » .

أي لست هذا ولا ذاك كما يزعمون - والكاهن هو الذي يدعي علم الغيب . ويخبر بما يكون في المستقبل . والجنون من به مس من الجن . وأخذ سبحانه يرد على مزاعم المشركين حين قالوا عن الرسول أنه شاعر . وأنهم سوف ينتظرون به الموت الذي أدرك أسلافه ، أو حوادث الدهر ومصائبه . وأمر الله الرسول أن يرد عليهم قائلا : (تربصوا) أي : انتظروا بي الدوائر . فإني أنتظر لكم أسوأ العواقب مثل الذي تنتظرونه لي . قال تعالى :

« أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) » .

واستمر سبحانه في الإنكار عليهم قائلا :

(مشفقين) خائفين العاقبة . (عذاب السموم) الريح الحارة ، نار جهنم . (هو البر) المحب العطوف . (ريب المنون) صروف الدهر المهلكة .

« أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) » .

أي أم تأمرهم عقولهم بهذا الكذب والتناقض في القول حيث قالوا عن الرسول أنه كاهن - ومجنون - وشاعر ، بل هم قوم تجاوزوا الحد في الطغيان .

واستمر سبحانه في الإنكار عليهم قائلا :

« أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ؛ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) » .

أي : أم يزعمون أن الرسول افترى القرآن وأتى به من عند نفسه ، بل ان كفرهم هو الذي حملهم على هذه المطاعن لأنهم لا يؤمنون بالقرآن ، ثم تحداهم بقوله :

« فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) » .

أي : إن كان في استطاعة الرسول أن يخلق قرآناً فليأتوا بمثل ما جاء به ، فإن أسباب القول لديهم متوفرة .

واستمر سبحانه في إنكاره عليهم مثبتاً ربوبيته وألوهيته قائلا :

« أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) » .

أي : أم خلقوا من غير خالق أنشأهم من العدم وذلك ما لا يصح أن يكون ، أم هم الخالقون لأنفسهم وذلك مستحيل ، فإذا بطل الأمران ، قامت عليهم الحجة ولزمهم الإقرار بخالق هو الله سبحانه وعبادته وحده دون سواه .

(قوم طاغون) يتجاوزون الحد في العناد . (تقوله) اختلقه من تلقاء نفسه .

واستمر سبحانه في إنكاره قائلا :

« أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » أي أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ والجواب بالبدهة لا « بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) » .

أي لكن عدم إيقانهم بالحق هو الذي حلهم على الشرك وعدم توحيد الخالق . واستمر سبحانه في إنكاره عليهم قائلا :

« أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ » .

هل بيدهم أن يتصرفوا في الملك ؟ أو عندهم خزائن الله من المطر والرزق والنبوة فيعطوا ويمنعوا من شاءوا ويخصوا من أرادوا .

« أَمْ هُمُ الْمُصَيِّرُونَ (٣٧) » .

أي الأرباب القاهرون فلا يكونون تحت أمر ولا نهى وليس الأمر كذلك بل الله المالك المتصرف .

واستمر سبحانه في الإنكار عليهم قائلا : « أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ » هل لهم مصعد يرتفعون عليه إلى السماء يستمعون إلى الوحي فيعلمون أن ما هم عليه من الكفر حق فهم به مستمسكون وإذا كان كذلك فليأت من يستمع لهم بحجة تبين صدق ما يزعمونه « فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) » .

وانتقل سبحانه ينكر عليهم ما نسبوه له من البنات حيث جعلوا الملائكة بنات الله مع كرههم للبنات وسفه عقولهم حيث نسبوا لله ما يكرهونه لأنفسهم . قال تعالى :

(المصيطرون) الأرباب الغالبون أو المسلطون .

« أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ (٣٩) »

وفي سياق هذا الإنكار وجه سبحانه الخطاب للرسول ﷺ قائلا :

« أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) » .

أي هل تسأل هؤلاء المشركين أجرًا على تبليغك للرسالة فهم من هذا الغرم يحملون ثقلاً زهدهم في الإسلام ومنعمهم من قبوله .
واستمر سبحانه في الإنكار عليهم قائلا :

« أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) » .

أي هل عندهم علم بما غاب عنهم من علم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس به .

واستمر سبحانه في الإنكار عليهم قائلا : « أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا » أي :
مكرراً يكررونه بك ؛ والمعنى بالخطاب هو رسول الله ﷺ حين اجتمعوا في دار
الندوة يتشاورون في أمره ويدبرون طريقة إهلاكه ، ولذلك قال :

« فَأَلْذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) » .

أي : هم المجزيون بكيدهم وسوف يعود وبال مكرهم عليهم .

وختم سبحانه إنكاره عليهم بقوله :

أي يعتمدون عليه في رزقهم وجلب النفع وكشف الضر عنهم غير الله - ثم
نزه نفسه سبحانه عن الشريك الذي يجعلونه له ويشركونه في العبادة معه من
الأصنام والأوثان فقال :

« أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ » .

(من مغرم مثقلون) من الترام غرم متعبون . (هم المكيدون) المجزيون بكيدهم .

« سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) ».

ثم أخبر سبحانه عن شدة عنادهم ومكابرتهم في المحسوس بقوله :

« وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا » أى قطعة من السماء ساقطة عليهم لتعذيبهم لكابروا « يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) » .

أى ليس هذا غير سحب تراكم بعضه على بعض - لذلك أمر الرسول ﷺ بالإعراض عنهم حتى يعاينوا يوم هلاكهم وهو يوم القيامة أو يوم موتهم - وفي ذلك اليوم لا ينفعهم مكرهم الذي استعملوه في الدنيا ، ولا ينصرون فيه من عذاب الله الواقع بهم . قال تعالى :

« فَذَرُّهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) » .

ثم أخبر سبحانه أن للكافرين عذاباً في الدنيا قبل عذاب الآخرة - وهو القتل والقحط ، وابتلاؤهم بالمصائب والأمراض ، وذهاب الأموال والأولاد ، ولكنهم لا يعلمون ذلك - قال تعالى :

« وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ » أى قبل عذاب الآخرة .
« وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) » .

وأمر رسوله ﷺ أن يصبر على أذاهم حتى ينزل بهم العذاب الذي حكم الله به عليهم ، وطمانته سبحانه بأنهم لم يبلغوا منه ما أرادوا من الفتك به فإنه برأى من الله وتحت حفظه ، ذكر هذا المعنى ابن كثير - وأمره أيضاً بالتسبيح

(كسفاً) قطعة عظيمة . (سحب مركوم) مجموع بعضه على بعض . (فيه يصعقون) يهلكون . (لا يغني عنهم) لا يدفع عنهم .

بحمده حين يقوم ، أي من كل مجلس يجلسه ليكون التسبيح خاتمة المجلس وكفارة له .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من جلس مجلساً كثر فيه لفظه فقال قبل أن يقوم سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت ، استغفرك وأتوب إليك ؛ إلا كان كفارة لما بينهما » وقال بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى : (فسبح بحمد ربك حين تقوم) أي لصلاة الظهر والعصر - وفي قوله تعالى (ومن الليل) أي حين تقوم من الليل لصلاة المغرب والعشاء (وإدبار النجوم) أي حين تقوم لصلاة الصبح وقبل غير ذلك والله أعلم . قال تعالى :

« وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا . »

وفي ذلك إثبات صفة العين لله تعالى إثباتاً يليق بجلال الله وعظمه .

« وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ » (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩) .

• (بأعيننا) في حفظنا وحراستنا . (سبح بحمد ربك) سبحه واحده . (إدبار النجوم) وقت غيابها بضوء الصباح .

تفسير سورة النجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ» (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢)
وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ
شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧)
ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) .

النجم إما أن يراد به الثريا أو جنس النجوم (إذا هوى) أي سقط منع
الفجر - أقسم الله سبحانه بالنجم : والله أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته ، أما
المخلوق فلا يجوز أن يقسم إلا بالله - أقسم أن الرسول محمداً ﷺ وهو المعني
بقوله (صاحبكم) أي الذي تعرفونه منذ نشأته ، ما ضل عن طريق الهدى وما
غوى أي عدل عن الحق بعد ما عرفه . ولا يصدر في قوله عن الهوى وإنما يصدر
في تبليغه عن وحي إلهي نزل إليه بواسطة جبريل وعلمه إياه - مبلغاً عن الله -
وجبريل وصفه الله سبحانه أنه شديد القوى ، ووصفه أيضاً بأنه (ذو مرة)
أي صاحب قوة أو منظر حسن .

« فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ » .

أي : قام جبريل في صورته التي خلقه الله عليها الأفق عند مطلع

« هوى » غرب وسقط . « ما ضل صاحبكم » ما عدل عن الحق والهدى . « ما غوى » ما
اعتقد اعتقاداً باطلاً قط . « شديد القوى » جبريل عليه السلام . « ذو مرة » خلق حسن ،
أو آثار بديعة . « فاستوى » فاستقام على صورته الخلقية . « دنا » قرب جبريل من النبي صلى
الله عليه وسلم . « قاب قوسين » قدر قوسين أو ذراعين .

الشمس ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان بجراء ، فطلع له جبريل من المشرق في صورته التي خلقه الله عليها ، فخرّ رسول الله مغشياً عليه ، فنزل جبريل في صورة الآدميين وضمه إلى نفسه وهو معنى قوله تعالى : (ثم دنى فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى) والتدلى هو النزول بقرب الشيء ، فكان جبريل من رسول الله ﷺ بقدر مسافة القوسين أو أقرب من ذلك . وقيل أيضاً (قاب قوسين) أى قدر ذراعين . والقوس الذراع يقاس بها كل شيء - . وقيل أيضاً (قاب قوسين) أى مسافة ما بين الوتر من القوس وهو إشارة إلى تأكيد القرب - وقوله تعالى :

« فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) » .

أي أوحى الله إلى عبده الرسول محمد ﷺ ما أوحى به إليه بواسطة جبريل - قيل أوحى إليه بقوله :

« أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ » إلى قوله « وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ » وقيل غير ذلك .

ثم أخبر سبحانه أن رؤية النبي ﷺ لجبريل على صورته التي خلقه الله عليها كانت حقيقة ؛ ولم يكذب فؤاده ما رآه بصره - وقيل إن الذي رآه النبي ﷺ هو سبحانه وكانت الرؤية بفؤاده ، حيث جعل الله بصره في فؤاده - روى ذلك عن ابن عباس - وكانت الرؤية ليلة الإسراء . قال تعالى :

« مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) » .

(عبده) عبد الله محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم وجه سبحانه الخطاب للمشرّكين قائلاً :

« أَفْتَصْرُونَهُ عَلَى مَا يَرَى » (١٢) .

أي : فتجادلونه على الشيء الذي رآه وعلمه وذلك أنهم جادلوه حين أسري به ﷺ ، وقالوا له يبعون تسقطه : صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن غير لنا في الطريق .

ثم عاد سياق الآيات إلى ما سبق من خبر الرؤية ، رؤية الرسول ﷺ لجبريل أو لله جل جلاله ، قال تعالى :

« وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى » (١٣) .

أي : ولقد رأى الرسول ﷺ جبريل مرة ثانية وكانت المرة الأولى في الأرض ، والثانية :

« عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى » (١٤) .

وعلى الرواية الثانية أن الرسول ﷺ رأى ربه مرتين بقلبه .

وسدرة المنتهى هي شجرة في السماء السادسة أو السابعة ، إليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها . وعند سدرة المنتهى تقع جنة المأوى ، وهي التي يأوي إليها المتقون من عباد الله أو تأوي إليها أرواح الشهداء . قال تعالى :

« عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى » (١٥) .

وكانت الرؤية المومي إليها كما أخبر الله بقوله :

(أفْتَصْرُونَهُ) أفْتَجَادَلُونَهُ صلى الله عليه وسلم . (نزلة أخرى) مرة أخرى في صورته الخلقية . (سدرة المنتهى) التي إليها تنتهي علوم الخلائق . (جنة المأوى) مقام أرواح الشهداء .

« إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) » .

أي حين غطى السدرة ما غطاها من الملائكة وغير ذلك مما أبهم ، وتحدث النبي عنه ﷺ : « فغشيها ألوان ما أدري ما هي » .

ثم أخبر سبحانه عن كمال أدب الرسول ﷺ ، وأن بصره لم يتجاوز ما أمر برؤية ما مكنه الله من رؤيته في تلك الليلة - ولقد رأى من آيات الرب الدالة على قدرته وعظمته الآية الكبرى - قال تعالى :

« مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨) » .

ورد في صحيح مسلم في قوله تعالى : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) قال : رأى جبريل في صورته ، له ستائة جناح .

وانتقلت الآيات بعد ذلك يوبخ الله سبحانه فيها المشركين لعبادتهم غيره من الأصنام وهي اللات - والعزى - ومناة - كان كل صنم منها معبوداً لفريق من العرب في موضع معلوم . قال تعالى :

« أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) » .
أي أخبروني عن هذه المعبودات التي اتخذتموها - كيف يصح أن تكون شريكة لله في عبادته مع أنها لا تعقل - فضلاً عن أن تكون لها قدرة على الخير والشر وجلب النفع وكشف الضر .

ثم أعاد عليهم التوبيخ لزعهم أن الملائكة والأصنام بنات الله قائلًا :

« أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذْ أَسْمَتْ ضِيزَى (٢٢) » .

(يغشى السدرة) يغطيها ويسترها . (ما زاغ البصر) ما مال عما أمر برؤيته . (ما طغى) ما جاوزه . (أفرايت) أخبروني . (اللات والعزى ومناة) أصنام كانوا يعبدونها في الجاهلية . (قسمة ضيزى) جائرة ، أو عرجاء .

أي أتجعلون الله الولد وتجعلون الولد أنثى مع بغضكم للأنثى وتختارون لأنفسكم الذكور ؟ فلو كانت هذه القسمة مع مخلوق لكانت قسمة جور باطلة ، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة وهو منزّه سبحانه عن أن يكون له ولد أو والد أو صاحبة .

واستمر سبحانه في الإنكار عليهم في عبادتهم الأصنام وتسميتها آلهة قائلا :

« إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ » .

أي ما هذه الأصنام إلا أسماء جعلتموها أنتم وآباؤكم أعلاماً على آلهة مزعومة لم ينزل الله بهذا الزعم الباطل من حجة ولا برهان - والواقع أنهم يتبعون في دعواهم أنها آلهة ، مجرد الظن وما تشبهه أنفسهم ويزينه لهم الشيطان ، ولقد جاءهم من الله البيان الواضح بالكتاب والرسول أنها ليست آلهة وأن العبادة لا تصلح إلا لله وحده . قال تعالى :

« إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى » (٢٣) .

ثم أخبر سبحانه أنه لا يحصل للمرء كل ما يتمناه ، فإذا كان تعلق الكفار بآلهتهم الزائفة رجاء شفاعتهم فإنهم لن يبلغوا أملهم لأن الله سبحانه مالك الدنيا والآخرة والمتصرف فيهما ولا يكون شيء فيهما إلا بإذنه - وإذا كان الله سبحانه قد نفى أن ينفع أحد بشفاعة الملائكة إلا بعد إذنه لهم في الشفاعة ورضاه عن المشفوع فيه فكيف بمن هو دونهم في المنزلة فضلاً عن آلهة

المشركين الزائفة الباطلة التي لم يشرع الله عبادتها بل قد نهى وحذر عنها .
قال تعالى :

« أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ' (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ' (٢٥) وَكَمْ
مَنْ مَلَكَ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ
لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ' (٢٦) » .

ثم أنكر سبحانه عليهم أمراً آخر ومقالة فظيمة لا تصدر إلا من لا يوقن
بالجزاء في الآخرة والبعث للحساب ؛ وهي تسميتهم الملائكة تسمية الاناث حيث
قالوا عنهم أنهم بنات الله ، وليس لهم علم بصحة ذلك بل هو كذب وزور
- وما يتبعون في قولهم هذا غير الظن والتوهم - وليس الظن بالذي يقوم مقام
العلم أو يغني في إدراك الحقيقة شيئاً - ثم أمر الرسول ﷺ بالإعراض وهجر كل
من أعرض عن القرآن والإيمان وكان أكثره الدنيا وانصرف لها فكانت نهاية
علمه وغاية ما وصل إليه تفكيره . وأخبره سبحانه أنه عليم بمن أعرض عن
سبيل الحق والهدى وبمن سلك سبيل الهدى ، فيجازي كلا من الفريقين بعمله .
قال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً
الْأُنثَى ' (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ
الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ' (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ
ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ' (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ
أَهْتَدَى ' (٣٠) » .

(لا تنفي شفاعتهم) لا تدفع ، أو لا تنفع .

ثم أخبر سبحانه عن عظيم ملكه وسلطانه وأن له ملك السموات والأرض يتصرف فيهما وفي كل مخلوقاته بعدله ورحمته . ومن عدله أنه يجازي كلا بعمله من خير أو شر فالمسيء جزاؤه العذاب على إساءته والمحسن جزاؤه النعم في الجنة على إحسانه . قال تعالى :

« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) » .

ثم ذكر سبحانه بعض أوصاف المحسنين ، فأخبر أنهم الذين يحبون الكبائر من الذنوب وإن وقع منهم بعض الصفات فإن الله تعالى يغفرها لهم ، فهو سبحانه واسع المغفرة . قال تعالى :

« الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ » .

فاللمم من صفات الذنوب ، وقيل في معنى (إلا اللمم) يلمون بالذنوب ، أي يقربون منه ولا يرتكبونه .

وأخبر سبحانه عن سابق علمه بأحوال عباده ، منذ أن أنشأ أباهم آدم من الأرض ، واستخرج ذريته من صلبه - ومنذ أن كانت الذرية أجنة أي مستترة في بطون الأمهات ، يعلم الشقي من السعيد ، فليس لأحد أن يزكي له نفسه أو يتدحها على الطاعة ، فهو سبحانه عليم بصدق من اتقاه . قال تعالى :

« هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ، فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) » .

« الفواحش » ما عظم قبعة من الكبائر . « اللمم » صفات الذنوب . « فلا تزكوا أنفسكم » فلا تمدحوها بحسن الأعمال .

ثم عرض سبحانه قصة أحد المشركين ، قيل هو الوليد بن المغيرة ، كان قد تابع رسول الله ﷺ على دينه فغيره بعض قومه على تركه دين آبائه ، فقال لهم إني خشيت عذاب الله : فضمن له أحدهم ان هو أعطاه شيئاً من المال ، ورجع إلى الشرك أن يتحمل عنه عذاب الله ، فرجع الوليد إلى الشرك وأعطى الذي وعد أن يتحمل عنه العذاب بعض ما كان ضمنه له ، ثم بخل عليه بالباقي وأمسك عن دفعه : فأنزل الله تعالى قوله :

« أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) . »

أي أدبر عن الإيمان .

« وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) . »

أي أعطى صاحبه الذي وعد أن يتحمل عنه عذاب الله شيئاً من المال ، وأكدى بمعنى قطع وأمسك وبخل بالباقي .

ثم أخذ سبحانه يرد على الوليد في تصديقه لمن ضمن أن يرد عنه العذاب قائلاً :

« أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) . »

أي هل عنده علم بالغيب فيعلم أن صاحبه يتحمل عنه عذابه ، أو لم يخبر بها كتب في توراة موسى ، وصحف الخليل إبراهيم الذي تم وأكمل ما أمر به من الأوامر - أن أية نفس لا تحمل عن الأخرى من أوزارها شيئاً ، ولا يحصل لها أجر ولا تجزى إلا بما عملت - وسوف ترى ما قدمته من خير أو شر فتجزي

« أكدى » قطع عطيته بخلا .

عليه يوم الجزاء جزاء تاماً - وأن كل الخلائق يرجعون إلى الله فإليه سبحانه المصير
قال تعالى :

« أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي
وَفِّي (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ
إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ
أَلَّا وَفَّى (٤١) وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢) » .

وأخذ سبحانه بعد ذلك بعدد طرفاً من نعمه على عباده فذكر أنه خلق
فيهم السرور والحزن وما ينشأ عنهما من الضحك والبكاء . وخلق الموت والـحياة ،
وخلق الذكر والأنثى من الإنسان والحيوان ، وخلقها من نقطة تمني ، أي تصب
في الأرحام . قال تعالى :

« وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)
وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّرِّيَّةَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) » .

ومن قدر على بدء الخلق هو بلا شك قادر على الإعادة وهي النشأة الأخرى
قال تعالى :

« وَأَنْ عَلَيْهِ النُّشْأَةُ الْآخِرَى (٤٧) » .

ومن نعمه على العباد أيضاً أنه سبحانه أغناهم بالأموال وجعلها لهم قنية أي
يسكونها ويدخرون منها بعد الكفاية . قال تعالى :

« وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨) » .

« لا تزر وازرة » لا تحمل نفس آثمة . « المنتهى » المصير في الآخرة . « غنى » تدفق في
الرسم « أفنى » أفقر ، أر أرضى بما أعطى .

وأخبر سبحانه أنه رب الشعري ، وهو كوكب كان فريق من العرب يعبدونه
فأعلمهم أنه رب معبودهم ، ولا معبود يستحق العبادة غيره . قال تعالى :

« وَأَنَّ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ » (٤٩) .

ثم أخذ سبحانه يسرد الأدلة على عظيم قدرته ، فذكر أنه أهلك عاداً الأولى
وهم قوم هود ، ويقال لهم عاد بن إرم بن سام بن نوح - ودمر ثمود ، وهم قوم
صالح فلم يبق منهم أحداً ، وأهلك قوم نوح قبل عاد وثمود ، لأنهم كانوا أشد
طغياناً وتمرداً من الذين من بعدهم ، وهو الذي دمر قرى قوم لوط : وهي
المؤتفكة أي المنقلبة قلبها عليهم ، فجعل عاليها سافلها ، ومعنى « أهوى » أي
طرحها جبريل من علو إلى أسفل . قال تعالى :

« وَأَنَّ هَٰؤُلَاءِ أُولَٰئِكَ عَادًا الْأُولَىٰ » (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ
نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ
أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) .

أي غطاها بالحجارة المنضودة المسومة التي أرسلها عليهم .

وبعد أن عدد النعم المتعددة وأردفها بذكر النقم التي أنزلها بالظالمين
والمكذابين من الأمم السابقة وجه سبحانه الخطاب للإنسان قائلاً :

« فَبَيِّضْ آلَٰؤَ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ » (٥٥) .

أي فبأي نعم ربك تشك وتجادل .

ثم ختم سبحانه السورة بجملة أمور :

« الشعري » كوكب معروف كانوا يعبدونه . « عاداً الأولى » قوم هود (ع) . « المؤتفكة »
قرى قوم لوط (ع) . « أهوى » أسقطها إلى الأرض بعد رفعها . « فغشاها » ألبسها وغطاها .
« آلاء ربك » نعمه تعالى . « تتماهى » تتشكك .

أولها : التوجيه إلى رسالة الرسول محمد ﷺ والاختبار بأنه نذير للناس من عذاب الله ، كما أنذر الرسل قبله أمهم .

وثانيها : التواعد بقرب الساعة ، وأنه لا يكشفها ولا يعلم خبرها ولا موعد قيامها إلا الله سبحانه .

وثالثها : إنكاره على المشركين تعجبهم من أن يكون القرآن صحيحاً ؛ وضحكهم منه سخريه واستهزاء ، وعدم بكائهم عند وعده ووعيده ، وغفلتهم وإعراضهم عنه .

ثم توجه لعباده المؤمنين آمراً بإمام بعبادته والسجود له ، والإخلاص في توحيده . قال تعالى :

« هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذُرِ الْأُولَىٰ (٥٦) أَزِفَتِ الْأَازِفَةُ (٥٧) » .
أي قربت الساعة .

« لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) » .

قيل في معناها أيضاً : إذا وقعت القيامة لا يكشف أهوالها إلا الله سبحانه .

« أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ (٦١) » .
أي لاهون غافلون .

« فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢) » .

(أزفت الآزفة) اقتربت الساعة ودنت . (أنتم سامدون) لاهون غافلون .

تفسير سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حَكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تَغْنِ النَّذْرُ (٥) » .

يخبر سبحانه عن قرب قيام الساعة وانتهاء أجل الدنيا ، لكي يأخذ العباد الأهبه للرحيل وليستعدوا للحساب . وقد ورد في ذلك من الأحاديث الصحيحة الشيء الكثير . منها ما رواه الإمام أحمد ، عن سهل بن سعد ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (بعثت أنا والساعة كهاتين) وأشار بإصبعيه ، السبابة والوسطى . وذكرت الآيات حادثة انشقاق القمر ، وقد كانت معجزة لرسول الله ﷺ ، وآية على صدقه ، طلبها منه المشركون . والأحاديث على إثباتها متضافرة .

ثم اتجهت الآيات تسرد ألواناً من عناد المشركين وجحودهم الحق ، فذكرت أنهم لا يصدقون بالأدلة والبراهين التي يشاهدونها ، والتي تدل دلالة واضحة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل يعرضون عنها زاعمين أنها

(انشق القمر) انطلق فلقتين معجزة له صلى الله عليه وسلم . (سحر مستمر) دائم ، محكم ، أو ذاهب . (مزدجر) ازدجار وردع . (النذر) الرسل أو الأمور المخوفة .

من السحر الذي كثيراً ما يشاهدونه ، ولا يلبث أن يذهب ، فليس له دوام . وأخبر الله سبحانه أنهم في تكذيبهم هذا للرسول إنما يتبعون أهواءهم وسوف يلقون جزاء ذلك عندما تستقر الأمور يوم القيامة ، وعندما يستقر بكل عامل عمله - فالخير مستقر بأهله في الجنة والشر مستقر بأهله في النار .

وذكرت الآيات أيضاً أن هؤلاء المكذبين المعاندين قد وصل إلى علمهم أخبار الأمم المكذبة بالرسول قبلهم ، وعلموا ما أنزل الله بهم من النكال ، فكان ذلك كافياً لجرهم عما هم فيه من الكفر والعناد . والله سبحانه الحكمة التامة البالغة في هدايته للمهتدين ، وإضلاله للجاحدين المعاندين . وإذن فليست تغني النذر فيمن أضله الله - هذا إذا كانت « ما » نافية - وإذا كانت استفهامية فالمعنى : فأي شيء تغني النذر إذا خالفهم وكذبهم - والنذر جمع نذير .

ثم أمر الله الرسول أن يعرض عنهم وأن ينتظر بهم العذاب يوم يبعثهم الله ، ويدعون إلى شيء منكر فظيع لم تؤمن به نفوسهم ، وهو موقف العرض والحساب ، وما فيه من البلاء والأحوال . ووصف سبحانه خروجهم من القبور ، بقوله : (خشعاً أبصارهم) أي ذليلة - وشبههم بالجراد ؛ حين يخرجون من القبور في حيرتهم وانتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي قائلين في مسيرهم : هذا يوم عسر شديد الهول . قال تعالى :

« قَتُولَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٌ (٦) خُشْعاً أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) » .

(شيء نكر) منكر فظيع . هول القيامة . (خشعاً أبصارهم) ذليلة خاضعة . (الأجداث) القبور . (يوم عسر) صعب شديد .

التفسير الميسر - الثالث « ٧ »

(مهطمين) أي مسرعين - ثم أخذ سبحانه يعزي الرسول ﷺ عن تكذيب قومه له ، فذكر له أن قوم نوح قبل قومه كانوا قد كذبوا نوحاً وانتهروه وزجروه عن دعوته إياهم ، ورموه بالجنون . وعندما ضاق بهم رفع رأسه إلى السماء داعياً ربه لينقذه منهم ، ويقتصر له ولدينه . قال تعالى :

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَقَدَعَا رَبُّهُ أَتْنِي مَغْلُوبٌ » - أي مقهور - « فَأَنْتَصِرُ (١٠) » .

واستجاب الله دعاءه وأنزل من السماء ماء كثير الانصباب متتابعاً ، وأمر الأرض أن تنفجر بالعيون فالتقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قدره الله في الأزل وهو هلاك قوم نوح بالطوفان - أما نوح فقد أمره الله أن يصنع سفينة يخوض بها الماء وهو آمن به ، صنعها من الخشب وشدها بالمسامير ، وهي المراد بقوله (دسر) فكانت سفينة نوح تجري وسط ماء الطوفان بمرأى من الله تعالى وبأمره وتحت حفظه ورعايته . ذكر ذلك ابن كثير وغيره .

وكان هذا الإغراق لقوم نوح جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنبي الله ورسوله نوح ، كما كان عبرة لمن يتعظ ويعتبر . وقيل بل أبقى هيكل السفينة أمداً طويلاً ، حتى رآه أول هذه الأمة لتكون عبرة لمن رآها ، فيذكر بها حادث الطوفان - قال تعالى :

« فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا

(ازدجر) زجر عن تبليغ رسالته . (مغلوب فانتصر) مقهور فانتقم لي منهم . (أبواب السماء) السحاب . (بماء منهمر) منصب بشدة وغزارة . (فججنا الأرض) شققناها .

فَأَلْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ
وَدُّسْرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ
تَرَكَنَهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) .

أي فهل من متعظ بها ومتذكر لها . وأردف سبحانه هذه القصة وكل قصة
ذكرها في هذه السورة عن إهلاكه للمكذبين لرسله أردفها بقوله :

« فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ (١٦) » .

أي ما أشد ما أنزلته بهم من العذاب . فكيف كان عذابي لمن كفر وكذب
رسلي ولم يتعظ بإنذارني .

ثم ذكر سبحانه أن هذه القصص في هذه السورة بل في القرآن كله إنما ذكرها
الله للعبرة . وقد سهل سبحانه لفظ القرآن ويسر معناه ليسهل حفظه وتدبره ،
فهل من متذكر به ومتدبر له ، قال تعالى :

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧) » .

وبعد قصة قوم نوح ذكر قصة عاد وتكذيبهم لرسوله فكانت عاقبتهم
الهلاك والعذاب كقوم نوح ، وهي عاقبة كل مكذب برسل الله ، معرض عن
إنذاره . قال تعالى :

« كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ (١٨) » .

ثم وصف سبحانه طريقة هلاكهم فذكر أنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً
أي شديد البرودة في يوم مشنوم مستمر نحسه وشؤمه ودماره . فكانت

(قدر) قدرناه أزلاً . (دسر) مسامير تشد بها الألواح . (تجري بأعيننا) بحفظنا
وحراستنا . (تركناها آية) عبرة وعظة . (مدكر) معتبر ، متعظ بها . (نذر) إنذار .

الريح تنتزع الواحد منهم ثم ترمي به فتدك رقبتة فيغدو منظره كأعجاز النخل
أي كأصوله المنقلبة . قال تعالى :

« إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩)
تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ (٢٠) » .
أي منقلع من مكانه ساقط على الأرض .

« فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) » .

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّدَّكِرٍ (٢٢) » .

تقدم تفسيرها .

وبعد قصة عاد ، ذكر سبحانه قصة ثمود وأخبر أنهم كذبوا رسوله صالحاً ،
وكذبوا بالإنذار الذي جاءهم به ؛ واستنكفوا أن يتبعوا واحداً من البشر
مثلهم وهم جماعة ، وكانوا يريدون أن يكون الرسل ملكاً وقالوا مظهرين
استنكافهم (إنا إذا لفي ضلال وسعر) أي لو اتبعناه لكننا في خطأ وذهاب عن
الصواب - وقيل في معنى (سعر) أي جنون أو غم وهم - قال تعالى :

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ
إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) » .

وأنكروا أن يختصه الله بالنبوة دونهم فرموه بالكذب والأشر والتجبر .
وأنه يزيد التعاضم عليهم بادعائه النبوة فتوعدهم الله على هذه المقالة بقوله

(ريحاً صرصراً) شديدة السموم أو البرد أو الصمت . (يوم نحس) شوم عليهم . (مستمر)
دائم نحسه ، أو محكم . (تنزع الناس) تنقلهم من أماكنهم . (أعجاز نخل) أصوله بلا رؤوس .
(منقعر) منقلع من قعره ومفرسه . (سعر) جنون ، أو بعد عن الحق .

(سيعلمون غداً من الكذاب الأشر) أي سيعلمون قريباً عند نزول العذاب بهم
أو يوم القيامة من هو الكذاب الأشر. أهو الرسول أو من كذب به . قال تعالى :

« أَلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ (٢٥)
سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ (٢٦) » .

ولقد بلغ من تعنتهم أنهم طلبوا أن يخرج الله لهم ناقة من صخرة صماء
فذكر الله سبحانه أنه مخرجها لهم لتكون فتنة أي اختباراً لهم ؛ وحجة عليهم
في تصديق الرسول صالح ، وأمر الله تعالى صالحاً أن يرتقبهم أي ينظر ما هم
صانعون وأن يسبر على أذاهم فالعاقبة له ، وأمره أيضاً أن يبلغهم أن الماء
مقسوم بينهم وبين الناقة ، لها يوم تشرب فيه ، ولهم يوم يستقون منه ، وكل
نصيب من الماء تحضره من كانت له النبوة - ولكنهم ملوا هذه القسمة ودعوا
أشقى رجل فيهم لعقر الناقة فتناولها بسيفه فخرت صريعة ، وذلك معنى قوله
تعالى : (فتعاطى فعقر) فأهلكهم الله بصيحة جبريل فغدوا وكأنهم هشيم
المحتظر ، والهشيم كل ما تفتت من الشجر والحشيش اليابس ، والمحتظر : هو
الرجل يجعل لغنمه حظيرة من الشوك والشجر . قال تعالى :

« إِنَّا مُرْسَلُونَ النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ
أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ
فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

(كذاب أشر) بطر ومتكبر . (فتنة لهم) امتحاناً وابتلاء لهم . (اصطبر) اصبر على
أذاهم . (قسمة بينهم) مقسوم بينهم وبين الناقة . (كل شرب) كل نصيب وحصة من الماء .
(محتضر) يحضره صاحبه في نوبته . (فتعاطى) فتناول السيف .

صِيحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٣٢) .

تقدم تفسيرها .

ثم ذكر قصة قوم لوط وتكذيبهم لرسوله ونخالفتهم له في ارتكاب معصية
الشذوذ الجنسي وأنه سبحانه أرسل عليهم حاصباً أي ريحاً ترميهم بالحصباء إلا
آل لوط نجاهم الله من العذاب حيث خرجوا من بين القوم الظالمين وقت السحر
- وكانت نجاتهم من العذاب نعمة امتن الله بها عليهم . وكما أنعم على آل لوط
بنجاتهم ، كذلك ينعم على كل مؤمن مطيع بنجاته من عذابه . قال تعالى :

« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذُرِّ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا
آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ
شَكَرَ (٣٥) » .

وأخبر سبحانه أن إهلاكه لقوم لوط لم يكن إلا بعد أن أنذرهم بأس
الله فلم يلتفتوا إليه ، بل تشككوا فيما أنذرهم به ، ولم يصدقوا . ولقد بلغ من
تماديهم في الطغيان ، طلبهم من لوط أن يسلم إليهم ضيوفه ، وكانوا ملائكة ، لفعل
الفاحشة ؛ فضرهم جبريل بطرف جناحه عندما أرادوا اقتحام الباب ، فطمس
الله أعينهم وأذهب بصرهم وقيل لهم على لسان الملائكة أو لسان الحال ذوقوا
هذا العذاب الذي أنذركم به لوط . قال تعالى :

« وَلَقَدْ أَنْذَرُهُمْ بَطُشَّتَنَا فَنَتَمَارَوْا بِالَّذُرِّ (٣٦) وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ

(كهشيم) كاللباس المتفتت من شجر الحظيرة . (المحظر) صانع الحظيرة . (الزريبة) لواشيه
من هذا الشجر . (حاصباً) ريحاً ترميهم بالحصباء . (نجيناهم بسحر) عند انصداع الفجر .
(أنذرهم بطشتنا) أخذتنا الشديدة بالعذاب . (فتماروا بالذر) فكذبوا بها متشاكين .
(راودوه عن ضيفه) طلبوا منه تكينهم منهم .

ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذُرِ (٣٧) .

ثم أخبر سبحانه أن وقت نزول العذاب كان صباحاً وكان مستقراً عليهم دام حتى أسلمهم إلى عذاب الآخرة ، وقيل لهم ذوقوا عذاب الله جزاء تكذيبكم بإنذاراته التي بلغكم إياها رسوله . قال تعالى :

« وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٤٠) » .

ثم ذكر سبحانه قصة فرعون وقومه حين جاءهم موسى وهرون ، فكذبوا بجميع آيات الله التي كانت معجزة أيدى الله بها فأخذهم الله بالعذاب أخذ عزيز قادر على إهلاكهم . قال تعالى :

« وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢) » .

ثم أخذ سبحانه يخوف قريشاً ويتوعدهم بالعذاب قائلاً :

« أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) » .
أي هل أنتم خير من الأئمة المكذبة للرسول قبلكم ممن نزل بهم العذاب أم أن لكم براءة من العذاب ذكر خبرها في الكتب المنزلة .

« أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ (٤٤) » .

« فطمسنا أعينهم » أعينناهم . « بكرة » أول النهار . « في الزبر » في الكتب السماوية
« نحن جميع » جماعة لا تغلب . « منتصر » تمتنع ، لا تغلب .

أم يقول هؤلاء الكفار أن أمرنا مجتمع ونحن يد واحدة ومنتصر أمرنا -
فرد الله عليهم بقوله :

« سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ (٤٥) » .

أي سيهزم جمعهم وسوف يولون الأدبار منهزمين - وقد هزمهم الله في غزوة بدر شر هزيمة ، وذلك جزاؤهم في الدنيا ، أما في الآخرة وعند قيام الساعة وهو موعد الجزاء والحساب ، فسوف يلقون جزاء أعظم داهية ، وأشد مرارة من القتل والأسر يوم بدر ، حيث يسحبون في النار على وجوههم ويقال لهم تقرّبوا وتوبيخاً : ذوقوا حر جهنم . قال تعالى :

« بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرٌ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) » .

أي بعدوا عن الحق في الدنيا ، وفي الآخرة تسعر عليهم النار .

« يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) » .

ثم أخبر سبحانه أنه خلق كل شيء بقدر أي بقضاء معلوم سابق في الأزل - كما جاء في الحديث « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة) اه ، ومن ذلك جزاء الكافرين ، فهو جار على ما قضاه وقدره . وأخبر سبحانه أيضاً أنه إذا أراد أمراً لا يحتاج إلى تأكيد بل هو في سرعة تنفيذه كسرعة لمح البصر ، وهو إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه ، قال تعالى :

« الساعة أدهى » اعظم داهية . « أمر » اشد مرارة من عذاب الدنيا . « سحر » جنون
او بعد عن الحق .

« إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) » .

ثم وجه سبحانه الخطاب إلى المشرّكين قائلاً :

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاءَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١) » .

أي ولقد أهلكنا أمثالكُم وأشباهكم من الأمم السابقة لما كذبوا الرسل فهل كان في إهلاكهم عظة لمتعظ فيرتدع عن تكذيب الرسول .

ثم هدد الله سبحانه بالإخبار بأن كل ما يصنعونه من صغير وكبير سوف تحصيه عليهم الملائكة الموكلة بكتابة الأعمال . قال تعالى :

« وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ (٥٣) » .

أي مسطر مكتوب .

ثم انتقل بعد ذلك سبحانه إلى وصف حالة المتقين السعداء في الآخرة ، فأخبر أنهم في بساتين وأنهار في الجنة دار كرامة الله ورضوانه عند الملك العظيم القادر على تنعيمهم بكل ما يشتهون على عكس حال الأشقياء . قال تعالى :

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدٍ صَدُوقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) » .

« خلقناه بقدر » بتقدير سابق أو مقدراً محكماً . « إلا واحدة » كلمة واحدة ، هي « كن » « أشياكم » اتباعكم في الكفر . « مستطر » مسطور مكتوب . « نهر » انهار متدفقة . « مقعد صدق » مكان مرضي .

تفسير سورة الرحمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ
الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ
يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي
الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)
وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَكْهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ
الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) » .

بدأ سبحانه هذه السورة بتعداد نعمه على عباده وذكر في طليعتها القرآن
وأنه يسر النطق به وسهله للذكر والتلاوة والتدبر - وخلق الإنسان ، والمراد

« بحسبان » يريان بحساب مقدر في بروجها . « النجم » النبات الذي ينجم ولا ساق له .
« يسجدان » ينقادان لله فيما خلقا له . « وضع الميزان » شرع العدل وأمر به الخلق . « أن لا
تطفوا » لئلا تتجاوزوا العدل والحق . « بالقسط » بالعدل . « لا تخسروا الميزان » لا تنقصوا
موزون الميزان . « الأرض وضعها » خلقها مخفوضة عن السماء . « ذات الأكمام » أوعية الطلع .
« ذو العصف » القشر أو الثبن أو الورق اليابس . « الريحان » النبات الطيب الرائحة .
« آلاء ربكها » نعمه تعالى . « تكذبان » تكفوران أيها الثقلان .

به آدم وعلمه أسماء كل شيء . أو المراد جنس الإنسان وعلمه النطق والتعبير بما يدور في نفسه - وخلق سبحانه الشمس والقمر بحريان متعاقبين بحساب دقيق لا يختلف ولا يضطرب - وخلق النجم وهو ما ليس له ساق من النبات - بل ينبسط على وجه الأرض - وخلق الشجر بكل أنواعه - وذكر أن كلاً من النجم والشجر يسجد لله تعالى ، والله أعلم بحقيقة سجوده - وقيل النجم هو نجوم السماء - وسجوده طلوعه . وخلق سبحانه السماء مرفوعة فوق الأرض ، وأمر بالعدل وهو المراد بقوله (ووضعت الميزان) وقيل بل المراد الميزان الذي توزن به الأشياء - فعلى المعنى الأول يكون تفسير قوله تعالى : (ألا تطغوا في الميزان) أي لئلا تجوروا وتجاوزوا العدل في كل أعمالكم وتصرفاتكم - وعلى المعنى الثاني - وضع الميزان لئلا تبخسوا الناس في الوزن - وكرر سبحانه الأمر بإقامة العدل أو الوزن وعدم نقص المكيال والميزان .

وذكر سبحانه أنه وضع الأرض للأنام أي خفضها ومهدا وجعلها صالحة لاستقرار الخلائق عليها ، وخلق فيها من صنوف الفاكهة مختلفة الألوان والطعوم كما خلق فيها النخل له أكمام ، والأكمام الأوعية قبل أن ينشق عنها الثمر - وخلق فيها جميع الحبوب لها عصف ، وهو التبن - وخلق الريحان - وهو كل مشموم من النبات طيب الرائحة ، أو الريحان المعروف - وكل هذه النعم يربي الله بها العباد ، وهي أدلة قاطعة على ربوبيته - ثم وجه سبحانه الخطاب في نهاية الآيات إلى الثقلين ، الإنس والجن ، قائلاً (فبأي آلاء ربكما تكذبان) .

أي : فبأي هذه النعم العظيمة يكذب الثقلان ، وكرر سبحانه هذا الاستفهام في هذه السورة كلما ذكر العباد بنعمة من نعمه - قيل إن هذا التكرار للتأكيد ، وقيل بل يرجع في كل موضوع إلى معنى الآية التي قبله .

ثم ذكر سبحانه أنه خلق أصل الإنسان من صلصال : وهو الطين الذي جف فصارت له صلصلة . وخلق أبا الجن وهو إبليس من مارج ، وهو لهب النار الصافي من الدخان . قال تعالى :

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبَيَّأَىٰ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) » .

وأخبر سبحانه أنه رب مشرقى الصيف والشتاء ومغربى الصيف والشتاء ، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم . قال تعالى :

« رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبَيَّأَىٰ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) » .

وأخبر سبحانه أنه مرج البحرين أي أرسلهما متجاورين لا يلتقيان وجعل بينهما حاجزاً من الأرض ، أو من قدرة الله ، وهو البرزخ بحيث لا يبغي أحدهما على الآخر بالامتزاج - والمراد بالبحرين الملح والحلو فالحلو كل الأنهار ، والملح كل البحار الملحة . قال تعالى :

« مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبَيَّأَىٰ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) » .

وأخبر سبحانه أنه يخرج من البحرين اللؤلؤ والمرجان - قيل إنما يخرج ذلك من البحر الملح فقط ، غير أن من الجائز في لغة العرب أن يذكر شيئان ثم يخص أحدهما بفعل كما قال تعالى :

« يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ .. الخ (١) » .

وإنما كان الرسل من الإنس دون الجن . قال تعالى :

(١) سورة الأنعام آية ١٣٠ .

(صلصال) طين يابس يسمع له صلصلة . (كالفخار) الطين يحرق حتى يتحجر . (مارج) لب صاف لا دخان فيه . (مرج البحرين) أرسل العذب والملح في مجاريهما . (يلتقيان) يلتقي طرفاهما . (بينهما برزخ) حاجز أرضي أو من قدرته تعالى . (لا يبغيان) لا يطفئ أحدهما على الآخر .

« يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبَيَّيْ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) » .

وأخبر سبحانه أن الجوار المنشآت ؛ وهي السفن العظيمة في قبضته تجري وتغمر الماء بقدرته ، وهي في عظمها كالجبال في كبرها وضخامتها ، قال تعالى :
« وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ (٢٤) فَبَيَّيْ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) » .

ثم أخبر سبحانه أنه كتب الفناء على كل من سار على الغبراء وأن البقاء له وحده ، فهو الحي القيوم ذو الجلال والإكرام ، أي صاحب العظمة والكبرياء .
قال تعالى :

« كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبَيَّيْ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) » .

وفي هذه الآية إثبات صفة الوجه للباري جل وعلا خلافاً للجهمية ، فله سبحانه وجه يليق بجلاله وعظمته . ثم أخبر سبحانه أن كل من في السموات والأرض من مخلوقاته يسأله حاجته ، والكل منهم مفتقر إليه ، فهو سبحانه يتصرف في ملكه تصرفاً يظهر أثره ، كل يوم من العطاء والمنع ، والإماتة والإحياء وغير ذلك . قال تعالى :

« يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبَيَّيْ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) » .

(له الجوار) السفن الجارية . (المنشآت) المرفوعات الشرع . (القلوع) . (كالأعلام) كالجبال الشاهقة أو القصور . (ذو الجلال) العظمة والاستغناء المطلق . (الإكرام) الفضل التام .

ثم توعد سبحانه الجن والإنس بالحساب والجزاء على الأعمال ، فقال :

« سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَثِيَةَ الثَّقَلَانِ (٣١) » .

ومعنى ذلك الوعيد كقول القائل لمن يهدده سأفرغ لعقوبتك ، وليس المراد التفريغ من شغل : فإن الله جلت عظمته لا يشغله شأن عن شأن .

« فَبَيِّأِ آلَآؤَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ (٣٢) » .

ثم أخبر سبحانه عن عجز الجن والإنس عن الهرب من أمره وقضائه : وذلك حين يفرون من أهوال يوم القيامة أو في الدنيا هرباً من الموت . قال تعالى :

« يَمْعَشِرَ الْجَنُّ وَالْإِنْسُ إِنَّ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) » .
أي لا تقدرون على النفوذ إلا بقوة وغلبة وليس لكم قوة ولا غلبة .

« فَبَيِّأِ آلَآؤَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ (٣٤) » .

وأخبر سبحانه أنهم لو حاولوا الهرب لردتهم الملائكة والزبانية بما ترسله عليهم من الشواظ وهو لهب النار - والنحاس وهو الدخان أو الصفر المذاب يصب على رؤوسهم فلا يمتنعان منها ولا يكون لهم ناصر من عذاب الله . قال تعالى :

« يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥)
فَبَيِّأِ آلَآؤَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ (٣٦) » .

(سنفريغ لكم) سنقصدهم لحسابكم . (أيها الثقلان) الإنس والجن . (تنفذوا) تخرجوا هرباً من فضائلكم . (بسطان) بقوة وقهر ، وهيئات .. (شواظ) لهب لا دخان فيه . (نحاس) صفر مذاب .

ثم أخبر سبحانه أن وراء إرسال الشواظ والنحاس ما هو أشد هولاً يوم القيامة - وهو تشقق النشاء وتصدعها وتلونها بلون الورد وذوبانها ، كما يذوب الدهن من شدة الهول ، في ذلك اليوم لا يسأل الإنسان أو الجن عن ذنوبهم لأن الله سبحانه قد أحصاها عليهم . والسؤال المنفي هنا هو ما كان على وجه الاستخبار ، أما سؤال التوبيخ والتقريع فهو ثابت كما قال تعالى :

« قَوْرَبِكَ لَنَسَا لَنَهُمْ أَجْمَعِينَ ^(١) » الآية .

وقد ذكر سبحانه أن المجرمين يعرفون بسيماهم أي بعلامات تظهر عليهم ، وهي سواد الوجوه ، وزرقة العيون ، فلا داعي لسؤالهم ، بل ينزل بهم أمر الله فتجتمع نواصيهم ؛ والناصية مقدم الرأس ، تجمع إلى أرجلهم ، ويقذفون في النار ويقال لهم توبيخاً : هذه جهنم التي كنتم تكذبون بوجودها - ثم يتنوع عذابهم فيها ، فتارة يعذبون بالنار ، فإذا استغاثوا عذبوا بشرب الحميم الآن ، والحميم هو الماء الحار ، والآن هو الذي بلغ منتهى الحرارة ، قال تعالى :

« فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ (٤٤) » أي يسمعون بين هذا وذاك « فَبِأَيِّ

(١) سورة الحجر آية ٩٢ .

« فكانت وردة » كالورد في الحمرة . « كالدِّهَانِ » كدهن الزيت في الذوبان . « بسيماهم » بسواد الوجوه ، وزرقة العيون . « فيؤخذ بالنواصي » بشعور مقدم الرؤوس . « حميم آتٍ » ماء حار تنامي حره .

آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) .

وبعد أن قص الله سبحانه أخبار المجرمين وعذابهم في الجحيم ، ذكر ما أعدّه لعباده البررة الصالحين ، وذكر من أوصافهم أنهم يخافون القيام بين يدي ربهم للحساب . فراقبوا الله في السر والعلن ، وتركوا المحرمات ، واشتغلوا بالطاعات فوعدهم الله بدخول الجنتين والتنعم فيهما ، قال تعالى : (ولن خاف مقام ربه جنتان) .

ثم أخذ سبحانه في وصف الجنتين فقال (ذواتا أفنان) أي لهما أغصان حسنة ، جمع فنان ، وهو الفصن . (فيهما عينان تجريان) . أي بالماء الزلال ، إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل .

(فيهما من كل فاكهة زوجان) .

أي فيهما من كل فاكهة صنفان ونوعان . قال تعالى :

« وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) » .

(ذر أفنان) أغصان . (زوجان) صنفان معروف وغريب ، أو أنواع من الثمار .

وبعد أن ذكر سبحانه طعام أهل الجنتين ، وذكر فراشهم ، فأخبر أنهم يتكئون على فرش بطائنها أي باطنها من إستبرق ، وهو الغليظ من الديباج - والمراد بالبطائن ما كان ملاصقاً للأرض .

وأخبر سبحانه أن ثمار جنتهم (دان) أي قريب منهم ، فهو يتدلى لمن يريده فيجنيه دون عناء بخلاف ثمار الدنيا ، فهي لا تجنى إلا بالكد والتعب ، قال تعالى :

« مُتَكِّئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) » .

ثم ذكر سبحانه أوصاف نسائهم اللاتي تتم بهن المتعة وأخبر أنهم قصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم ، ولم يسبق أن مسهن أو اتصل بهن اتصالاً جنسياً قبل أزواجهن أهل الجنتين أحد من الإنس أو الجن فهن أبكار - كالباقوت والمرجان في الحمرة والجمال ، قال تعالى :

« فِيهِنَّ قَصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) » .

« إستبرق » غليظ الديباج . « جنى الجنتين » ما يجنى من ثمارها . « دان » قريب من يد المتناول . « لم يطمثهن » لم يفتضهن قبل أزواجهن .

وبعد أن ذكر سبحانه ما أعدّه من النعيم لعباده المتقين ، أعقب ذلك بقوله :

« هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) » .

أي ليس جزاء من أحسن العمل في الدنيا إلا أن يحسن إليه الجزاء في الآخرة .

ثم أخبر سبحانه أن وراء هاتين الجنتين جنتين أقل من الجنتين السابقتين في المرتبة والفضل ، وهما لأصحاب اليمين ، ثم أخذ سبحانه في وصفها فقال :
(مدهامتان) .

أي تضربان إلى السواد من شدة الخضرة والري ، وفيهما عينان فوارتان بالماء لا تنقطعان ، وفيهما من جميع أنواع الفواكه ، وخص النخل والرمان بالذكر مع أنها من الفواكه ، تشريفاً لهما ، وبياناً لفضلها على سائر الفواكه .

قال الله تعالى :

« وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣)
مُدْهَامَتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ
نَضَّاحَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ
وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) » .

ثم أخذ سبحانه يصف نساء هاتين الجنتين فذكر أنهن خيرات ، جمع خيرة

« مدهامتان » خضراوان شديدة الخضرة . « نضاحتان » فوارتان بالماء لا تنقطعان .

وهي المرأة الصالحة الحسنة الخلق والوجه ، ومن مقصورات أي محجوبات في خيام اللواؤ لم يسبق لأحد من الإنس أو الجن أن اتصل بهن اتصالاً جنسياً قبل أزواجهن ، ويتكثن على (رفر ف) وهي الوسائد أو رياض الجنة (وعبقري) وهي البسط الجميلة ذات النقوش المعجبية - قال تعالى :

« فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١)
حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣)
لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَكَيِّمِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حَسَانٍ (٧٦)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) . »

وختم سبحانه السورة بقوله :

« تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨) . »

● تم المقرر ●

(خيرات) خيرات الأخلاق . (حور) نساء بيض حسان . (مقصورات في الخيام)
مخدورات في البيوت . (رفر ف) وسائد أو فرش مرتفعة . (عبقري) بسط ذات خل رقيق .
(تبارك) تعالى ، أو كثر خيره وإحسانه . (ذي الجلال) العظمة والاستغناء المطلق .
(الأكرام) الفضل التام .

محتويات الجزء الثالث

من كتاب «التفسير الميسر»

ص	
٣	مقدمة
٤	تفسير سورة محمد ﷺ
٢٠	تفسير سورة الفتح
٤٠	تفسير سورة الحجرات
٥٢	تفسير سورة ق
٦٥	تفسير سورة الذاريات
٧٥	تفسير سورة الطور
٨٥	تفسير سورة النجم
٩٦	تفسير سورة القمر
١٠٦	تفسير سورة الرحمن

طبع على مطابع
دار البنان
للطباعة والنشر

هاتف ٢٩١٣-٤٣-٢٩٤٢-٤-٢٥٧٢١١
بغداد - لبنان - ص.ب. ٥٦٢٠

مقرر التفسير للسنة الثانية
بالمدارس المتوسطة

التفسير الميسر

ملاحظات نقدية من أشهر التفاسير المعتمدة

الجزء الثاني

ألفه
عبد الله خياط

منشورات

مكتبة النجاشي

جدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله

والصلاة والسلام على رسول الله

محمد وعلى آله وصحبه

أما بعد

فهذه هي الحلقة الثانية من كتاب (التفسير الميسر) نسقتها حسب منهج وزارة المعارف للسنة الثانية بالمدارس المتوسطة بدار التوحيد والمعاهد الابتدائية وهي تبتدىء من أول سورة الواقعة ، وتنتهي بنهاية سورة الجن .

اعتمدت في وضعها على التفاسير المشتهرة المعتبرة ، التي تعنى بتقرير مذهب السلف ، رضوان الله عليهم .

أسأل الله تعالى

أن ينفع بها ، ويعينني على إتمام بقية السلسلة

إنه أكرم مسؤول

وصلى الله على خير خلقه ، محمد وآله وصحبه .

عبد الله خياط

تفسير سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا (٦) » .

الواقعة : إسم من أسماء القيامة ، والمعنى : إذا قامت القيامة ليس لقيامها ووقوعها كذب ولا رد ، فهي كائنة لا محالة ، وهي حين تقع تخفض أقواماً وترفع آخرين .. تخفض أعداء الله إلى الجحيم ، وترفع أولياء الرحمن إلى النعيم المقيم في الجنة ؛ فإذا وقعت الواقعة ، ترج الأرض .. أي تزلزل وتضطرب ، وتبس الجبال بساً ، أي تفتت ، وتصبح كالغبار الذي تتطاير أجزأؤه ولا يكاد يرى ، ويصبح الناس حينئذ أصنافاً وفرقاً ثلاثة :

أهل يمين ، وهم الذين يأخذون كتاب أعمالهم بأيمانهم ، ويؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة .

وأهل شمال ، وهم الذين يأخذون كتاب أعمالهم بشمائلهم ، ويؤخذ بهم إلى النار .

وسابقون ، قيل : هم الذين سبقوا إلى الإسلام والاستجابة للرسول ﷺ ؛ وقيل : هم السابقون إلى الهجرة أو إلى عمل الطاعة في الدنيا .

(وقعت الواقعة) قامت القيامة . (كاذبة) نفس كاذبة تنكر وقوعها . (رجت الأرض) زلزلت وحركت . (بست الجبال) فتت كالسويق المتتوت . (هباءً منبثاً) غباراً متفرقاً منتشراً .

وهم السابقون إلى الجنة في الآخرة أصحاب الدرجات العلا .

وكرر سبحانه قوله في الآية التالية (ما أصحاب الميمنة) لتعظيم شأنهم وما هم فيه من النعيم . وفي قوله تعالى (ما أصحاب المشئمة) تعجب من أمرهم وما هم فيه من الشقاء .. وكذلك القول في قوله (والسابقون السابقون) يريد التنبيه على رفعة أقدارهم ومنازلهم - فهم المقربون عند الله لعلو درجاتهم في الجنة وهم جماعة من الأولين ، وقليل من الآخرين .

وكرر ابن كثير رحمه الله أن الأولين هم من صدر هذه الأمة والآخرين من آخرها ، وذلك لأن صدر هذه الأمة خير من آخرها فكثير السابقون في السلف الصالح وقلوا بعد ذلك .. قال تعالى :

« وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤) » .

ثم أخبر سبحانه عن لون نعيمهم ، فذكر أنهم متكئون (على سرر موضونة) أي منسوجة بالذهب .. يقابل بعضهم بعضاً ، يقوم في خدمتهم (ولدان مخلدون) أي صغار لا يموتون ولا يهرمون ، يحملون الأكواب ، وهي الآنية لا آذان لها ولا عرى ، والأباريق وهي الآنية ذوات الآذان تمسك منها وقد ملئت الأكواب والأباريق بخمر من (معين) أي من نهر

(كنتم أزواجاً) أصنافاً . (فأصحاب الميمنة) اليمن والبركة أو ناحية اليمن .
(أصحاب المشئمة) الشؤم أو ناحية الشمال . (ثلة) هم أمة من الناس كثيرة .

غزير جار لا ينضب ثم هي ليست كخمر الدنيا لأن شاربها لا يعتريه صداع ولا يذهب عقله .. قال تعالى :

« عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَكِّينَ عَلَيْهَا مُتَقَبِّلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بَآكُوبٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ (١٩) » .

ثم ذكر سبحانه ما يطوف به عليهم هؤلاء الخدم من ألوان الفاكهة ، ومن لحوم الطير وما يختارون منها وما تمل نفوسهم إليه وما يشتهونه ، ويتمتعون بنساء بيض حسان متسعات العيون واضحات الجمال كأنهن اللؤلؤ المصون في الصدف لم تمسه الأيدي - وكل هذا النعيم تفضل به الله عليهم جزاء ما كانوا يعملونه من الأعمال الصالحة في الدنيا .. قال تعالى :

« وَفَكِيهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) » .

ومن نعيمهم أيضاً أنهم لا يسمعون في الجنة ما يستهجن من الكلام ولا ما يأنثم به قائله بل يسمعون على الدوام السلام حيث يسلم بعضهم على بعض ، وتسلم عليهم الملائكة .. قال تعالى :

(سرر موضونة) منسوجة بالذهب بإحكام . (ولدان مخلدون) يبقون على هيئة الولدان في البهاء . (بأكواب) أقداح لا عرى لها . (أباريق) أوان لها عرى وخراطيم . (كأس) خر أو قدح فيه خر . (من معين) خر جارية من العيون . (لا يصدعون عنها) لا يصيبهم صداع بشرها . (لا ينزفون) لا تذهب عقولهم بها . (حور عين) نساء بيض واسعات الأعين . (اللؤلؤ المكنون) المصون في أصدافه .

« لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) ».

ثم عرضت الآيات بعد ذلك لوصف أصحاب اليمين - فذكرت أنهم ينعمون بسدر (مخضود) أي عديم الشوك و (طليح منضود) . الطليح : هو الموز عند أكثر المفسرين . والمنضود الذي ينضد بالثمر أي تراكم عليه الحمل من أوله إلى آخره ، وقيل : هو شجر له ظل بارد طيب . و (ظل ممدود) ينعمون به أيضاً ، والممدود هو الممتد الذي لا تزيله الشمس كظل الدنيا ، بل هو دائم مستمر كظل النهار قبيل طلوع الشمس . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام إقرأوا إن شئتم « وظل ممدود » . وينعمون أيضاً بالماء المنسكب لا هو بالهادر المتدفق ولا هو بالحائر المترقق بل يصب لهم ويسكب كلما أرادوا .

وينعمون أيضاً بألوان الفاكهة الكثيرة العدد المتنوعة ، لا تنقطع عنهم أبداً . وهي أيضاً لا تمتنع ممن يريد أخذها ولا تنقطع عن من يحنيها ، وينعمون بفرش وثيرة مرتفعة تتوفر بها الراحة والطمأنينة .

وينعمون بزوجات أنشأهن الله لهم إنشاء ، أي خلقهن خلقاً جديداً ، أو أعادهن بعد أن كن في الدنيا عجائز ، أنشأهن (أبكاراً) أي عذارى لم يقربهن زوج (عربياً) متحبات إلى أزواجهن (أتراباً) مستويات في العمر لا تزيد واحدة منهن عن الأخرى ، أي يكن في عنفوان الشباب . وكل هذا النعم هو لأصحاب اليمين ، وهم جماعة من الأولين من مؤمني هذه الأمة ، وجماعة من متأخريها ؛ يؤيده قوله ﷺ عن ابن عباس : هما جميعاً من أمتي ، قال تعالى :

(لغوا) كلاماً لا خير فيه . (لا تأثيم) لا نسبة إلى الإثم أو إلى ما يوجب به .

« وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) » .

أي لا تسبل عما هم فيه من النعيم والكرامة .

« فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفُكَيْهٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (٤٠) » .

ثم انتقلت الآيات بقص خبر أهل الجحيم ، وهم المعنيون بقوله تعالى : (وَأَصْحَابُ الشَّالِ مَا أَصْحَابُ الشَّالِ) ذكرت الآيات أنهم في سموم ، والمراد به حر النار . وفي (حم) وهو الماء المتناهي في الحرارة وفي (ظل من محموم) أي ظل من دخان جهنم وهو غليظ شديد السواد ، فإذا أحرقت النار أبدانهم وأكبادهم فزغوا إلى ما يطفئون به تلهب أجوافهم ، فيسقون من الحمم فتتقطع أمعاؤهم ثم يفرعون إلى الظلال ، فإذا هم بدخان جهنم ، لا بارد المنزل ولا كريم المنظر . قال تعالى :

« وَأَصْحَابُ الشَّالِ مَا أَصْحَابُ الشَّالِ (٤١) » .

تعجب من حالهم وما هم فيه من العذاب .

« سدر » شجر النبق . « مخضود » مقطوع شوكة . « طلح » شجر الموز أو مثله . « منضود » نضد بالحل من أسفله إلى أعلاه . « ظل ممدود » دائم لا ينقطع . « ماء مسكوب » مصبوب يجري في غير أخاديد . « عرباً » متحبيات إلى أزواجهن . « أتراباً » مستويات في السن والحسن .

« فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٌّ مِّنْ يَّحْمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) » .

وسبب هذا التعذيب ما أوضحه الله تعالى بقوله : « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » أي كانوا في الدنيا منغمسين في الترف ولذات أنفسهم ، لا يلتفتون إلى ما جاءتهم به الرسل من الدين « وكانوا يصرون على الحنث العظيم » أي كانوا يقيمون على الذنب الكبير ، وهو الشرك واتخاذ الأنداد من الأصنام والأوثان وشركاء الله في العبادة ، وكانوا ينكرون البعث ويستبعدون وقوعه ويقولون : « أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أننا لبعوثون أو آباؤنا الأولون » أي هل بعد الموت ، وبعد أن تغدو الأجساد عظاماً نبعث نحن وآباؤنا ، ونحيا حياة ثانية ؟ . وأمر الرسول ﷺ أن يرد عليهم قائلاً : « إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم » أي إن الأولين من آبائكم ، والآخرين منكم سوف يجمعهم الله تعالى في الموعد الذي وقته للحساب والجزاء ، وهو يوم القيامة وبعد هذا الجمع سوف يحازي الله الضالين عن الهدى .. المكذبين بالبعث ويوم الجزاء من كفار مكة ، ومن على عقيدتهم من الملحدين ، حيث يدخلهم النار ويطعمهم فيها من شجر الزقوم وهي شجرة خبيثة ، يكره أهل النار على تناولها وملء بطونهم منها . ثم يشربون على طعام الزقوم من الحميم وهو الماء الذي اشتد غليانه ، وقد شبه سبحانه شربهم من الحميم ، وعدم ارتواءهم منه بشرب الإبل التي أصيبت بداء الهيام ، تشرب فلا يروي لها الماء غليلاً .. والهميم جمع أهيم ، وجهنم هي المسكان المختار المعد لنزولهم إعداداً يليق بهم طعاماً وشراباً ومنزلاً كما سبق وصفه فهي نزلهم ومحل استقبالهم يوم القيامة . قال تعالى :

(سُمُومٌ) ريح شديدة الحرارة . (حَمِيمٌ) ماء بالغ غاية الحرارة . (يَحْمُومٌ) دخان شديد السواد . (لا كريم) لا نافع من أذى الحر .

« إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَوْنَا لَمَجْعُوْنُونَ (٤٧) أَوْءَا بَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ لَلْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَا تَكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ (٥٢) فَالِئُلُونِ مِنْهَا الْبَطُونَ (٥٣) فَشَرِبُوا مِنْهُ مِنْ الْخَمِيمِ (٥٤) فَشَرِبُوا شَرْبَ الْهَلِيمِ (٥٥) هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) ».

وانتقلت الآيات بعد ذلك في إثبات المعاد والبعث بعد الموت. قال الله تعالى:

« نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ (٥٧) » .

أي أوجدناكم من العدم ، فهل تصدقون بالبعث ؟ إذ أن القادر على بدء الخلق هو بلا شك قادر على بعثه بعد الموت .

« أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) » .
أي أفرايتم هذا المني الذي تصبونه في الأرحام هل أنتم تصورون منه بشراً مستوي الخلقة أم الله تعالى الذي يفعل ذلك ؟ ومن قدر على خلق بشر من النطفة وأوجده من العدم ، قادر على إعادته إلى الحياة وبعثه بعد الموت

(مترفين) عصاة متبعين أهواء أنفسهم . (الحنث) الذنب العظيم « الشرك » . (زقوم) طعام كريه جداً في النار . (شرب الهيم) الإبل العطاش التي لا تروى . (هذا نزلهم) ما أعد لهم من الجزاء . (يوم الدين) يوم الجزاء . (أفرايتم) أخبروني . (ما تمنون) الماء الذي تقدفونه في الأرحام .

« نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ » .

أي جعل الموت مقدراً على العباد بأجال محدودة .

« وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ » .

أي لسنا بمعجزين ولا مغلوبين عن إهلاككم وإبدالكم بقوم آخرين أمثالكم .

« وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) » .

أي قادر سبحانه على خلقهم ، بعد إهلاكهم ، في صور أخرى لا يعلمونها ، والمعنى أنه قادر على إهلاكهم .. وعلى بعثهم .. وعلى كل شيء .. !

ثم وجه سبحانه الأنظار إلى النشأة الأولى وأنه خلق الخلق من عدم وأوجد لهم الأسماع والأبصار والأفئدة والعقول . فهلا استدل منكرو البعث بالنشأة الأولى على البعث وقدكروا بها النشأة الأخرى ؟ قال تعالى :

« وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) » .

واستمر سبحانه في سرد الأدلة على البعث قائلاً :

« أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ

الزَّارِعُونَ (٦٤) » .

أخبروني عما تثيرون في الأرض وعن البذر الذي تلقونه فيها : هل أنتم الذين تلتبثون البذر في الأرض حتى يشتد وحتى يخرج الحب من سنبله أم الله الذي يفعل

« بمسبوقين » مغلوبين . « ما تحرثون » البذر الذي تلقونه في الأرض . « تزرعونه » تلتبثونه .

ذلك ؟ ومن قدر على إيجاد الحب في سنبلة قادر على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم .. وقوله تعالى :

« لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) » .

أي لو شاء الله لجعل هذا الزرع يابساً قبل صلاحه لا ينتفع به ، ثم أخذتم تعجبون من ذلك أو تندمون على تعبك فيه ونفقتكم عليه وتقولون :

« إِنَّا لَكُفْرُومُونَ (٦٦) » .

أي النفقة التي أنفقناها صارت غرماً لنا حين ضاعت علينا دون تعويض .

« بَلْ لَّحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) » .

أي حرماننا ما كنا نؤمله من ثمر زرعنا والربح فيه ..

واستمر سبحانه في تعداد نعمه على العباد فذكر إنزاله الماء من السحاب حلولاً سائفاً شرابه .

وتساءل هل أنتم الذين صنعتم ذلك أم الله سبحانه ولو شاء لجعله مالحاً شديداً الملوحة ، لا يستساغ شربه . فهلا شكرتم الله على هذه النعمة ؟ - ومن شكره إخلاص العبادة له والاعتراف بقدرته على البعث والمعاد . قال تعالى :

« أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنْ

(حطاماً) هشيماً متكسراً لا يلتفت به . (تفكّهون) تعجبون من سوء حاله ومصيره .
(محرومون) ممنوعون من الرزق .

الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) .

ثم ذكر سبحانه النار التي يشبونها ويستخرجونها من الشجر خشباً أو فحمًا .
وتساءل عن الخالق لهذه الشجرة ، هل هو الله سبحانه أم منكرو البعث
المعاندون ؟ ثم أخبر سبحانه أنه جعل هذه النار التي في الدنيا تذكيراً للنار جهنم
ومتاعاً يمتع بها (المقوون) وهم المسافرون يوقدونها في الليل للدفع ، وهداية
الضال وغير ذلك .. قال تعالى :

« أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمُ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَمتَعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) » .

ثم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يسبح باسم ربه العظيم في ملكه
وسلطانه وقدرته وقديره ، أي يقول سبحانه ربي العظيم وينزه ربه عما لا يليق
به . قال تعالى :

« فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) » .

ويعد أن ذكر سبحانه البراهين الواضحة على إثبات المعاد ، أقسم سبحانه
بمواقع النجوم ، وهي منازلها ، ثم قال : (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) . أي لو
كنتم من ذري العلم لعلمتم عظمتة ، ثم ذكر القسم عليه وهو القرآن بقوله (إنه
لقرآن كريم) أي جامع للمحامد ، فيه الهدى والنور والعلم والحكمة (في كتاب

(المزن) السحب . (جعلناه أجاجاً) ملجأ زعافاً . (النار التي تورون) تقدحون الزناد
لاستخراجها . (متعاً للمقوين) منفعة للمسافرين أو المحتاجين إليها .

مكثون) أي مصون عند الله في اللوح المحفوظ (لا يمسه إلا المطهرون) وهم الملائكة ، وقيل المراد به المصحف الذي نتداوله ونحمله وننظر فيه فيكون معنى لا يمسه إلا المطهرون أي بني الإنسان الذين تطهروا من الأحداث المعروفة فلا يجوز للجضب ولا لمن به حدث أصفر ولا لحائض مس المصحف - وأخبره سبحانه أن القرآن منزل من رب الخلائق أجمعين ، لا كما يقول المفترون إنه سحر أو شعر أو مخلوق وليس ينزل من عند الله . قال تعالى :

« فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوُ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) .

بعد ذلك وجه سبحانه الخطاب للمكذبين بالقرآن قائلا :

« أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) .

أي مكذبون وكافرون .

« وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) .

أي تجعلون شكر ما يرزقكم الله به من الغيث أنكم تكذبون أن يكون من عند الله حيث كانوا ينسبون السقيا للنجوم ويقولون مطرنا بنوء كذا .

وعادت الآيات لموضوع البعث ، ذكر الله فيها دليلا واضحا عليه ، وهو حالة المحتضر عندما تبلغ روحه الحلقوم ؛ ويحشر وحوله أهله يشاهدون ما نزل به ؛ ولا يستطيعون له دفعا ؛ ويكون الله سبحانه أقرب إليه منهم

(فلا أقسم) أقسم و « لا » مزيدة . (مواقيع النجوم) مغاربها أو منازلها . (لقرآن كريم) جم المنافع أو رفيع القدر . (كتاب مكثون) مصون . (أنتم مدهنون) متهاونون به أو مكذبون . (تجعلون رزقكم) شكركم على الإنعام به .

بملائكته الذين وكّل إليهم قبض روحه فهلا كان في استطاعتهم أن يسعفوا المحتضر ويمعدوا إليه روحه إن كانوا صادقين في زعمهم أنهم غير مبعوثين ومحاسبين . قال تعالى :

« فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) » .

« فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) » أي مبعوثين مجزيين .

« تَرْجِعُونَهَا » أي الروح « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) » .

وبعد أن ذكر سبحانه حالة المحتضر أوضح مرحلته الأخيرة التي يسلم فيها الروح وأخبر عن مصيره ؛ فذكر أنه إن كان من المقربين وهم السابقون المذكورون في أول السورة ، فسوف يلقى روحاً أي استراحة ، وقيل رحمة ، ويلقى ريحاناً أي رزقاً ، أو الريحان المعروف . ويدخل جنة ينعم فيها بصنوف النعيم تبشرهم الملائكة بذلك عند الموت . ورد في الحديث أن ملائكة الرحمة تقول للمحتضر : أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه ؛ أخرجني إلى روح وريحان ورب غير غضبان ، وإن كان المحتضر من أصحاب اليمين تسلم عليه الملائكة وتبشره وتقول له : لا بأس عليك أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين . وإن كان من المكذبين بالبعث الضالين عن الهدى ، وهم أصحاب الشئال فله نزل من حميم . والنزل أول ما يقدم للضيف من الضيافة ، أي يسقى من الحميم حتى تنقطع أمعاؤه ويصطلي بنار الحميم . قال تعالى :

« فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتٌ
نَعِيمٌ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ
مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢)
فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ (٩٤) » .

ثم أخبر سبحانه أن كل ما جاء في هذه السورة من أخبار الخلق وأحوالهم
في الآخرة ، هو الحق الثابت واليقين الذي لا شك فيه ؛ وهو من إضافة الشيء
إلى نفسه . وختم السورة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسبح باسم ربه
العظيم - قيل أي يُنزهه عما لا يليق به مما ينسبه إليه الكافرون - وقيل يذكر
ربه العظيم ويسبحه تعالى :

« إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) » .

عن عقبة بن عامر قال : « لما نزلت (فسبح باسم ربك العظيم) قال النبي
صلى الله عليه وسلم : اجعلوها في ركوعكم .. ولما نزلت (سبح اسم ربك
الأعلى) قال النبي صلى الله عليه وسلم : اجعلوها في سجودكم » .

« فروح وريحان » فله رحمة واستراحة . « فنزل » فله قري وضيافة . « حميم » ماء تناهت
حرارته . « تصليية جهيم » مقاساة حر النار أو إدخال فيها .

تفسير سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

«سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (١)
لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى : (سبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) يخبر سبحانه أنه يسبح له ما في السموات والأرض
أي من الحيوانات والنباتات ؛ كما قال في الآية الأخرى : (تسبِّح له السموات
السبع والأرض ومن فيهن وإن ما من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون
تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً) سورة الإسراء آية ٤٤ .
(وهو العزيز) أي الذي خضع له كل شيء ، (الحكيم) في خلقه وأمره
وشرعه .

وأخبر سبحانه أنه مالك السموات والأرض المتصرف في خلقه كما يشاء ،
فيحيي الأموات ويبعثهم بعد أن صاروا رميماً ، ويميت الأحياء بعد انتهاء
الآجال المقدرة لهم لا يعجزه شيء .

(سبِّحَ لِلَّهِ) تزه الله ومجده . (العزيز) القوي الغالب . (الأول) السابق على جميع
الموجودات . (الآخر) الباقي بعد فنائها . (الظاهر) بوجوده ومصنوعاته وتديره .
(الباطن) بكنه ذاته عن العقول .

أما قوله تعالى: (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) فقد أوضح تفسيرها رسول الله ﷺ في حديث أبي هريرة عند مسلم حيث يقول : أنت الأول فليس قبلك شيء .. وأنت الآخر فليس بعدك شيء . وأنت الظاهر فليس فوقك شيء . وأنت الباطن فليس دونك شيء .

وهو سبحانه قد أحاط علمه بكل شيء لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

ثم أخبر سبحانه عن قدرته العظيمة حيث خلق السموات والأرض في ستة أيام وعن استوائه على العرش بعد خلقهن . والاستواء على العرش صفة من صفات الله تعالى يثبتها أهل السنة على حقيقتها دون التعرض لها بالتكليف أو التشبيه والتمثيل والتعطيل إذ أن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

ثم أخبر سبحانه عن سعة علمه وأنه يعلم ما يلج في الأرض ، أي يدخل فيها من مطر وحبوب ، وما يخرج منها من نبات وزروع وثمار وغيرها ، وما ينزل من السماء من الأمطار والأرزاق والأقذار والأحكام ، وما يعرج فيها أي يصعد فيها من ملائكة وأعمال للعباد - ثم هو مع استوائه على عرشه وعلاه على خلقه قريب من عبادته بعلمه أينما كانوا وحيثما حلوا في البر والبحر - في الليل والنهار ، لا يخفى عليه شيء من أمورهم فهو بصير بكل ما يعملون . قال تعالى :

« هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا

(ما يلج) ما يدخل . (ما يعرج فيها) ما يصعد إليها . (وهو معكم) بعلمه المحيط بكل شيء .

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) .

كرر سبحانه الإخبار عن أنه له ملك السموات والأرض ، بعد ذكر ذلك في أول السورة للتأكيد وليستدل العباد على تأليه وعبادته - فالمالك المتصرف في السموات والأرض وفي جميع مخلوقاته هو الذي يستحق العبادة وحده دون سواه ، وإليه مرجع أمور الخلائق يوم القيامة يحكم بينهم بعدله . وأخبر سبحانه أنه المتصرف في الليل والنهار .. يدخل الليل في النهار بأن ينقص من الليل نارة ويزيد في النهار فيكون النهار أطول من الليل ، ويدخل النهار في الليل بأن ينقص من النهار نارة ويزيد في الليل فيكون الليل أطول من النهار ، ونارة يتركها معتدلين ، وهو سبحانه العليم بما تكنه السرائر وما تخفي الصدور . قال تعالى :

« لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥)
يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الْصُّدُورِ (٦) » .

ثم أمر سبحانه بالإيمان به والإنفاق في سبيله في كل وجوه البر .. وأخبر سبحانه أن المال ما هو إلا عارية مسترجعة يخلف الناس فيه بعضهم بعضاً فالخلف قد ورثوه عن سلفهم وسيخلفه فيه غيرهم ، وما دام الأمر كذلك فالإنفاق خير من الإمساك ، ثم وعد سبحانه بالجزاء العظيم لمن يستجيب لأمره فيؤمن به وينفق في سبيله . قال تعالى :

(يولج الليل) يدخله .

« آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ
فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » (٧) .

وعقب على ذلك سبحانه بسؤال الكفار عن عدم الإيمان بالله ، والرسول
بين أظهرهم يدعوهم إليه بالبراهين والمعجزات الظاهرة ؛ وقد أخذ الله عليهم
الميثاق حين أخرجهم من ظهر آدم بأن الله ربهم لا إله لهم سواه ، أو أخذ
عليهم الميثاق بإقامة الحجج والبراهين التي تدعو إلى الإيمان بالله ومتابعة الرسول .
قال تعالى :

« وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا
بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (٨) .

أي إن كنتم تريدون الإيمان فأحرى به الآن بعد قيام الحجج ببعثة الرسول
محمد ﷺ .

ثم أخبر سبحانه عن إنزاله القرآن على الرسول ﷺ : آيات واضحات
الدلالة ليخرج به الناس من ظلمات الشرك والضلالة إلى نور التوحيد والهدى ؛
ذلك لرأفته سبحانه بعباده ، وهو الرؤوف الرحيم بهم . قال تعالى :

« هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ » (٩) .

ومرة أخرى عاد سبحانه يحض على الإنفاق متسائلاً عن السبب في الإحجام
عنه مخبراً أن الله سبحانه هو الذي يرث السموات والأرض بعد فناء أهلها ؛
وذلك ما يدعو إلى اغتنام الفرصة للإنفاق قبل فواتها . قال تعالى :

« وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ » .

ثم أوضح سبحانه التفاوت في الأجر والدرجات بين من أنفق في سبيل الله
وقاتل قبل فتح مكة وبين من أنفق وقاتل بعد ذلك . فإن الإسلام قبل الفتح
كان ضعيفاً والحاجة إلى الإنفاق والقتال كانت أشد . أما بعد الفتح فقد أضحى
الإسلام عزيزاً وكثر البذل في سبيل الله . وقد شمل الله كلا الفريقين بكرمه
ووعدهما بالجزاء بالحسنى ، وهي الجنة تتفاضل فيها درجاتهم ، وهو سبحانه
خبير بأعمال عباده ، عليم بإخلاصهم . قال تعالى :

« لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتَلَ أَوْلِيكَ
أَعْظَمُ دَرَجَةً مَنِ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا ، وَكُلًّا وَعَدَ
اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » (١٠) .

وعاد سبحانه يكرر موضوع الإنفاق في سبيله ويندب إليه ، وأنزله منزلة
القرض المتطلب بدلاً ، ووصفه بالحسن ليخرجه المنفق خالصاً من قلبه دون من
أو أذى ، ووعد عليه بالجزاء الضافي وهو المضاعفة من أضعاف كثيرة .

« مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ ،
وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » (١١) .

(الحسنى) المثوبة الحسنى « الجنة » . (قرضاً حسناً) محتسباً به ، طيبة به نفسه .

وهذا الأجر الكريم يحصل عليه المؤمنون المتصدقون يوم القيامة يوم يسمى نور المؤمنين والمؤمنات إذ يمضون على الصراط بين أيديهم على قدر أعمالهم ، يكون أمامهم وعن أيامهم وقيل : أمامهم النور يستضيئون به ، ويأخذون كتب أعمالهم بأيامهم ، ويقال لهم : أبشروا بمحنت تجري من تحتها الأنهار ما كنتم فيها أبداً في نعم دائم وهذا الخلود في النعيم هو الفوز العظيم . قال تعالى :

« يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) » .

وعلى العكس من حال المؤمنين فريق المنافقين الذين وصف الله حالهم بقوله : (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا أنظرونا نقتبس من نوركم) أي تمهلوا وانتظرونا لنستضيء من نوركم ، ذلك لأن المؤمنين يسرعون إلى الجنة ، فيقول المؤمنون أو تقول لهم الملائكة : (ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) أي ارجعوا إلى الموضع الذي انبعث منه النور فالتمسوا فيه نورا لأنفسكم وعندئذ يفصل بين المؤمنين والمنافقين بحاجز له باب يوصل إلى الجنة (باطنه) (أي داخل هذا الحاجز مما يلي المؤمنين : الرحمة ، والمراد الجنة وما فيها من النعيم ؛ وظاهر هذا الحاجز (من قبله) أي من الجهة والجانب الذي يلي المنافقين : العذاب ، والمراد بذلك النار فينادي المنافقون المؤمنين من وراء الحاجز قائلين (ألم نكن معكم) أي في الدنيا نصلي كما تصلون ، ونصنع ما تصنعون ؟ فيرد المؤمنون عليهم بقولهم : (بلى) أي نعم ، كنتم معنا كما تذكرون (ولكنكم فتنتم أنفسكم) أي أهلكتموها بالنفاق ، وأظهرتم خلاف

ما تبطنون (وتربصتم) أي انتظرتهم الدوائر بالنبي والمسلمين « وارتبتم » أي شككتهم في الإيمان والنبوة والبعث بعد الموت « وغرتم الأماني » خدعتكم الأماني الكاذبة ، ومنهما تمنيتم هلاك الرسول وانهزام المسلمين وكسر شوكة الإسلام . وما زلتم كذلك في نفاق وتربص وارتياب « حتى جاء أمر الله » أي حتى نزل بكم الموت « وغركم بالله الغرور » وخدعكم الغرور وهو الشيطان . ثم أياهم الله بقوله : « فاليوم الذي لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، أي لو أردتم الاقتداء من عذاب أو بذل العوض عنه لما قبل منكم كما أنه لا تقبل فدية من المشركين » ما واكم النار هي مولاكم وبئس المصير « مسكنكم النار هي أولى بكم من كل منزل لما أسلفتم من الذنوب ، وبئس النار من مصير تنقلبون إليه . قال تعالى :

« يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُوْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) » .

(انظرونا) انتظرونا . (نقتبس) نصب ونأخذ . (بسور) حاجز بين الجنة والنار ، فغتم أنفسكم) أهلكتموها بالنفاق . (تربصتم) انتظرتهم بالمؤمنين النوايب . (غرتمكم الأماني) خدعتكم الأباطيل . (الغرور) الشيطان وكل خادع . (هي مولاكم) النار أولى بكم أو ناصركم .

ثم وجه سبحانه الخطاب لفريق من المؤمنين ، فترت عزائمهم بمسد الهجرة عما كانوا عليه بمكة من جهاد النفس وأخذها بالمداومة على الطاعة ، فعاتبهم على ذلك بقوله : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) أي ألم يأت ويحن الوقت الذي تلين فيه قلوب المؤمنين وتخضع لذكر الله ؟ والمراد بالذكر المواعظ . ولما نزل من الحق وهو القرآن . حذرهم أن يكونوا كسابقيهم من أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى طال بهم الزمان ، وبعثوا عن التذكرة ، فقتل قلوبهم وأضحى الكثيرون منهم خارجين عن دينهم ، رافضين للعمل بما في كتبهم . قال تعالى :

« أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) » .

ثم أخبر سبحانه أن من دلائل ربوبيته إحياء الأرض المجدبة بالغيث بعد إحيائها ؛ وفي ذلك إشارة إلى قدرته على البعث وإحياء الموتى بعد أن صاروا رميماً . وفيه تمثيل لقدرة الله على إحياء القلوب القاسية بالذكر والموعظة . قال تعالى :

« أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) » .

(ألم يأن) ألم يحىء الوقت . (أن تخشع) تخضع وترق وتلين . (الأمد) الأجل أو الزمان .

أي قد أوضح الله تعالى أدلة قدرته للعباد لعلهم يعقلون ذلك .

وعاد سبحانه يذكر المتصدقين الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً أي بما أنفقوا في سبيله ، ويذكر ما وعدهم به من مضاعفة أجر ما أنفقوا إلى أضعاف كثيرة ويذكر أن لهم فوق هذه المضاعفة أجراً كريماً ، أي دخول الجنة ، قال تعالى :

« إِنِّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَعَّفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ » (١٨) .

ثم عقب سبحانه بذكر الصديقين والشهداء ، وذكر أن لهم أجراً على تصديقهم وإيمانهم ، ولهم نور على الصراط يهتدون به إلى الجنة . والصديق هو الكثير الصدق وهو وصف للمؤمنين لأنهم آمنوا وصدقوا بجميع أخبار الله ورسله ، والشهداء هم المؤمنون المخلصون - أو الأنبياء لأنهم يشهدون على الأمم يوم القيامة ، أو الذين استشهدوا في سبيل الله وعلى العكس منهم الذين كفروا بالله وكذبوا بآياته لهم في الآخرة عذاب الجحيم . قال تعالى :

« وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » (١٩) .

بعد ذلك وجه سبحانه أنظار العباد إلى الزهد في الدنيا ، وأخذ الأهبة للحياة الأخرى ، حياة النعم الدائم ، ووصف الله سبحانه الدنيا بأنها

(لعب) أي : باطل لا طائل تحته (وهو) كل ما يلبي على اختلاف صورته (وزينة) كل ما يكون له منظر حسن من لباس وفراش وغيره (وتفاخر) كل ما يفخر به الناس على بعضهم من نسب ومال وجاه (وتكاثر) يذكر البعض شيئاً مما عنده من مال والولد فيذكر غيره أكثر منه .. ثم ضرب سبحانه المثل للدنيا فقال إنها كالطر الذي يسقي الأرض فتنبت النبات الذي (يعجب الكفار) والكفار هم الزراع . ثم يهيج وينضج فلا يلبث أن يصفر ويحفر ويتكسر . ذلك هو مثل الحياة الدنيا . أما الآخرة ففيها (عذاب شديد) للكافرين جزاء كفرهم (ومغفرة من الله ورضوان) للمؤمنين أوليائه وأهل طاعته .

ثم يكرر الله تعالى أن الدنيا بما فيها من متع ما هي إلا زهرة ذاوية وممتعة لا قدوم يغتر من ركن إليها ولم يشتغل فيها بطلب الآخرة .. قال تعالى :

« أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) » .

(تكاثر) مبالغة وتطاول بالعدد والعُدَد . (أعجب الكفار) راق الزراع . (يهيج) يمضي إلى أقصى غايته ويبيض . (يكون حطاماً) فتاتاً مشماً متكسراً .

ثم وجه سبحانه العباد إلى اكتساب الوسيلة الموصلة إلى الآخرة والتي يحصل بها العبد على الثواب العظيم ، ودخول الجنة دار كرامة الله الموصوفة بأن عرضها كعرض السماء والأرض ، وذلك ما يشعر بعظم سعتها وكثرة خيراتها ؛ أعدها الله لمن صدّق به وبرسله وجميع ما أنزل عليهم من كتبه . وهذا الجزاء يتفضل الله به على من يشاء من عباده . وهو سبحانه صاحب الفضل العظيم . قال تعالى :

« سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) » .

ثم أخبر سبحانه عن قدره السابق في خلقه قبل أن يخلقهم وذكر أن كل المصائب التي تعترضهم في دنياهم هي بقضائه وقدره سواء ما كان منها في الأرض كالجذب وقلة النبات والثمار ، أو ما كان منها في الأنفس كالأمراض وفقد الأولاد . وقد كتب هذا التقدير في اللوح المحفوظ من قبل أن يقع ، وكتابته للأشياء قبل وقوعها رغم كثرتها أمر هين ويسير على الله .. قال تعالى :

« مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) » .

(من قبل أن نبرأها) أي : من قبل أن نخلق المصيبة ، أو من قبل

أن نخلق الأنفس أو الأرض كل ذلك جائز في معنى الآية .
وما دام الأمر كذلك ، فيجب أن لا يحزن العباد على ما فاتهم من حظوظ الدنيا ، فهي مقسومة مكتوبة ولا يفرحوا بما أوتوا فيها من لذة النعيم . بل يجب التسليم لقضاء الله والرضا بما قسم للعبد من خير وشر .. والفرح المذموم هو الذي يقود إلى الاختيال والكبر والطغيان . والحزن المذموم هو الذي يخرج عن الصبر والتسليم .. قال تعالى :

« لَكَيْلًا تَأْسُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) » .

ثم أوضح سبحانه أن من دأب كل مختال فخور البخل بما آتاه الله وعدم الإنفاق منه وحض غيره على البخل . ومن يفعل ذلك أي يبخل بما آتاه الله أو يعرض عن أوامر الله ونواهيه ، فلن يضر الله شيئاً ، فهو سبحانه غني عن كل عباده ، محمود على كل أفعاله . قال تعالى :

« الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) » .

ثم أخبر سبحانه عن إرسال الرسل للأمم لهدايتهم وتأيينه لهم بالبينات ، وهي الآيات الواضحة والمعجزات الدالة على صدقهم ، وأيدهم بالكتب أنزلها عليهم فيها الشرائع والأحكام ، وأنزل معهم الميزان وهو العدل ، ليقوم الناس به فيما بينهم ، وليقوموا باتباع الحق الذي

« لَكَيْلًا تَأْسُوا » لكَيْلًا تحزنوا حزن قنوط . « لا تفرحوا » فرح بطر واختيال .
« مختال فخور » متكبر مباه متطاول بما أوتي .

جاءت به الرسل ، وأنزل سبحانه الحديد ، أي خلقه وأوجده ، وجعل فيه قوة تقمع الجاحدين والمعاندين للحق .. وهو إلى جانب ذلك فيه منافع للناس حيث يصنعون منه ما يفتقون به في دنياهم وما يستخدمونه في مصالحهم مما هو معروف ، وليعلم ويزى من ينصر دينه بحمله في سبيله لجهاد أعدائه ، وينصر رسله وهو موقن بثواب ذلك ، مؤمناً به غيباً ، وقيل : ينصر رسله أي يؤمن بهم بالغيب ؛ ولا يكذبهم . وأخبر سبحانه أنه القوي في سلطانه ، العزيز في ملكه .. قال تعالى :

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » (٢٥) .

وفصلت الآية التالية ما أجمل في الآية قبلها ، حيث ذكر الله تعالى فيها أنه أرسل نوحاً وإبراهيم وجعل في نسلها النبوة ، فكل الأنبياء من ذريتهما . وكانت الكتب السماوية ينزلها الله على الرسل لتتلوها على الأمم . فكان منهم مهتدون على قلة ؛ وكثير منهم فاسقون ، أي خارجون عن أمر الله وطاعته . وكان آخر من أتبعه الله بالأنبياء عيسى بن مريم أنزل عليه كتابه الإنجيل ، وجعل في قلوب أتباعه الرحمة والرأفة ، وأخبر سبحانه أن أتباع عيسى ابتدعوا من عند أنفسهم رهبانية لم يفرضها الله عليهم ؛ وهي الانفراد في الجبال والانقطاع عن الناس في

« الميزان » العدل وأمر به الناس . « وأنزلنا الحديد » خلقناه أو هيأناه لكم . « بَأْسٌ شَدِيدٌ » قوة شديدة .

الصوامع للعبادة فشقوا بذلك على أنفسهم ، ولم يقيم البعض منهم بواجب ما افترضه على نفسه نحو هذه الرهبانية ، بل كفر بدين عيسى وتمادوا واتبع دين ملوكه والبعض الآخر ثبت على دين عيسى حتى أدرك النبي محمد ﷺ فأمن به ؛ وهؤلاء سوف يعطيهم الله الأجر كاملاً غير منقوص . قال تعالى :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ، وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ (٢٧) . »

وختم سبحانه السورة بتوجيه الخطاب لمؤمني أهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى أمراً بإيهم أن يتقوا الله وأن يصدقوا برسالة النبي ﷺ ووعدهم على ذلك بمضاعفة الأجر لإيمانهم برسلمهم وكتبهم وإيمانهم بالرسول محمد ﷺ والقرآن وبأن يجعل لهم نوراً يمشون به على الصراط أو هدى يتبصرون به من الضلالة وبغفران ذنوبهم وهو سبحانه الغفور لذنوب عباده الرحيم بهم .. قال تعالى :

« قَفَّيْنَا » أتبعنا . « الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ » على دينه الذي أرسل به . « رَأْفَةً وَرَحْمَةً » لينم وشفقة . « رَهْبَانِيَّةً » مقالة في التعبد . « مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ » ما فرضناها عليهم بل ابتدعوها . « فَمَا رَعَوْهَا » بل ضيعوها وكفروا بدين عيسى .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ ، يُؤْتِكُمْ
كَفْلَيْنِ (أي نصيبين) مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ
بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) » .

ومعنى قوله تعالى : « لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرُونَ على شيء من
فضل الله » أي ليعلم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا أنه لا أجر لهم ولا نصيب
كالأجر الذي تفضل الله به على المؤمنين .. والأجر والثواب وكل الخير بيد الله
يبه لمن يشاء من عباده ، وهو سبحانه صاحب الفضل والكرم الواسع ..
قال تعالى :

« لَّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ
اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ (٢٩) » .

تفسير سورة المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) » .

بدأ الله سبحانه هذه السورة بحكم من أحكام الدين هو الظهار ؛ بأن يقول الرجل لإمرأته : أنت علي كظهر أمي ، يريد تحريمها عليه ، وإنزالها منزلة الأم ، يشبهها بها في التحريم . وكان الظهار في الجاهلية يعتبر طلاقاً . وسبب نزول هذه الآية أن امرأة ظاهر منها زوجها فجاءت إلى رسول الله ﷺ تخبره بذلك وتحاوره . والمحاورة هي المراجعة في الكلام ، وكانت تقول في معرض كلامها : اللهم إني أشكو إليك انفرادي وفقري . فلم تبرح مكانها من رسول الله ﷺ حتى أنزل الله في الظهار حكماً أبطل به تقاليد الجاهلية ، وشرع الكفارة في الظهار مع بقاء المرأة على نكاحها ، وأخبر سبحانه أنه سميع لأقوال عباده بصير بأعمالهم . فيشرع لهم ما يصلحهم من الشرائع والأحكام .

ثم أخذ يفصل سبحانه في موضوع الظهار ، ويدم فاعله ويخطئه ويخبر أن

إنزال الزوجة منزلة الأم باطل فإن الأم في الحقيقة إنما هي الوالدة ويخبر أيضاً أن المظاهرين ليرتكبون بظهارهم أمراً منكراً وكذباً باطلاً ، ووعد سبحانه بالمغفرة لمن تاب عن ارتكاب هذا الإثم ؛ فهو سبحانه صاحب العفو العظيم والمغفرة .

ثم حددت الآيات التالية الكفارة الواجبة على المظاهر ، وهي على ثلاثة أنواع مرتبة :

فالأول تحرير رقبة .

والثاني صيام شهرين متتابعين .

والثالث إطعام ستين مسكيناً .

وهذه الكفارة يجب أن يبذلها المظاهر قبل أن يتصل بأهله اتصالاً جنسياً . وذلك معنى قوله تعالى : (ثم يعودون لما قالوا) قال الإمام أحمد : وهو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه ، فلا تحل له حق يكفّر . وهو أيضاً معنى قوله تعالى : (من قبل أن يتأسا) . والمسييس معناه الوطء ، فلا يحل للمظاهر وطء امرأته قبل أن يكفّر . وأخبر سبحانه أن هذا الحكم الذي شرعه في بذل الكفارة هو للزجر وعدم العودة إلى المظاهرة ، وهو سبحانه عليم بأحوال عباده ، خير بما يصلحهم . قال تعالى :

« الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ

(يظاهرون) يحرمون نساءهم تحريم أمهاتهم . (منكراً من القول) قولاً ينكره الشرع والعقل . (زوراً) كذباً منحرفاً عن الحق .

ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحَرِّرْ رَقَبَةً مِّن قَبْلِ أَن يَتَّسَا، ذَلِكُمْ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَّسَا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكِ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) .

أي شرع هذا للتصديق بأن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو من عند الله . وأن ما وصف من الكفارات في الظهار محارم الله فلا تنتهك ، ومن جحدتها وكذب بها فله في الآخرة عذاب أليم .

ثم أخبر سبحانه عن المحادين ، أي المخالفين لأمره المعاندين لرسوله ، قيل المراد بهم اليهود والمنافقون وأنهم (كتبوا) أهلكوا ولعنوا كما فعل ذلك بأمثالهم من قبل ممن كان على شاكلتهم ، وأخبر سبحانه أنه أنزل إلى رسوله آيات واضحة الدلالة توضح الفرائض والأحكام ، فمن جحدتها ولم يعمل بما دلت عليه فله في الآخرة عذاب مهين يذهب بكبريائه ، وسوف يُنزل به العذاب يوم يبعث الله الخلائق من قبورهم فيحاسبهم ويخبرهم بما عملوا من خير وشر إذ قد أحصى الله عليهم كل شيء وهم قد نسوا ما اقترفوه ، ولكن الله سبحانه بعلمه الواسع لا يغيب عنه شيء فهو شهيد لما تعمله العباد .. قال تعالى :

« إِنِّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنِّ »

(يتأسا) يستمتعا بالوقاع ، أو دواعيه . (يحادون) يعادون ويشاققون ويخالفون .
(كتبوا) أذلوا .

قَبْلِهِمْ ، وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥)
يَوْمَ يَنْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ،
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) .

ثم أكد سبحانه في الآية التالية ما سبق من إحاطة علمه بكل شيء في
السموات والأرض « حق ما يجري بين الناس خفية كالسارة التي تكون بين
ثلاثة يكون الله تعالى معهم فيها بعلمه ، وبين خمسة يكون الله فيها سادسهم ،
أو تكون بين أقل أو أكثر من هذا العدد فإن الله تعالى يكون بين جميع العباد
بعلمه ، فهو سبحانه مع علوه على عرشه قريب من عباده بعلمه حيث كانوا وفي
أي موضع انتقلوا . ثم يخبر العباد بما عملوه في الدنيا يوم القيامة إنه العليم بكل
شيء . قال تعالى :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .
مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ
سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا
ثُمَّ يَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) . »

ثم قص سبحانه في الآية التالية خبر اليهود والمنافقين وتناجيهم ونهي
الرسول لهم عن ذلك ، لأنهم كانوا يؤذون المؤمنين بنجواهم فلم ينتهوا ولم تكن
نجواهم إلا في الإثم والعدوان على غيرهم ، والتواصي بمعصية الرسول فيما بينهم ثم
هم إذا قدموا عليه بدعوه بتحية لم يحيي الله بها رسوله وهي أن يقولوا : السَّام

(أحصاه الله) أحاط به علماً . (نجوى ثلاثة) تناجيهم ومسارحتهم . (هو معهم) بعلمه
المحيط بكل شيء .

عليكم .. والسام هو الموت ! وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرد عليهم بقوله : وعليكم .. ! وقد غرهم حلم الله في عدم النعمة منهم فقالوا في أنفسهم : لو كان هذا نبياً ونحن نعامله هذه المعاملة لما جلتنا الله بالعقوبة . فرد الله عليهم بقوله : (حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير) أي يكفيهم ذلك عذاباً إذ يدخلونها فيصلون حرها ونارها وبئس هذا المصير الذي ينتهون إليه .. قال تعالى :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ وَيَتَنَبَّجُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَهُمْ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) » .

بعد ذلك أدب سبحانه المؤمنين ونهاهم أن يسلكوا مسلك اليهود والمنافقين في التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول بل تكون نجواهم بـ (البر) وهو يشمل كل أوجه البر وفي طليعتها الوصية بأداء الفرائض وطاعة الله وتقواه في السر والعلن ، والقول والفعل .. فهو سبحانه إليه مرد الخلائق وجمعهم يوم القيامة .. قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَبَّجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَبَّجُوا بِالْبِرِّ وَالْتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) » .

(لولا يعذبنا) هلا يعذبنا . (حسبهم جهنم) كافيتهم جهنم عذاباً . (يصلونها) يدخلونها أو يقاسون حرها .

ثم أخبر سبحانه أن تناجي اليهود والمنافقين بالإثم والعدوان إنما هو من تزيين الشيطان ليؤذوا بذلك المؤمنين وليحزنوهم وليس ذلك بالذي يضر المؤمنين شيئاً إلا بمشيئة الله تعالى وتقديره السابق . وأمر سبحانه بصدق الاعتماد عليه ، فليس يضر المؤمن مع التوكل على الله شيء . قال تعالى :

« إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) » .

ثم ذكر سبحانه أدباً آخر للمؤمنين ، وهو التوسعة في المجلس لمن يقدم عليهم ويريد مشاركتهم فيه .

قيل : كان الصحابة رضوان الله عليهم يتنافسون في مجلس رسول الله صلى عليه وسلم وكلهم يرغب في القرب منه فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض في المجلس ووعدهم على ذلك أن يفسح لهم في الجنة ، وقيل إن المجلس عام لا يختص بمجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، والإفساح في كل مجلس مطلوب إذ هو مظهر من مظاهر الألفة والتقدير . وأمرهم الله أيضاً بتلبية داعي الخير والنهوض إلى الصلاة أو إلى الجهاد إذا طلب ذلك منهم ، ففي ذلك رفع لدرجاتهم في الدنيا والآخرة . وأخبر سبحانه أنه يرفع درجات المؤمنين بطاعتهم لرسوله وتوسعتهم لإخوانهم في المجلس ، ويرفع درجات العلماء بفضل علمهم ، وفي ذلك ترغيب في طلب العلم وهو سبحانه خير بمن يستحق ذلك .. قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ

(ليحزن) ليوقع في الهم الشديد . (تفسحوا في المجالس) توسعوا فيها ولا تضاموا .

فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ؛ وَإِذَا قِيلَ اُنْشُرُوا فَاَنْشُرُوا - أَيُ :
ارْتَفِعُوا وَقُومُوا - « يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا
الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » (١١) .

وفي الآية التالية يأمر الله المؤمنين عند مناجاتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتقديم صدقة .. قال ابن عباس رضي الله عنهما : « إن الناس سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشقوا عليه ؛ فأراد الله أن يخفف على نبيه ، ويردعهم عن ذلك فأمرهم أن يقدموا صدقة على المناجاة مع الرسول صلى الله عليه وسلم » . وأخبر سبحانه أن تقديم الصدقة عند مناجاة الرسول خير للمؤمنين وطهرة وتزكية لهم ، ورخص سبحانه في إسقاطها عن الفقير الذي لا يجد ما يتصدق به ، ثم أسقطها عن الأغنياء أيضاً بقوله : (ءأشققتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات) الآية والمعنى : هل خفتم أيها الأغنياء الفقر من تقديم صدقة بين يدي مناجاتكم الرسول ؟ وحين لم تفعلوا ما أمرتم به خفف الله عنكم ورخص لكم في مناجاة الرسول دون تقديم شيء من الصدقة . ثم أمرهم بإقامة الصلاة المفروضة ، وإيتاء الزكاة المكتوبة ، وبذل الجهد في العمل بطاعة الله ورسوله فالله خير بكل ما يعمله العباد وسيجزيهم عليه . قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ
نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (١٢) ءأشققتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات

(انشروا) انهضوا إلى عمل خير . (ءأشققتم) أخفتم الفقر والميلة .

فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) .

وانتقلت الآيات بعد ذلك ينكر فيها الله سبحانه على المنافقين موالاتهم
لليهود الذين غضب الله عليهم ويذكر ذنبهم فهم ليسوا من المسلمين ولا من
اليهود ، إذا اجتمعوا بالمسلمين أكدوا لهم الأيمان على صدق إسلامهم وهم كاذبون ،
يعلمون ذلك في قرارة أنفسهم . وإذا اجتمعوا باليهود أطلعوهم على استمرار
المسلمين ، وتناولوهم بالذم ، من أجل ذلك هيأ الله لهم في الآخرة عذاباً شديداً ،
لأن أعمالهم هذه هي بحق من أسوأ الأعمال وأشنعها . قال تعالى :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ
وَلَا مِنْهُمْ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) » .

وأخبر سبحانه أن المنافقين كانوا يتخذون أيمانهم السكاذبة سترًا ووقاية لهم
من القتل يدفعون بها عن أنفسهم وأموالهم ، فصدوا بذلك المؤمنين عن جهادهم
- أي جهاد المشركين - وقتلهم وأخذ أموالهم ، وسوف يلقون جزاء ذلك
في الآخرة عذاباً مهيناً - وحينئذ لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم في رد عذاب
الله عنهم ، وسوف ينزلون جهنم يخلدون فيها . قال تعالى :

« اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ

(تولوا قوماً) اتخذوهم أولياء . (غضب الله عليهم) هم اليهود . (جنّة) وقاية لأنفسهم
وأموالهم .

مُهَيِّنٌ (١٦) لَّنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ،
أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) .

ثم أخبر سبحانه أن المنافقين سوف يسلكون يوم القيامة مع الله نفس المسلك الذي كانوا يسلكونه في الدنيا مع المؤمنين حيث يحلفون له كما كانوا يحلفون لهم أنهم كانوا صادقين في إيمانهم ويعتقدون أن حلفهم أمام الله سوف ينقذهم . وقد أكد الله تعالى كذبهم بقوله : (ألا إنهم هم الكاذبون) لم يكونوا على شيء من الحق ، وقد تملك الشيطان نفوسهم واستولى عليها وأشغلهم عن ذكر الله والعمل بطاعته ، فهم حزب الشيطان وجنده ، ونبه سبحانه أن جند الشيطان وحزبه هم الهالكون . قال تعالى :

« يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ، أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) . »

ثم أخبر سبحانه أن كل محاد لله ورسوله ، أي مشاق لها بجانب للهدى ، هم في عداد الأشقياء الذين يلحقهم الذل في الدنيا والآخرة . وقد كتب سبحانه في الأزل أن الغلبة والنصر له ولرسله على أعدائه ، فهو سبحانه (قوي) لا يغلب و (عزيز) يهب العزة لرسله وللمؤمنين . قال تعالى :

(لن تغني) لن تدفع . (استحوذ عليها) استولى وغلب على عقولهم .

« إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠)
كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) » .

وختم سبحانه السورة ببيان حقيقة الموالاته والبراءة المطلوبة من المؤمنين فقال
لرسوله إنك لن تجد مؤمناً يصدق ويوقن بربوبية الله وألوهيته ، وبيوم القيامة
يحب أعداء الله ورسوله ويواليهم ولو كانوا من أقرب الناس إليه كالآباء والأبناء
والإخوة وأهل الحي الذين ينتمي إليهم . إذ لا يجتمع في قلب مؤمن إيمان بالله
وحبة لمن عصى الله ورسوله ، ذلك لأن المؤمنين قد أثبت الله الإيمان في قلوبهم ؛
وكانه مكتوب ومنقوش عليها ثم وصفهم بأنه قوام ونصرهم على أعدائهم
في الدنيا . أما في الآخرة فلهم جنات تجري من تحتها الأنهار من ماء ولبن وخمر
وعسل يخلدون فيها ، لا يموتون ولا يخرجون منها ، وقد رضي عنهم لما قدموا من
الطاعات ، ولعدم موالاتهم لأعدائهم ، ورضوا عنه لمسا وهبهم من النعم المقيم في
دار الكرامة . ثم أشار إليهم مرة أخرى إشارة إعزاز وحبة وجعلهم حزباً
ونسب حزبهم إليه . أولئك قوم يحبهم الله فهم جنده وأهل طاعته وجند الله
وأهل طاعته هم الفائزون . قال تعالى :

« لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ

عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ
وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ (٢٢) .



تفسير سورة الحشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢) .»

أخبر سبحانه تعالى أن جميع ما في السموات والأرض من الكائنات فهو يسبحه ويمجده ويقدسه وأنه سبحانه العزيز في ملكه ، الحكيم في شرعه وقدره .

ثم ذكر سبحانه قصة يهود بني النضير وكانوا يسكنون حصوناً بمقرية من المدينة وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فأرادوا الغدر .. وأطلعه الله على ذلك ..! فخرج إليهم وحاصرهم في حصونهم ، وضيق عليهم الخناق ، ثم صالحوه صلى الله عليه وسلم وخرجوا من جواره . وذلك معنى قوله

«سبح لله» تزهه ومجده تعالى . «الذين كفروا» هم يهود بني النضير . «لأول الحشر» في أول إخراج وإجلاء إلى الشام . «لم يحتسبوا» لم يظنوا أو لم يخطر لهم ببال . «قذف» ألقى وأنزل إنزالاً شديداً .

تعالى (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر)
أي لأول مرة حشروا فيها وأخرجوا من المدينة ، والحشر الثاني إما أن يراد به
حشرهم إلى خيبر حيث أخرجهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من المدينة إلى
خيبر ، أو يراد به حشرهم يوم القيامة .

وقد امتن الله على المؤمنين بإخراج بني النضير من جوارهم بالمدينة ، وما
كان يدور بخلداهم أن يخرجوا لكثرة عدتهم ومنعة حصونهم ، وكان بنو النضير
أنفسهم يظنون أن حصونهم تقيهم وتحميهم بأس الله ونقمته ، ولكن الله تعالى
جاءهم بما لم يقع في حسابهم ، حيث ألقى الرعب في قلوبهم فاستسلموا وانصاعوا
لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث أمرهم بالجلاء فأخذوا يخربون بيوتهم ،
أي ينقضون منها الأخشاب والأعواد ليحملوها معهم وأخذ المؤمنون ما بقي
منها ويهدمون أسوار الحصون ليتسع لهم الدخول . ووجه الله سبحانه أنظار
ذوي البصائر من عباده لأخذ العبرة من هذا المصير ؛ فنقمة الله تعالى لاحقة بكل
عاص لله ورسوله . ثم أخبر سبحانه أن هذا الجلاء ، جلاء بني النضير عن
مواطنهم ، كان حتماً واقعاً فقد كتبه الله عليهم ولولاه لعذبهم في الدنيا بالقتل
والسبي ، كما فعل ببني قريظة ذلك مع ما أعده لهم في الآخرة من عذاب النار .
ثم بين سبحانه السبب في نقمته ببني النضير ، وهو المشاقة لله ورسوله أي معصية
الله ورسوله ، ومخالفة أمره ، والتكذيب بما أنزله من البشارة ببعثة الرسول محمد
صلى الله عليه وسلم مع أنهم يعلمون ذلك حق العلم وتلك عاقبة كل عاص لله ،
فالله سبحانه شديد العقاب يهمل ولا يهمل . قال تعالى :

« وَلَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ
فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ،

(الجلاء) الخروج من الوطن بالأهل والولد . (شاقوا) عصوا .

وَمَنْ يُشَاقَّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) .

ولقد كان من وسائل الإرهاب التي عمد إليها المؤمنون للتضييق على بني النضير قطع نخيلهم وأشجارهم ، فهون الله تعالى ذلك على المؤمنين وأخبرهم أن ما قطعوه من النخيل أو تركوه قائماً ولم يقطعوه ، كل ذلك قد أذن لهم فيه ، إذ في القطع نكاية وخزي للفاسقين ، والمراد بهم بنو النضير ، فقد خرجوا عن أمر الله ، ونكثوا عهد رسوله . قال تعالى :

« مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) » .

اللينية هي كرام النخل أو هي ألوان من التمر سوى المعجوة .

ثم أوضحت الآيتان التاليتان حكم الفيء ؛ وهو ما يؤخذ من مال الكفار من غير قتال ولا إجهاد في تحصيله .. قال تعالى :

« وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) » .

والمعنى في الآية الأولى : ما أعطى الله رسوله وصيره في قبضته من أموال بني النضير ؛ فهي خالصة له لا تقسم كما تقسم الغنائم على الجيش إذ لم يوجف أي لم

(لينية) نخلة أو نخلة كريمة . (على أصولها) على سوقها . (ما أفاء الله) ما رد وما أعاد من الأموال . (فما أوجفتم عليه) فما أجريتم على تحصيله . (ركاب) ما يركب من الإبل خاصة .

يمش المسلمون إلى تحصيلها بخيل ولا إبل ولم يجهدوا أنفسهم في كبير قتال ونضال . بل سلط الله رسوله على بني النضير كما يسلط رسوله على أعدائه وقد قذف الرعب في قلوبهم فاستسلموا .. ! فجعل الله أموالهم خاصة له ، يضعها حيث يشاء لأنه قدير على ما يشاء .. وقوله تعالى : (فما أوجفتم عليه من خيل) أي فما أسرعتم وأنتم ركوب عليه .. من الوجيف ، والركاب هي الإبل .

والمعنى في الآية التالية : ما أعطى الله رسوله وصيره في قبضته من أموال القرى الكافرة التي استسلمت من غير قتال ولا إحياف خيل ولا ركاب ، فهو فيء لا يقسم قسمة الغنيمة بل يجعل مصرفه ، كما في الآية ، لله والرسول ، ولذوي قرباه من مؤمني بني هاشم وبني المطلب ، ولليتامى الفقراء والمساكين والبؤساء ، ولابن السبيل وهو المنقطع عن بلده ، وعين سبجانه مصارف الفيء المذكورة لثلاث يبقى الفيء متداولاً بين الرؤساء والأغنياء والأمراء ، يقسمونه فيما بينهم كما كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية ، ولا يعملون منه شيئاً للفقراء .. وختم الله الآية بالحث على تقواه والخوف منه ، وذكرنا بأنه شديد العقاب لمن خالف أمره أو ارتكب ما نهى عنه :

« مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ، مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) » .

وقد خصص بعض المفسرين الآية في الفبيء ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أعطى منه المهاجرين ومنع منه الأنصار ، ولفظها عام في كل الأوامر والنواهي .

ثم أخبر سبحانه عن الفقراء المستحقين لمال الفبيء ، وأوضح أنهم هم المهاجرون إلى المدينة يبتغون رزقاً من الله يعوضهم عما تخلوا عنه في ديارهم ويرجون رضوان الله ونصر دينه ، وأثنى عليهم بقوله (أولئك هم الصادقون) أي هؤلاء هم الذين صدقت أقوالهم أفعالهم . قال تعالى :

« لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاًً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) » .

ثم أثنى سبحانه على الأنصار وهم الذين سكنوا دار الهجرة قبل المهاجرين وسبقوا غيرهم بالإيمان ، وذكر من كريم أخلاقهم أنهم يحبون من هاجر إليهم من المسلمين ، ويواسونهم ولا يجدون في صدورهم على المهاجرين غيظاً ولا حسداً لما فضلهم الله به من المنزلة أو لما أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم دونهم من أموال من بني النضير ويقدمون حاجة المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم حاجة شديدة إلى ما يثرونهم به - ثم أخبر سبحانه أن من يرتفع بنفسه عن مجالات الشح ويتقيه بالبذل في وجوه الخير كما فعل الأنصار فهو في عداد المفلحين . وشح النفس هو البخل والطمع . قال تعالى :

« وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ

(تبوءوا الدار) توطنوا المدينة . (حاجة) حزاة وحسداً .

عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ ،
فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) .

ثم أخبر سبحانه عن التابعين وهم الذين يحيثون بعبد المهاجرين والأنصار
ويتبعون سننهم ويسيروا على نهجهم ، أخبر أن أسنتهم تلج بالدعاء لسلفهم
من المهاجرين والأنصار مقروناً بدعائهم لأنفسهم يسألون الله تعالى غفران ذنوبهم ،
وأن لا يجعل في قلوبهم حقداً وبغضاً لمن سبقهم من المؤمنين وفي طليعتهم صحابة
رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال تعالى :

«وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا
الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا
رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠) .»

وانتقلت الآيات بعد ذلك .. يخبر الله تعالى فيها عن عبد الله بن أبي وشيعته
من المنافقين ، الذين أرسلوا لبني النضير يغرونهم بالثبات على قتال المسلمين ،
ويعدونهم بالنصر والمعونة ، وأنهم لن يسمعوا فيهم قول قائل ، ولن يطيعوا
من يأمرهم بخذلانهم وقد أكذبهم الله تعالى على كل هذه الوجوه بل ذكر أنهم
حتى لو قاتلوا معهم ونصروهم فلن يكون لهم النصر بل ستكتب عليهم الهزيمة
ويولون الأعداء .. قال تعالى :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَاقَتُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ

(خصاصة) فقر واحتياج . (من يوق) من يجنب ويكف . (شح نفسه) يخلها
مع الحرص .

فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ لَكُمْ
لَكَاذِبُونَ (١١) لَكِنَّ أُخْرَجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَكِنَّ قُوتِلُوا
لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَكِنَّ نَصَرُوهُمْ لِيُوَلُّوا أَلْدَبِرَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ (١٢) ..

ثم أخذ سبحانه يقوي عزيمة المسلمين في قتال خصومهم اليهود ، ويخبرهم أن
لهم في قلوبهم خوفاً أكثر من خوفهم من الله ، وذلك الخوف من المخلوق أكثر من
الخوف من الله باعثه أنهم لا يعلمون عظمة الله تعالى ، ولا يقدرونها حق قدرها ..
قال تعالى :

« لَا تَأْتِيكُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَا يَفْقَهُونَ (١٣) » .

ثم أخذ يقص سبحانه بعض ما جُبل عليه اليهود من خصال الذم فأخبر أنهم
جنباء لا يستطيعون منازلة المسلمين وجهاً لوجه ، بل يتهربون منهم ويلوذون
بالقرى والحصون يتحصنون بها وينحسرون وراء الجدر من الخوف والهلع ..
وأخبر أن العداوة مستحكمة بينهم ، يراهم الرائي مجتمعين فيظنهم مؤتلفين ، وهم في
الواقع مختلفة قلوبهم أشد الاختلاف .. وهذا ما يسبب لهم الوهن ، ولكنهم
لا يدركون ذلك .. قال تعالى :

« لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ

بِأَسْمِهِمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) .

ثم أخذ سبحانه يضرب المثل ليهود بني النضير في كفرهم وقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم وإجلالهم ، بيهود بني قينقاع الذين ذاقوا عاقبة كفرهم حيث قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجلهم عن جواره ، ولهم مع ذلك في الآخرة عذاب مؤلم في النار . قال تعالى :

« كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) » .

ثم ضرب للمنافقين مثلاً في تغديرهم بيهود بني النضير حيث وعدوهم بالنصر فلم يفعلوا : مثلهم الله بالشیطان حين يغوي ابن آدم ثم يتبرأ منه قائلاً : (إني أخاف الله رب العالمين) فكانت نهايتها : الشيطان والإنسان الكافر ، الخلود في النار ؛ وهذا جزاء كل ظالم لنفسه بالكفر معاند للحق .. قال تعالى :

« كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) » .

(بأسمهم بينهم) قتلهم فيما بينهم . (قلوبهم شتى) متفرقة لتعاديتهم . (وبال أمرهم) سوء عاقبة كفرهم .

بعد ذلك أخذ سبحانه يوجه المؤمنين للعمل بتقواه ومحاسبة النفس ، وأخذ الأهبة ليوم الحساب ، والنظر فيما قدمته كل نفس من عمل صالح ترجو ثوابه ، أو عمل قبيح تخاف عقابه . وكرر سبحانه الأمر بتقواه في آية واحدة في أولها وآخرها ليؤكد ضرورة الأخذ بالتقوى كوسيلة من وسائل النجاة ، وهو سبحانه الخبير بأعمال عباده . قال تعالى :

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)» .

وحذر سبحانه العباد أن يسلكوا مسلك المنحرفين عن سبيله الذين نسوا ذكر الله أو تركوا العمل بطاعته . فعاقبهم من جنس عملهم بأن أنساهم حظوظ أنفسهم التي تعود عليهم في الآخرة بالخير فلم يتقدموا بعمل صالح ، وهذا الصنف من الناس هم الخارجون عن أمر الله ، الماضون في معصيته .

«وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩)» .

ثم عقد سبحانه مقارنة بين أهل الجنة وأهل النار ، وأخبر أنهم لا يستوون إذ الفارق بينهم جدّ عظيم . فأهل الجنة بالنعيم المقيم فائزون ؛ وعلى العكس منهم أهل النار . قال تعالى :

«لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)» .

وانتقلت الآيات بعد ذلك يؤنب الله فيها ابن آدم على قسوة قلبه وعدم

خشوعه عند سماع القرآن مع أن الجبل الأصم لو أنزل عليه القرآن ، وكان له فهم وتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خشية الله وسماع كتابه ، فكيف بالبشر ؟ قال تعالى :

« لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) » .

(والأمثال) إشارة إلى هذا المثل وغيره من الأمثال التي ضربها الله في مواضع كثيرة من كتابه لغرض تدبرها والتفكير فيما تهدف إليه .

وبعد أن أوضح سبحانه عظمة القرآن ، أردف ذلك بذكر جملة من أسمائه الحسنى ونعوت جلاله .. فذكر أنه المنفرد بالألوهية ، فكل المعبودات دونـه باطلة ، وأنه يعلم ما غاب عن العباد وما شاهدوه .

وأنه صاحب الرحمة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو رحمن الدنيا والآخرة ، ورحيمها .

ثم كرر سبحانه إثبات الألوهية له ليعبد وحده دون سواه ، ووصف نفسه بأنه الملك أي المطلق التصرف في ملكه وخلقـه وأنه (القدوس) أي الطاهر المنزه عن كل عيب ونقص (السلام) الذي سلم من النقائص والعيوب (المؤمن) من الأمن الذي أمّن عباده من عذابه (المهيمن) أي الشاهد الرقيب على خلقه (العزيز) الذي غلب كل شيء وقهره لعظمته (الجبار) من الإجبار ، أي الذي جبر خلقه وقهرهم على ما يشاء (المتكبر) أي صاحب الكبرياء حقاً المتعاضم عن كل سوء . ثم ختم ذلك بتنزيه نفسه سبحانه عما لا يليق به من شرك المشركين وافتراءهم .

واستأنف سبحانه ذكر أسمائه . فقال : (هو الله الخالق) أي المقدر لجميع الأشياء (الباري) أي المنشئ لجميع الكائنات من العدم إلى الوجود (المصور) أي خالق الصور على الصفة والشكل الذي يريد . . وختم سبحانه السورة بقوله (له الأسماء الحسنى) أي الدالة على الصفات العُلا وأن كل من في السموات والأرض يسبِّح له وهو (العزيز) في ملكه (الحكيم) في تدبيره وشرعه وقدره .

« هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) » .

(الملك) المالك لكل شيء . (القدوس) البليغ في النزاهة عن النقائص . (السلام) ذو السلامة من كل عيب . (المؤمن) المصدق لرسله بالمعجزات . (المهيمن) الرقيب على كل شيء . (العزيز) القوي الغالب . (الجبار) القاهر أو العظيم . (المتكبر) البليغ الكبرياء والعظمة . (الباري) المبدع المخترع . (المصور) خالق الصور على ما يريد .

تفسير سورة الممتحنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ
تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ
الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا
فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ
بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ
السَّبِيلِ (١)».

سبب نزول هذه الآيات أن حاطب بن أبي بلتعة حين عزم رسول الله
صلى الله عليه وسلم على فتح مكة ، كتب حاطب إلى قريش ، يخبرها بخبر
الرسول . فأوحى الله إلى رسوله بما كان من أمر حاطب ؛ فبعث رسول
الله صلى الله عليه وسلم في طلب الكتاب وهو في الطريق ، ثم سأل
حاطباً عن صنيعه فاعتذر بأنه كان يريد بذلك يداً عند قريش لتحمي
قرايته لديهم .

وقد حذر الله سبحانه المؤمنين من موالاة أعدائه وأعداء دينه وجعلهم

(أولياء) أعواناً توادونهم وتتناصرونهم .

أنصاراً يوصلون إليهم أخبار الرسول بسبب المودة التي بينهم والصلات القديمة ،
صلات القرابة - لأنهم كفروا بما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من الحق
وهو القرآن والتوحيد وضيّقوا عليه وعلى أصحابه الخناق حتى حملوهم على
الهجرة وترك بلدهم ولم ينقموا عليهم إلا إيمانهم بالله وإخلاصهم العبادة له .

وقوله تعالى : (إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي) هذا
شرط جوابه متقدم وهو قوله تعالى : (لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء)
والتقدير (إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي - لا تتخذوا
عدوي وعدوكم أولياء) والمعنى إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيل الله تبتغون
رضوان الله فلا تتخذوا أعداء الله وأعداءكم أولياء تكتبون لهم بأخبار الرسول
ليأخذوا حذرهم وهو سبحانه المطلع على السرائر والضمائر ، يعلم ما يخفيه العباد
وما يظهره علانية ، فمن يوال المشركين ويطلعهم على أسرار المؤمنين فقد
أخطأ طريق الهدى .

وأخذ سبحانه في الآية التالية يحرك في نفوس المؤمنين عوامل البغض
للمشركين ، مخبراً أنهم أي المشركين - لو ظفروا بالمسلمين لعاملوهم أسوأ معاملة
تبدو فيها العداوة في أبشع صورة حيث يشبعونهم ضرباً ، ويستطيئون عليهم
بالقتل بأيديهم والسباب والشتائم بالسنتهم ، وبودهم لو رجع المسلمون عن دينهم
إلى الكفر . قال تعالى :

« إِن يَتَقَفُواكُم يَكُونُوا كَكُمْ أَعْدَاءٌ وَيَنسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
وَأَلْسِنَتُهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) » .

(يتقفوكم) يظفروا بكم أو يصادفوكم . (ينسطوا إليكم) يمدوا إليكم .

وأخبر سبحانه أن هذه القرابة التي بين أظهر المشركين والتي أفشيى من أجلها سر الرسول ، والأولاد لن يُغْنُوا عن أقربائهم الذين عصوا الله من أجلهم وسوف يفصل الله بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة ، ويحكم بينهم بعدله فيدخل المؤمنين الجنة ويعذب الكافرين في النار ، وهو سبحانه بصير بأعمال عباده .
قال تعالى :

« لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (٣) .

ثم وجه سبحانه عباده المؤمنين إلى أخذ القدوة من إبراهيم خليل الله ومن معه من المؤمنين حيث تبرءوا من قومهم المشركين ومن آلهتهم الباطلة التي يعبدونها من دون الله ، قائلين لهم (إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله) وكفروا بالآلهة وأعلنوا قولهم بالعداء قولاً واعتقاداً ما داموا مصرين على الكفر بالله . وقد استثنى سبحانه استغفار إبراهيم لأخيه وأخبر أن هذا الاستغفار من إبراهيم كان لوعده سبق من إبراهيم للاستغفار لأبيه فلا يصح الاقتداء به في هذا الاستغفار ؛ لأنه لا يجوز بحال أن يستغفر المؤمن للمشرك مهما كانت صلته به ، مع أن إبراهيم عندما ظهر له كفر أبيه بموته على الكفر ، تبرأ منه وانقطع عن الاستغفار له . وهذه البراءة لا يستقيم الدين بدونها ، إذ أن أوثق عرى الإيمان ، الحب في الله ، والبغض في الله ، وقد اتجه إبراهيم ومن معه من المؤمنين حينما تبرءوا من قومهم ، اتجهوا إلى الله قائلين : (ربنا عليك توكلنا) أي في جميع أمورنا فلا تكلنا إلى غيرك (وإليك أنبنا) رجعنا إليك بالتوبة من ذنوبنا إلى ما تحب من الطاعة (وإليك المصير) أي مرجعنا ومعادنا إليك في الآخرة .

(ربنا لا تجعلنا فتنه للذين كفروا) أي لا تسلط علينا الكفار فيفتنونا

عن ديننا (واغفر لنا ، ربنا إنك العزيز الحكيم) أي اغفر لنا ما تقدم من ذنوبنا فأنت الرب العزيز الذي لا يضام من لاذ به ، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره . وعاد سبحانه يؤكد ضرورة الأخذ بالقدوة بخليبه إبراهيم وبين معه من المؤمنين في البراءة من المشركين ويذكر أنه لا يأخذ نفسه بها إلا كل من يرجو ثواب الله ويخاف عقابه في الآخرة ، ومن يعرض عن الأخذ بها أو عن الإيمان فالله سبحانه هو الغني عن كل خلقه ، الحمد لأوليائه وأهل طاعته . قال تعالى :

« قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ، إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا ، رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) » .

(أسوة حسنة) قدوة حميدة . (براء منكم) أبراء منكم . (إليك أنبنا) إليك رجعنا
ثائبين . (فتنة) مفتونين معذبين .

(لا أملك لك من الله من شيء) أي : لا أملك دفع عذابه عنك .

ثم فتح الله باب الأمل أمام المؤمنين إذ وعد سبحانه بهداية أقاربهم الذين عادوهم في الله ، وقد يكون في عدايتهم مشقة عليهم ، وهو سبحانه قسادر على تحويل القلوب وهدايتها ، غفور لمن تاب وأناب إليه من عباده ، رحيم بهم . وقد كان ذلك بعد فتح مكة ، حيث دخل الناس في دين الله أفواجا ، فعادت المودة وانقلبت العداوة حبا في الله . قال تعالى :

« عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً »
- أي من أقاربكم - « وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) » .

بعد ذلك انتقلت الآيات تبين من تجب معاداتهم من المشركين ومن جاءت الرخصة في مواصلتهم والإحسان إليهم مع بقائهم على الكفر . فالذين لم تسبق منهم مقاتلة للمسلمين لعداء في الدين ، ولم يكرهوا المسلمين على الهجرة والخروج من ديارهم ، هؤلاء ليس من بأس في برهم والعدل فيهم بالإحسان والصلة . وأخبر سبحانه أنه يحب العادلين في أحكامهم وتصرفاتهم . أما الذين قاتلوا المسلمين على الدين ، وأكروههم على مفادرة وطنهم وتعاونوا على هذه المضارة والتضييق ، هؤلاء هم الذين تجب معاداتهم والبراءة منهم ، ومن يتولهم بعد هذا البيان ، فهو ظالم لنفسه عاصي لأمر ربه . قال تعالى :

« لَا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ

(تبرؤم) تحسنوا إليهم .

يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ
وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ
وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) .

وبعد ذلك انتقلت الآيات . . يذكر فيها حكم النساء المؤمنات
المهاجرات الفارات بدينهن من أزواجهن الكفار إلى المسلمين في دار
الهجرة ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قد كتب بينه وبين المشركين ، في
صلح الحديبية ، أنه من جاء من المشركين مسلماً رده إليهم . وكان هذا الشرط
بالنسبة للرجال نافذ المفعول . أما النساء فقد أمر الله المؤمنين بامتحانهن ،
وذلك أن يُسألن أنهنّ ما هاجرن إلا حباً لله ولرسوله ، ورغبة في الانضمام إلى
المسلمين . فإذا ظهر للمسلمين حقيقة إسلامهن ، فلا يرجعوهن إلى أزواجهن
الكفار لأن المؤمنة لا تحل للكافر ، وعلى الإمام أو على الزوج الذي يتزوج المرأة
المهاجرة أن يدفع الصداق الذي دفعه الزوج الكافر ، ذلك معنى قوله تعالى :
(وَأَتَوْهُمَا بِأَمْثَلِ الَّذِي أَتَوْهُمَا بِالْأَرْحَامِ وَالْبَنَاتِ وَالْأَزْوَاجِ) وبعد دفع الصداق ، لا حرج في الزواج بالمرأة المهاجرة ،
ثم نهى الله عن البقاء على نكاح المشركات فمن كانت له امرأة مشركة
أمر بمفارقتها . وأمر سبحانه بمطالبة المشركين بصداق الزوجات الفارات
إليهن كما رخص للمشركين بنفس المطالبة لو هاجرت امرأة إلى المسلمين ،
ثم أخبر سبحانه أن ما ذكره من الأحكام في هذه الآية هو حكم الله الذي

(تقسطوا إليهم) تقضوا إليهم بالقسط والعدل . (ظاهروا) عاونوا . (تولوهم)
تتخذوهم أولياء .

حكم به بين خلقه ، وهو علم بما يصلح عباده ، حكيم في تدبيره وأمره ونهيه
وشرعه . قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجِرَاتٍ
فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ » - أي لكم الظاهر أما باطن أمرهن
فالله وحده المطلع عليه - « فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ
إِلَى الْكُفَّارِ ، لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وَءَاثُوهُنَّ
مَّا أَنْفَقُوا ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ » - العِصَم جمع عصمة
أي نكاح ، والكوافر جمع كافرة - « وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا
مَّا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ، يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ (١٠) » .

وقد امتثل المؤمنون ما أمروا به من دفع صداق المرأة المسلمة
المهاجرة إلى زوجها الكافر ، ولكن المشركين لم يستجيبوا لهذا الحكم
فأمر الله المؤمنين أن يدفعوا صداق المرأة المرتدة المنحازة إلى المشركين
من الغنيمة لزوجها المسلم إذا قاتل المسلمون المشركين ، وأصابوا منهم
غنيمة ، وأمرهم أن يراقبوا الله ويتقوه ولا يتجاوزوا ما أمروا به .
قال تعالى :

(فامتحنوهن) فاختبروهن . (أجورهن) مهورهن . (بعصم الكوافر) بعقود
نكاح المشركات .

« وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَتَأْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا ، وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) » .

مصدقون بربوبيته وألوهيته وهيمنته عليكم .

وانتقلت الآيات بعد ذلك تذكر بيعة النساء وهي البيعة التي أمر الله رسوله أن يأخذها عليهن ، وكانت في ثاني يوم الفتح ، فتح مكة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايعهن بالكلام لا تمس يده امرأة ، وكانت البيعة على الأمور الآتية : (أن لا يشركن بالله شيئاً لا حجراً ولا شجراً ، ولا قبراً ولا غير ذلك من معبودات الجاهلية (ولا يسرقن) سواء كانت السرقة بمعناها الحقيقي أو كانت اختلاساً تختلسه المرأة من مال زوجها (ولا يزنین) لا يرتكبن جريمة الزنى (ولا يقتلن أولادهن) كما كانت الجاهلية تفعل ذلك خشية الفقر في الأولاد عامة ، أو خشية العار في البنات خاصة ، ويشمل القتل قتل الجنين كما تفعله بعض النساء حيث تسقط الحمل بأي وسيلة من الوسائل (ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن) أي لا تنسب المرأة لزوجها ولداً ليس منه ، وكانت المرأة في الجاهلية تلتقط الولد وتقول لزوجها كذباً : هذا ولدي منك . وإنما قال (يفترينه بين أيديهن) الآية ؛ لأن بطنها الذي تحمل فيه الولد بين يديها - ومسلكت خروج الولد بين رجليها (ولا يعصينك في معروف) أي لا يعصين رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يأمرهن به من أحكام الشريعة ، ومن مخالفة عادات الجاهلية ، النياحة على الأموات وضرب الحدود وشق الجيوب عند نزول المصائب . فإذا أقررت بذلك كله أمر الرسول أن يأخذ

(فعاقبتن) ففروتم ففتمتم منهم .

عليهن البيعة وأن يستغفر الله لهن ما فرط من الذنوب ، والله سبحانه يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب وأتاب كما جاء في الحديث : إن الإسلام يحب ما قبله ، أي يقطعه ويفصله ، قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بَبْهَتَيْنِ يَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْنِ وَأَرْجُلَيْنِ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) » .

ثم ختم سبحانه السورة بما بدأها من النهي عن موالاة الكفار عموماً ، وفي مقدمتهم اليهود . فقد غضب الله عليهم ، وهم أي اليهود ، على قول من يرى من المفسرين أن الآية خاصة بهم قد يئسوا من ثواب الآخرة ، كما يئس الكفار الذين ماتوا وصاروا في القبور من أن يكون لهم حظ وثواب في الآخرة . قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئْسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئْسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣) » .

(ببهتان) بالصاق اللطاء بالأزواج . (يفتريه) يخلفه . (لا تتولوا) لا تتخذوا أولياء . (قوماً) هم اليهود .

تفسير سورة الصف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرصُوصٍ (٤) .

استهل سبحانه هذه السورة كما استهل غيرها بالإخبار عن أن كل من في السموات والأرض يسبح له ، وأنه العزيز في ملكه ، الحكيم في تدبيره وشرعه وقدره . ثم عقب على ذلك بالإنكار على من يقول من المؤمنين قولاً لا يصدقه بالفعل ، وكرر الإنكار مخبراً عن مقتته لمن يقول قولاً ثم لا يفي به ، قيل إن المؤمنين تمنوا جهاد الأعداء قبل أن يفرض الجهاد . فلما فرض نكل عنه بعضهم وشق عليهم أمره فكان ذلك سبب لومهم وإنكار الله عليهم ، وأخبر سبحانه بعد هذا الإنكار أنه يحب من عباده أن يتجهوا صفوفاً مترابطة ملتصقة بعضها ببعض لقتل أعدائه .

بعد ذلك انتقلت الآيات يعزي الله فيها رسوله عن أذى قومه له ، ويذكر له خبر موسى مع قومه ، وإيذائهم له بصنوف من الأذى ، بما في ذلك

« سبَّحَ لِلَّهِ » نزهه ومجده تعالى . « كَبُرَ مَقْتًا » عظم بغضاً . « صَفًّا » صافين أنفسهم . « بنيان مرصوص » متلاصق محكم .

امتناعهم عن القتال معه ، واستنكر موسى سوء صنيعهم ، وقال : (يا قوم لم تؤذوني وقد تعلمون أنني رسول الله إليكم) أي ومن حق الرسول أن يكرم ؛ ثم حكى الله تعالى عاقبة أمرهم بقوله : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) أما لها عن الهدى واتباع الحق ، وأخبر أنه لن يهدي إلى الخير من سبق في علمه أنه فاسق . قال تعالى :

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَوذُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) » .

ثم عقب سبحانه بقصة عيسى مع بني إسرائيل ، وأبلغهم أنه مرسل من الله إليهم ، وأنه مصدق لما سبقه من كتب الله السماوية وخص منها التوراة ومبشراً أيضاً بنبوة رسول يأتي بعده اسمه أحمد ، فلما بعث أحمد الرسول ﷺ ، قابل الكفار هذه البعثة بالتكذيب ، وقالوا عن الحق الذي جاء به هذا سحر واضح قال تعالى :

« وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) » .

ثم شتّع سبحانه على الكفار الجاحدين لرسالة الرسول محمد ﷺ ، الذين يزعمون أن ما جاء به من الحق والقرآن ما هو إلا سحر ،

وأخبر أنه ليس أظلم ممن يزعم ذلك ؛ في حين أن الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الإسلام . وأخبر سبحانه أنه لا يوفق إلى الهداية من ظلم وجحد . قال تعالى :

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) » .

وأخبر سبحانه أن هؤلاء الظلمة كان بودهم القضاء على الإسلام ، وهيهات أن يتم لهم ذلك ، ومثلهم في المحاولة كمن يحاول أن يطفىء نور الشمس بقمحه ! وسوف ينصر الله دينه ويعلي كلمته ولو كره ذلك الكافرون ! فهو سبحانه الذي بعث رسوله محمداً بالدين الحق الذي ارتضاه لعباده ليعليه على سائر الأديان ولو كره ذلك المشركون . قال تعالى :

« يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) » .

وانتقلت الآيات التالية توجه العباد إلى أحب الأعمال إلى الله ، وقد كانوا يسألون عن ذلك ، فذكر لهم أن الإيمان بالله ورسوله ، والجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته ؛ جعله الله بمنزلة التجارة يربحون فيها رضا الله ونيل جنته وغفران الذنوب ، وذلك خير لهم من أية تجارة يربحون فيها ربحاً مادياً لا يلبث أن يزول . ثم وصف نعيمهم في الجنات فذكر أن لهم إقامة خالدة في جنات تجري

(نور الله) الحق الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

من تحتها الأنهار لهم فيها أطيب المساكن وأرفع الدرجات ، وذلك غاية الفوز لا فوز أعظم منه . وخصلة أخرى يحبها المؤمنون في حياتهم الدنيا قبل ثواب الآخرة وهي النصر على الأعداء ، والفتح العاجل إذا نازلهم ، ولهذا أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبشر المؤمنين بالنصر والفتح في الدنيا إلى جانب فوزهم في الآخرة بدخول الجنان . قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَرَّةٍ تُنَجِّيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ، نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) » .

وختم سبحانه السورة بحث المؤمنين على نصرته دين الله ومتابعة رسوله ؛ وضرب لهم المثل بالحواريين أتباع عيسى بن مريم حين استجابوا لنصرته لما طلب منهم النصر لتبليغ الدعوة إلى الله ، وقالوا له نحن ننصرك ونعينك ، وتابعوه قولاً وفعلاً إلى أن رفعه الله إليه ؛ فافتقرت فيه بنو إسرائيل إلى فرقتين فرقة آمنّت به وأنه عبد الله ورسوله ، وفرقة كفرت وجحدت نبوته ورمته وأمه بالعظائم وهي فرقة اليهود ، فأيد الله المؤمنين منهم على الكافرين وقوّاهم فغلبهم وأصبحوا منتصرين عليهم . وقيل إن ظهور المؤمنين منهم على الكافرين ؛ كان

ببعثة النبي ﷺ ، قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى
ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ ، مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ
نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَمَا مَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتَ طَائِفَةٌ
فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) » .

(الحواريين) أصفياء عيسى وخواصه . (ظاهرين) غالبين بالحجج والبيّنات .

تفسير سورة الجمعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ
الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو
عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا
مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) » .

بدأ سبحانه هذه السورة كغيرها من السور ؛ بالإخبار بأن ما في السموات والأرض يسبح له . وأنه المالك لأمر عباده المتصرف فيهم (القدوس) أي المنزه عن النقائص المتصف بصفات الكمال وأنه (العزيز) الذي تذل لعظمته عزة كل عظيم (الحكيم) في أمره وتدبيره وقدره وشرعه . ثم امتن سبحانه على الأميين وهم العرب ببعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، والمنة عامة على جميع العباد . ومع أنه كان أمياً كقومه ، إلا أنه كان يتلو عليهم آيات الله وهي القرآن ، ويطهرهم من الشرك وخبائث الجاهلية ؛ ويعلمهم القرآن ، وأحكامه ويعلمهم الحكمة ، وهي السنة لأنها تفسر القرآن ، ويفقههم في الدين وإمت كانوا

(يسبح لله) ينزهه ويمجده تعالى . (الملك) مالك الأشياء كلها . (القدوس) البليغ في النزاهة عن النقائص . (العزيز) القوي الغالب . (الأميين) العرب المعاصرين له صلى الله عليه وسلم . (يزكّيهم) يطهرهم من أدناس الجاهلية .

قبل بعثة الرسول ﷺ في عمارة وضلال واضح .

ثم أخبر سبحانه أن رسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، لم تكن خاصة بالعرب بل هناك آخرون من غير العرب ، قيل هم أهل فارس ، وقيل غيرهم من سائر المسلمين لم يلحقوا بالمؤمنين السابقين وسوف يلحقون بهم فدين الإسلام خالد إلى قيام الساعة . وأخبر سبحانه أنه العزيز الذي لا يغالب ، الحكيم في تدبير مصالح عباده ، وتهنئة ما يسعدهم في دينهم ودنياهم . قال تعالى :

«وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يُلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣)» .

وأشار سبحانه مرة ثانية إلى أن نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعثته ، كانتا فضلاً من الله عليه لاصطفائه للرسالة دون سائر البشر ؛ وفضلاً على العباد لهدايتهم ولثلا يلبشوا في حيرة وضلال . فهو سبحانه صاحب الفضل السابع على جميع العباد . قال تعالى :

«ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)» .

ثم ضرب سبحانه المثل لليهود في أخذهم التوراة ، وعدم العمل بها ، ضرب لهم المثل بالجمار . . أبداً خلق الله ! حيث يحمل فوق ظهره كتباً لا يلتفت بما فيها وبئس هذا المثل يضرب لهم . ونبه سبحانه إلى أنه لا يهدي إلى الحق إلا من سبق في علمه هدايته فرداً كان أو جماعة . قال تعالى :

(آخرين منهم) من العرب . (لما يلحقوا بهم) لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون .

« مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ
أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) » .

وانتقلت الآيات بعد ذلك تناقش اليهود في زعمهم أنهم أولياء الله دون غيرهم
كالرسول وصحبه تطالبهم بإبراز الدليل على ذلك ، وهو أن يدعوا على أنفسهم
بالموت ؛ إن كانوا صادقين فيما ادَّعوه لينتقلوا إلى الدار التي أعدها الله لأوليائه -
وأخبر سبحانه أنهم لن يفعلوا ذلك بسبب ما قدموه من الكفر وتكذيبهم
بالرسول ﷺ وتوعدهم بقوله (والله عليم بالظالمين) .

ثم أكد لهم أن الموت الذي يتهربون منه ، سوف ينزل بهم لا محالة وسوف
يرجعون إلى الله الذي يعلم غيب السموات والأرض فيخبرهم بكل ما صنعوه ؛
ويجازيهم على كل ما اقترفوه ، وذلك وعيد شديد لهم . قال تعالى :

« قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ
دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ
أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِن أَمُوتَ
الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَقِيكُمْ ، ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) » .

(حملوا التوراة) كلفوا العمل بما فيها . (يحمل أسفاراً) كتباً عظيمة ولا ينتفع بها .
(هادوا) تدينوا باليهودية .

ثم انتقلت الآيات تحت المؤمنين على صلاة الجمعة والسعي إلى سماع الخطبة والتذكير وترك البيع والشراء بعد الأذان الثاني للجمعة ، وأخبر سبحانه أن ذلك خير من التماذي في الاشتغال بأمور الدنيا ، وخير من التغافل عن الاستعداد للجمعة لمن كان يعرف ما هو أجدى عليه مما يصلح له . قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) » .

وبعد الفراغ من الجمعة ، رخص لهم في الانتشار في الأسواق وأمرهم بذكر الله والإكثار منه ، حتى مع الاشتغال بالبيع والشراء إذ في ذلك فلاح وصلاح لهم . قال تعالى :

« فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) » .

وختم سبحانه السورة بذكر حادثة وقعت من الصحابة أول الإسلام عاتبهم الله عليها بقوله :

« وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ،

(ذروا البيع) اتركوه وتفرغوا لذكر الله . (فانتشروا) تفرقوا للتصرف في حوائجكم .
(انفضوا إليها) تفرقوا عنك قاصدين إليها .

قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التَّجَرَّةِ وَاللَّهُ خَيْرُ
الرَّازِقِينَ (١١)».

والحادثة يرويها الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، قال : بينما
النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قائماً... إذ قدمت عير - أي قافلة - تحمل طعاماً
من دقيق وبر وزيت ، فابتدورها أصحاب النبي ﷺ حتى لم يبق منهم إلا
اثنا عشر رجلاً ، أنا فيهم وأبو بكر وعمر فأنزل الله تعالى : (وإذا رأوا تجارة
أو لهواً) وإلى آخر السورة . والمراد باللهو الطبل الذي كان يضرب إيداناً
بقدم القافلة . فأمر الله رسوله أن يبلغ المنصرفين عنه أن ما عند الله من الثواب
في الدار الآخرة ، هو خير من التجارة التي انصرفوا إليها ؛ وخير من الطبول التي
تقرع إيداناً بها ؛ والله سبحانه وتعالى موجد الأرزاق ومسبب الأسباب ، وهو
الكفيل بتيسير الرزق لمن توكل عليه ، وطلب الرزق في وقته منه .



تفسير سورة «المنافقون»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) » .

وأخبر سبحانه أن المنافقين يقولون ما لا يعتقدون . فإذا حضروا مجلس رسول الله ﷺ ، شهدوا له بالرسالة والله يعلم أن ما شهدوا به حق لا مرية فيه ، لأنه مرسله ، وهو سبحانه يشهد على المنافقين بكذبهم ، لأن قلوبهم لا تؤيد ألسنتهم فيما شهدوا وأقروا به .

وأخذ سبحانه يعدد قبائحهم ويفضح أمرهم ، ويذكر أنهم جعلوا أيمانهم وحلفهم الكاذب وقاية لهم عن القتل والسبي ، واغتر بهم من لا يعرف حقيقتهم ، فمنعوا الناس عن جهادهم أو عن الجهاد في سبيل الله وعن الإيمان بالرسول ﷺ ، بما يلقونه سرا من الشبه ووسائل التنفير ، فساء صنيعهم وقبحت فعالهم . قال تعالى :

« اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) » الأيمان مفردا يمين .

ثم أخبر سبحانه أن الباعث لهم على سوء ما يعملونه هو إظهارهم الإيمان

« جُنَّة » وقاية لأنفسهم وأموالهم .

بأسنتهم واستبطانهم الكفر فجازاهم الله بالطبيع على قلوبهم فلم يصل إليهما الهدى ، ولم يعودوا يفقهون الحق . قال تعالى :

« ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) » .

ثم وجه سبحانه الأنظار إلى بعض صفاته الخلقية ، مخاطباً الرسول ﷺ قائلاً : (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم) لحسن منظرها (وإن يقولوا تسمع لقولهم) أي يصغي السامع إليهم ، لفصاحة أسنتهم ، وبلاغة تعبيرهم . ولكنها أجساد بلا عقول يهتدون بها إلى الحق ، فهي كالخشب المسندة على الجدار . وذكر سبحانه من صفاتهم أنهم جبلوا على الجبن بحيث لو سمعوا صوت مناد ينشد ضالة أو يعرف لفظة ، لظنوا أنهم معنيون بهذا النداء .. أو أن الله أنزل في شأنهم شيئاً يهتك أستارهم .. ثم حذر الرسول ﷺ من معسول خطابهم ، ومما يخبئونه تحت ستار نفاقهم من الكيد للمسلمين ، فهم أعداء يجب الاحتراز منهم . قال تعالى :

« وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَانَتْهُمْ خَشَبٌ مُّسْنَدَةٌ ، يَخْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَادُوْنَ فَاحْذَرْهُمْ ، قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) » .

وفي قوله تعالى (قاتلهم الله أنى يؤفكون) دعاء عليهم يتضمن الذم

« فطبع » ختم . « لا يفقهون » لا يعرفون حقيقة الإيمان ، « خشب مسندة » أجسام بلا أحلام . « أنى يؤفكون » كيف يصرفون عن الحق .

إذ كيف يصرفون عن الحق مع وضوحه - (فيؤفكون) بمعنى يصرفون .

ثم ذكر لهم مذمة أخرى ، وهي عطف رؤوسهم إعراضاً عما يُدْعَوْنَ إليه من الاعتذار لرسول الله ﷺ واستكباراً عن استغفاره لهم مما بدر منهم من نفاق . ولذلك أخبر سبحانه أن الاستغفار لهم مثل عدمه . فهو سبحانه لن يتجاوز عن أعمالهم الخبيثة ، ولا يهدي من سبق في علمه أنه يموت على الفسق أي على الخروج عن طاعته . قال تعالى :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) » .

وأخبر سبحانه في الآية التالية عن تحريض عبد الله بن أبيّ قومه على عدم الإحسان إلى من انضم إلى رسول الله ﷺ من المسلمين ، وعدم الإنفاق عليهم ، حتى إذا ما عظمهم الجوع ، تركوا الرسول وانفضوا عنه ، فأرغم الله أنوف المنافقين وذكر لهم أن جميع ما في السموات والأرض له جل شأنه ، وأن بيده مفاتيح أرزاق العباد وأنه لا يعطى أحد شيئاً إلا بمشيئة الله وتسخيـره ، غير أن المنافقين لعدم يقينهم لا يدركون ذلك .

ثم ذكر سبحانه كلمة عبد الله بن أبيّ ، وقد تشاجر رجل من قومه مع آخر من المهاجرين ، وكانوا في غزوة بني المصطلق مع رسول الله ﷺ . فقال (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل

« لوَّوا رؤوسهم » عطفوها إعراضاً واستمراءً .

يعني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ وأصحابه ، ألا بنس ما قال وبس من قال . ويزعم أنه إذا عاد من الغزو فسوف يخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المدينة ، ولكن الله بين له والمنافقين لمن تكون العاقبة ولن تكون العزة : (الله) الغلبة والقوة (ولرسوله) بإعلاء شأنه وإظهار دينه (وللمؤمنين) بنصر الله لهم على أعدائهم (ولكن المنافقين) أمثاله (لا يعلمون) ذلك .. قال تعالى :

« هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ۚ وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعزُّ مِنْهَا الأَذَلَ ۚ وَاللَّهُ الْعَزَّ وَالأَكْبَرُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) » .

وختم سبحانه سورة بتوجيه العباد إلى أمرين يتم لهم بهما السعادة :

الأمر الأول : عدم الانصراف إلى جمع الأموال والشح بها في أوجه الخير ؛ والاستغال بالأولاد والفرح بهم لدرجة تصرف عن ذكر الله وعبادته . وفي مقدمة ذلك الصلوات الخمس المكتوبة ؛ ومن ينصرف إلى ذلك ، فقد خسر تجارتَه ، لأنه قدّم دنياء على ما يصلح آخرته .

الأمر الثاني : الحظ على الإنفاق في سبيل الله مما خول الله العباد فيه وفي طليعة ذلك إخراج الزكاة . ومن لم يفعل ذلك فسوف يندم ويتمنى

« حتى ينفضوا » كي يتفرقوا عنه صلى الله عليه وسلم . « الأعز » الأشد والأقوى ويعنون أنفسهم . « الأذل » الأضعف والأهون ويعنون المؤمنين . « والله العزة » الغلبة والقهر .

الرجعة وقت الاحتضار وطول الأجل ليستدرك ما فاتته ، ولن يؤخر الله
أجل نفس إذا حان وقته . وهو سبحانه خير بأعمال خلقه ؛ خيرها وشرها .
قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ
عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩)
وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ
فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ
الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ
خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) » .

تفسير سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (٢) .

أخبر سبحانه أن كل ما في السموات وكل ما في الأرض من كائن يسبح له ، وأنه صاحب السلطان المتصرف في كل الكائنات ، المحمود على كل حال من السراء والضراء ؛ وعلى كل ما يخلقه ويقدره ؛ وهو القادر على كل شيء .. فلا يعجزه شيء .

ثم أخبر سبحانه أنه خلق العباد ، منهم المؤمن ومنهم الكافر . وبما أنه قد أراد ذلك لحكمة يعلمها ، فلا مناص من وجود المؤمن والكافر في الخلق . وهو سبحانه (بصير) بأعمال العباد ، وبمن يستحق الهداية ومن يستحق الضلال .

ثم أخبر سبحانه أنه خلق السموات والأرض ، وأقامها بعدله وجعل بني آدم في أحسن شكل ، وأبهى صورة ، ثم يكون مرجع العباد إليه في الآخرة وأخبر أيضاً عن سعة علمه وإحاطته بكل ما يجري وما يكون في السموات والأرض ، وبما يكنه العباد في نفوسهم وما يبدونه علانية ، فهو العليم بدخائل الصدور . قال تعالى :

« يسبح لله » ينزهه ويمجده تعالى . « له الملك » التصرف المطلق في كل شيء .

« خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ
مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) » .

ثم انتقلت الآيات يوجه الله فيها الخطاب لكفار مكة ، والخطاب يعم كل
كافر ؛ يخبرهم فيها بما نزل على الأمم الكافرة المكذبة قبلهم من العذاب بسبب
تكذيبهم واستبعادهم أن تكون الرسالة في البشر ، وأن تكون هدايتهم إلى
الحق على يد بشر مثلهم (فإذا قمهم الله وبال أمرهم) أي عقوبته في الدنيا (ولهم
عذاب أليم) في الآخرة فقد جاءتهم آياته البينات حججاً وبراهين ومعجزات
فكذبوا بالرسول وأعرضوا عما جاءوا به من الإيمان والعمل واستغنى الله عن
إيمانهم وهو الغني عن خلقه المحمود في فعله . قال تعالى :

« أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ
أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ، وَأَسْتَغْنَى
اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) »

ثم انتقلت الآيات في الرد على زعم الكفار والملحدين والمكذبين بالبعث
بقولهم إنهم (لن يبعثوا) أي لن يخرجوا من قبورهم أحياء بعد الموت فامر
رسوله ﷺ أن يقسم لهم على ذلك وهو المعروف بالصدق عندهم ، وأمره أن

« فأحسن صوركم » أتقنها وأحكماها . « وبال أمرهم » سوء عاقبة كفرهم . « تولوا » أعرضوا
عن الإيمان بالرسول .

يؤكد لهم ويزيدهم أنهم سينبئون بما عملوا وليس أيسر من ذلك عند الله .
قال تعالى :

« زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ
ثُمَّ لَتُنَبَّيْنَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) » .

ثم أمر العباد سبحانه بالتصديق بربوبيته وألوهيته . والتصديق برسالة
رسوله ، بالقرآن الذي أنزله الله عليه وعبر عنه بأنه (النور) وأخبر عنه
أنه لا تخفى عليه خافية من أمور عباده . وذلك ما يحفز إلى صدق الإيمان ..
قال تعالى :

« فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنَّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) » .

وبعد أن وجه سبحانه الأنظار للبعث ، ذكر العباد باليوم الذي يقع
فيه الجزاء والحساب . وهو يوم القيامة .. سماه في هذه الآية (يوم الجمع)
لأنه سبحانه يجمع فيه الأولين والآخرين وهو أيضاً يوم التغابن ، من الغيب .
ذلك لأن أهل الجنة يغفنون أهل النار بأخذ منازلهم وأهلهم فيها ، ولو
آمنوا لظفروا بالنعيم بدل الجحيم . ثم أوضح هذا التغابن . حيث شرح
حال المؤمنين في الآخرة ، وهم الذين آمنوا بالله وعملوا الأعمال الصالحة
التي يكفر الله بها عنهم السيئات وينزلهم في الجنة منازل تجري من تحتها الأنهار
يعيشون فيها مخلدين إلى الأبد .. لا يتحولون عنها ولا يخرجون منها وليس
أعظم فوزاً من هذا النعيم وعلى عكسهم الكفار المكذبون بآيات الله ورسوله .

ينزلهم الله النار يعيشون فيها مخلدين . وبثست النار من مصير . قال تعالى :

« يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) » .

ثم أخبر سبحانه عن قدره النافذ فأكد أنه لا يصيب أحداً من خلقه إلا بإرادته ، وأن من يصدق من عباده بذلك يوفقه لليقين . فيرضى ويسلم ، ويحتسب الأجر عند الله وهو سبحانه عليم بكل ما يجري في الكون من أقداره .. قال تعالى :

« مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) » .

وعاد سبحانه يؤكد الأمر بطاعته وطاعة رسوله ، في كل ما يأمر به أو ينهي عنه ، ويخبر أن من يعرض عن طاعتها فليس على الرسول في ذلك شيء ، فقد أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، وهذه مهمته .

(ليوم الجمع) ليوم القيامة حيث تجتمع الخلائق للحساب . (يوم التغابن) يظهر فيه غيب الكافر بتركه الإيمان وغيب المؤمن بتقصيره في الإحسان . (بإذن الله) بإرادته وقضائه .

ثم أخبر سبحانه عن كمال ألوهيته ، وأنه لا يستحق العبادة غيره ، ومن العبادة صدق التوكل عليه ، وتعلق القلب به ، فأمر عباده المؤمنين بالاتجاه إليه ، والاعتماد عليه ، في كل شأن من شؤونهم . قال تعالى :

« وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ
رُسُلِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ (١٣) » .

ثم حذر سبحانه من طاعة الأزواج والأولاد وأخبر أن منهم أعداء بمعنى أن المرء يشتغل بهم عن العمل الصالح وقد يورطونه في الإثم ، والمرء بغريزته منساق إلى رغبتهم . ولذلك حذر من الاستجابة لهم فيما يضر بالمصلحة الدينية . ولكنه مع ذلك رغب في العفو والصفح عنهم ، وعدم معاقبتهم على ما قد يتسببون فيه من الصد عن الخير .

ثم نوه سبحانه عن غريزة حب المال والولد ، وأنها فتنة أي بلاء واختبار ، يشغلان عن الآخرة ، وأن ما عند الله في الآخرة من النعم المقيم والثواب العظيم ، هو خير من محبة المال والولد ، فيجب أن لا يشتغل بها المباد ، لدرجة تفوت عليهم ذلك النعم المقيم ، والخير العظيم . قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ
لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ . وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) .

وختم سبحانه السورة بجملة توجيهات لعباده تجتمع فيها السعادة بخداها .

أولها : الأمر بتقوى الله على قدر الاستطاعة ، وقد أوضح ذلك رسوله ﷺ بقوله : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

وثانيها : السمع والطاعة لأوامر الله ورسوله .

وثالثها : الأمر بالإنفاق في وجوه الخير ، لأن الإنفاق خير للمنفق من الإمساك وأكد ذلك بما ختم به الآية من أن الذي يباعد بينه الله وبين شح النفس ويخلصها فقد أصبح في عداد الفائزين . قال تعالى :

« فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرَ مَا أَنْفَقْتُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) » .

ومرة ثانية ، عاد سبحانه يرغّب في الإنفاق في سبيله ، ويعد عليه بمضاعفة الأجر ، ونزله منزلة القرض ، ووعد عليه أيضاً بغفران الذنوب . وهو سبحانه الشكور الذي يجزي على القليل بالكثير . الحليم الذي لا يعجل بعقوبة المذنب . يعلم ما غاب وخفي من سرائر القلوب ؛ وما ظهر ووضح من

(فتنه) بلاء ومحنة واختبار . (يوق شح نفسه) يكفّ بخلها مع حرصها .

أعمال العباد - وهو العزيز في ملكه ، الحكيم في تدبيره وشرعه وقدره .
قال تعالى :

« إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ (١٨) » .

تفسير سورة الطلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ،
وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ
وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ،
وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِثُ
بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) » .

استهل سبحانه السورة بحكم من الأحكام المتعلقة بالحياة الزوجية ، ووجه
الخطاب في ذلك للرسول ﷺ ، وهو عام للأمة ، فأمر سبحانه الرجل إذا
أراد تطليق زوجته ، أن يطلقها في طهر لم يقربها فيه ، لتبدأ منه العدة . وذلك
معنى قوله تعالى (لعدتهن) أي مستقبلات لعدتهن وأمر بإحصاء العدة أي معرفة
ابتدائها وانتهائها ، لتحل بعدها المرأة للأزواج .

وأمر بتقواه سبحانه ، بعدم إخراج المعتدة من بيت سكنها . وهي

(فطلقوهن لعدتهن) مستقبلات لعدتهن . (احصوا العدة) اضبطوها وأكملوها .
(بفاحشة مبينة) بمعصية ظاهرة « الخروج في العدة » .

أيضاً لا يجوز لها أن تخرج ما دامت في عدة الزواج إلا إن أتت بفاحشة مبينة ، وهي الزنا . أو سوء أخلاقها بحيث تؤذي أهل الزوج بلسانها أو فعائها . وأخبر سبحانه أن ما ذكره من هذه الأحكام ، هي حدود حدّها الله لعباده ، لا يجوز تجاوزها ، ومن يجرى على تجاوز حدود الله فقد جنى على نفسه . ثم أوضح سبحانه العلة في استبقاء المعتدة في بيت سكنها . فقال : (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) أي بعد الطلاق قد يتغير رأي الرجل ، ويحدث الله في قلبه رغبة لمراجعته . فتكون المراجعة وهي في بيته أيسر . ومن هذه الآيات أخذ الأئمة أن السكنى لا تحب للمطلقة المبتوتة ، وإنما هي للمطلقة الرجعية .

ثم أوضح سبحانه ما يجب أن يفعله المطلق إذا قاربت المعتدة نهاية العدة فأمره أن يراجعها ويعاشرها بالمعروف ، أو يتركها حتى تكل عدتها ، ويتم بذلك فراقها . وأمر بالإرشاد على كل من الرجعة والطلاق ، وبأن يقتصر الإشهاد على شاهدي عدل من المسلمين . وأمر الشهود بأداء الشهادة على وجهها دون ميل أو غرض ، تقريباً بها إلى الله .

ثم أشار سبحانه إلى ما تقدم من الأحكام بقوله (ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) أي إنما يأتى بهذه الأحكام ويستجيب لأمر الله فيها المؤمن المصدق بأنها شرع من عند الله المصدق بيوم الجزاء .

ثم رغب سبحانه في تقواه ، فقال (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) أي من يخش الله في كل أقواله وأفعاله ، بما فيها اتباع الأحكام التي أنزلها الله في الطلاق والرجعة والإشهاد ، يهيء له مخرجاً من كل ضيق ، ورزقاً من جهة لا تخطر له على بال . كما رغب سبحانه في الاعتماد عليه بقوله : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أي من يعتمد على الله في كل أموره يكفه ما أمه ف (حسبه) أي كافيه .

ثم وجه العباد أيضاً إلى التسليم بقضائه قائلاً : (إن الله بالغ أمره) أي

منفذ قضاءه على ما يريد وأنه سبحانه قد جعل لكل من الشدة والرخاء أجلاً ينتهي إليه . قال تعالى :

« فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) . »

وانتقلت الآيات بعد ذلك إلى عدة المرأة الآيسة ، وهي التي انقطع عنها الحيض لكبر سنها وعدة الصغيرة التي لم تبلغ سن الحيض ، والمرأة الحامل سواء كانت مطلقة أو مات زوجها . أما المرأة الآيسة فعدتها ثلاثة أشهر (إن ارتبتم) أي إن شككتم ومثلها الصغيرة التي لم تحض ، وأما الحامل فعدتها بوضع الحمل . وحث عباده بعد ذلك على تقواه فيما شرعه لهم ووعدهم على ذلك بتسهيل أمورهم كلها وتيسيرها عليهم . قال تعالى :

« وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ، وَاللَّائِي لَمْ يَحِيضْنَ ؛ وَإُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) . »

(فهو حسبه) فهو كافيه . (قدراً) أجلاً ينتهي إليه أو تقديراً . (يئسن) انقطع رجائهن . (ارتبتم) جهلتم مقدار عدتهن . (يسراً) تيسيراً وفرجاً .

ثم عظم من شأن هذه الأحكام ونسبها إلى نفسه وذكر أنه أنزلها إلينا وذلك معروف بالضرورة ثم عاد إلى تذكيرنا بالتقوى وبالمثوبة عليها بتكفير السيئات وإعظام الأجر . قال تعالى :

« ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ، وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) » .

وانتقلت الآيات لبيان ما يجب للمعتدات من السكن والنفقة على الأزواج ، فأمر بإسكانهن حيث يسكن ذوو الشأن في ذلك كل بقدر طاقته وبقدر سعته فقير أو غنياً مع ملاحظة التقوى وبذلك لا يضاررن ولا يؤذين بأي نوع من الأذى ليخرجن من السكن الذي أعدّ لهن . ثم بيّن حكم هؤلاء النساء إن كن حاملات فذكر أن لهن النفقة والسكنى إن كان الطلاق مبتوتاً حتى يضعن الحمل . أما إذا كان الطلاق رجعيّاً فإن المطلقة تستحق النفقة ، وإن لم تكن حاملاً . وبعد الولادة لا شأن للأم بالإرضاع ، فإن رغبت أن ترضع الولد استحقت على ذلك أجر مرضعة . وأمر سبحانه الآباء وأزواج المطلقات بالتشاور في موضوع الأجرة ، والتراضي عليها ، والتسامح في طلبها من الأم ، وعدم الشح في دفعها من الأب ، فإن اشتطت الأم في طلب الأجرة ، وطلبت أجراً زائداً ، وامتنعت عن الإرضاع ، أو شحّ الأب بدفع الأجرة ، فليس للأب إكراهها بل يستأجر مرضعة أخرى ، ولينفق الآباء على أولادهم بقدر سعة رزقهم . فصاحب الغنى ينفق على قدر غناه . ومن ضيق عليه في الرزق فلينفق بما أعطاه الله . والله لا يكلف بذل النفقة على الأولاد إلا بقدر المال والرزق الذي جعله للولد ، وسوف يجعل الله بعد العسر والشدة غنى وسعة في الرزق . قال تعالى :

« أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُمْ لِنَصِيقِهِمْ عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنْ أَوْلَتْ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَسَاتُوهُنَّ أُجُورُهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ، وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ . وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ؛ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) » .

وانتقلت الآيات بعد ذلك من أحكام الطلاق وما يتعلق به إلى الإخبار عن عاقبة الطغيان والتجبر ؛ وأنه عندما حدث من بعض الأمم السابقة وتمردت وعصت أوامر الله ، ولم تستجب لرسله ؛ حاسبها الله بعملها في الدنيا حساباً شديداً ، وذلك بأن استقصى كل أعمالها ، وعاقبها عليها في الآخرة بالعذاب المنكر الفظيع ؛ فنالت بالعذاب جزاء عتوها وتمردها وكانت عاقبة الطغيان الخسارة والهلاك . قال تعالى :

« وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ - أَي كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ - « عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ، فَجَاسَتْ بِهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً شَدِيداً (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) » .

(وَجْدِكُمْ) وسمكم وطاقتم . (وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ) تشاوروا في الأجرة والإرضاع . (تَعَاسَرْتُمْ) تشاحتمت فيهما . (ذُو سَعَةٍ) غنى وطاقه . (قُدِرَ عَلَيْهِ) ضيق عليه . (كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ) كثير من أهل قرية . (عَتَتْ) تجبرت وتكبرت وأعرضت . (عَذَاباً شَدِيداً) منكرأ شنيعاً . (وَبَالَ أَمْرِهَا) سوء عاقبة عتوها . (خُسْرًا) خسرانا وملاكاً .

ثم عاد الله إلى إجمال ما فصله ليأمر عباده ذوي العقول باتقائه للمرة السادسة وبدأ ذلك بذكر ما هبأه من العذاب لمن خالف أوامره .

ثم كرر سبحانه الأمر لعباده المؤمنين في الأخذ بتقوى الله وخاطبهم بقوله (يا أولي الألباب) أي يا أصحاب العقول السليمة وأبلغهم أنه قد أنزل إليهم ذكراً هو القرآن ، وأرسل إليهم رسولاً يقرأ عليهم موضحاً ما فيه من الحلال والحرام والأحكام يخرج به من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان كل من كتب الله له الهداية فأمن بالله وعمل أعمالاً صالحة ترضيه .

ثم رغب سبحانه في الإيمان والعمل الصالح ، ووعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات دخول جنات وصفها بأن الأنهار تجري من تحتها ، وهم فيها مخلدون أبداً ، لا يموتون ولا يهرمون ، وقد وسع لهم فيها الرزق فهم في نعم لا ينفد ومتعة لا تزول . قال تعالى :

« أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً . فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ، قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً (١٠) رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً (١١) » .

« ذكرأ » قرأنا . « رسولاً » محمداً صلى الله عليه وسلم أرسله الله رسولاً .

وختم سبحانه السورة بتوجيه الأنظار إلى عظيم قدرته حيث أوضح أنه خلق السموات سبعا ، وخلق الأرض مثل ذلك ؛ وأنه ينزل الوحي وما يريد من عجيب تدبيره ، وما يمضيه من قضائه وقدره بين السموات والأرض ، وفي ذلك إثبات صفات العلو لله جل جلاله كما فيه دليل واضح على عظم قدرته ليعلم العباد أن من قدر على هذا الخلق العظيم فهو قادر على كل شيء أراد لا يعجزه شيء لأنه محيط بكل شيء .. قال تعالى :

« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢) » .

تفسير سورة التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ، تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢)» .

قيل في سبب نزول هذه الآية ، كما ثبت في صحيح مسلم ، أن رسول الله ﷺ كان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه ، وكان يمكث عند زينب ويشرب عندها عسلا - فتواطأت حفصة وعائشة على أن تقولاً له إذا دخل عليهما إني أجد ربح مغافير - والمغافير : بقلة أو صمغة متغيرة الرائحة . فدخل على حفصة ، فقالت له ذلك . فقال لها شربت عسلا عند زينب ، ولن أعود . وحرّم على نفسه شرب العسل ، واستكتمها ذلك . ثم أخبرت حفصة عائشة بما كان ، فأنزل الله هذه الآية - وقيل في سبب النزول غير ذلك .

وفي الآية عتاب للنبي ﷺ في تحريمه ما أحل له يريد بذلك رضا زوجاته ، ولم يؤاخذ الله على ذلك ، بل غفر له وهو سبحانه الغفور الرحيم لجميع عباده . ومن رحمته بهم شرع لهم الكفارة في الأيمان ليحل بها المرء عما كان قد عقد النية عليه من فعل شيء أو تركه . وهو سبحانه المولى الذي يتولى أمور عباده ، العليم

« ما أحل الله لك » شرب العسل . « تبْتَغِي » تطلب . « تحلة أيمانكم » تحليلها بالكفارة . « الله مولاكم » ناصركم ومتولي أموركم .

بما يصلحهم ، الحكيم في كل ما يشرعه لهم من الأحكام .

ثم أخذت الآيات تفصل القصة ، فذكر سبحانه أن رسول الله ﷺ أسر إلى إحدى زوجاته حديثاً ، وهو في قوله لها : « شربت عسلاً عند زينب ولن أعود فلا تخبري بذلك أحداً » ولم تكتم الزوجة هذا الحديث بل أخبرت زوجها أخرى ظناً منها أن ليس في ذلك حرج ، وقد اختلف المفسرون في هذا الحديث وفي تحديده وتعيينه ، ولا جناح في عدم الجزم به ، ولا في عدم تعيينه ، وقد أطلع الله رسوله (وأظهره) على ما كان من أمر زوجته وإفشاءها للحديث الذي استكتمها إياه . فعاتبها وأخبرها ببعض ما أخبرت به ، وترك إخبارها عن البعض الآخر ، فسألته عن الخبر له بذلك . قال : أخبرني ربي العليم ببواطن الأمور ، الخبير بخفايا الصدور . قال تعالى :

« وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا . فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ ؛ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ؛ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ ، قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا : قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) . »

ثم وجه سبحانه الخطاب لزوجي الرسول ﷺ المتواطئين عليه - حفصة وعائشة - رضي الله عنهما ، وجه لهما الخطاب حائلاً إياهما على التوبة مما كان منهما ، لميل قلوبهما عن الصواب وصدور ما يستوجب التوبة . وهو معنى قوله تعالى (فقد صغت قلوبكما) أي مالت عن الحق أما إن (تظاهرا) وأصلها تتظاهرا أي تستمرا في توأمتكما وتعاونكما على ما يسوء رسول الله ﷺ ؛ فلن يضره ذلك - فالله سبحانه (مولاه) أي وليه وناصره ، وكذلك جبريل

« نَبَّأَتْ بِهِ » أخبرته به . « أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ » أطلعه الله تعالى عليه .

وصالح المؤمنين هم أولياؤه وكذلك الملائكة بعد نصر الله وجبريل وصالح المؤمنين أولياء له ينصرونه فـ (ظهير) بمعنى معين . والمراد بصالح المؤمنين من سلموا من النفاق وأخلصوا النية والعمل . قال تعالى :

« إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ » (٤) .

وأخبر سبحانه أن النبي ﷺ لو بدله أن يطلق زوجاته لأبدله الله بزوجات خير منهن وصفهن بقوله (مسلمات) خاضعات لله بالطاعة (مؤمنات) مصدقات بتوحيد الله (قانتات) طائعات مصليات (ثابتات) تاركات للذنوب مكثرات للتوبة (عابدات) كثيرات العبادة (سائحات) أي صائمات أو مهاجرات (ثيبات وأبكاراً) أي منهن الثيب وهي التي قد تزوجت ، وفيهن البكر . قال الله تعالى :

« عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكُمْ مَّسْلُمَاتٍ مَّوْمِنَاتٍ ، قَانِتَاتٍ ، تَابِعَاتٍ ، عَابِدَاتٍ ، سَائِحَاتٍ ، تَتَذَكَّرْنَ » (٥) .

« صغت قلوبكما » مالت عن حقه صلى الله عليه وسلم عايكما . « نظاهرا عليه » تعاونا عليه بما يسوءه . « هو مولا » وليه وناصره . « ظهير » فوج معين له . « قانتات » مطيعات خاضعات لله . « سائحات » مهاجرات أو صائمات .

ثم وجه سبحانه الخطاب للمؤمنين يأمرهم بأن يجنبوا أنفسهم وأهلهم عذاب نار الآخرة ؛ وذلك بأن يأمرهم بالخير والطاعة ، وينهوهم عن الشر والمعصية .. وأخير سبحانه أن نار الآخرة تختلف عن نار الدنيا في شدتها وتسعرها واتقادها بالآدميين والحجارة . قيل المراد بالحجارة الأصنام التي كانت تعبد من دون الله ، ففي ذلك تحقير لها ولعابديها .

ووصف سبحانه خزنة النار بأنهم فظاظ على أهلها في القوة والشدة يأثمرون بأمر الله وينفذون ما يأمرهم به ، وهم قادرون عليه ، لا يعجزهم . قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ، وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ . لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) » .

ثم اتجه الخطاب للكفار يبينهم من النجاة يوم القيامة ، ومن قبول اعتذاراتهم عن تقريظهم . وليس لهم في ذلك اليوم إلا الجزاء على ما عملوا في الدنيا . قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) » .

وعاد الخطاب ثانية للمؤمنين يأمرهم الله تعالى بأن يتوبوا إليه توبة نصوحاً ... أي توبة يقطعون بها الصلة عن ماضي الآثام ، ويعقدون العزم على عدم العودة لتتبع خطوات الشيطان . ووعدهم على ذلك بتكفير السيئات ،

« قوا أنفسكم » جنبوها . « غلاظ شداد » قساة أقوياء وهم الزبانية .

ودخول جنات وصفها بأن الأنهار تجري من تحتها .. ذلك اليوم الذي لا يخزي الله فيه النبي والمؤمنين معه ، كما أخزي الكافرين بدخول النار ، بل يجعل لهم نوراً يسمي أمامهم على الصراط ، وهم يدعون الله تعالى أن لا يذهب بنورهم ، وأن يتمه عليهم ، وأن يغفر لهم ذنوبهم . قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ، عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (٨) .

ثم وجه سبحانه الخطاب للرسول ﷺ بأمره بقتال الكفار ، وإقامة الحدود على المنافقين ، ويشدد عليهم في ذلك ، وتلك عقوبتهم في الدنيا . أما في الآخرة فمسكنهم النار وبئست النار من مصير يرجعون إليه . قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ، وَمَا وَهُمْ جَاهَتُمْ وَبئس الْمَصِيرُ » (٩) .

ثم ضرب الله المثل للكافرين ، في مخالطتهم للمسلمين ومعاشرتهم لهم ، بأمرأة نوح وامرأة لوط ، حيث كانتا مرتبطتين بعقد الزوجية مع رسولين من رسل الله ، فلم يقن عنها هذا الرباط شيئاً لعدم إيمانها والنحيازها في الكفر

« توبة نصوحاً » خالصة أو صادقة . « لا يخزي الله النبي » لا يذله بل يعزه ويكرمه .
« أغلظ عليهم » شدد أو أقسى عليهم .

لقومها ، وهو المراد بالخيانة المذكورة في الآية ، وسيدخلان النار مع من يدخلهما من أهلها . فمعاشرة المؤمنين دون اعتقاد ما يعتقدونه من الإيمان لا تجدي شيئاً .

وضرب الله المثل للمؤمنين في اختلاطهم بالكافرين لو دعت لذلك الضرورة والحاجة ، بامرأة فرعون المؤمنة ؛ لم يضرها عشرتها لفرعون وهو أشد أهل الأرض كفراً وعتواً ، لما تبرأت منه ، ومن مسلكه ، وسألت الله أن يهبها بيتاً في الجنة دار الكرامة ، وينجيها من شرور فرعون ، وتبعة أعماله الخبيثة ، ومن عامة الظلمة أتباع فرعون . وكذلك المؤمنون إذا تقدموا بالبراءة من الكفار ومما يعبدون من دون الله لا تضرهم مخالطتهم وتبادل المنافع معهم . قال تعالى :

« ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ؛ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) » .

ومثل آخر ضربه الله للمؤمنين في خلطتهم بالكافرين ، وهو مثل مريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا ، حيث اصطفاه الله على نساء العالمين ، وهي من

(فلم يغنيا عنها) فلم يدفعها ولم يمنعا عنها .

نسل هارون أخي موسى عليها السلام كان أكثر قومها كفاراً ، فلم يضرها ذلك حين صدقت بشرائع الله المنزلة بكلماته وصدقته بكتبه التي أنزلها على رسله ، وكانت مطيعة لله ومن أصل قوم مطيعين لربهم وامتدحها الله بإحصائها لفرجها وصيانتها له فأكرمها بحمل عيسى كلمة الله دون أن يمسه بشر ، بل بنفخة جبريل في جيب درعها وكان هذا الحمل خارقة من الخوارق ، دل على قدرة الله العظيمة لحرق السنن . قال تعالى :

« وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الظِّلْمُ » (١٢) .

(أحصنت فرجها) عفت وصانته من الرجال . (من روحنا) روحاً من خلقنا » عيسى عليه السلام .

تفسير سورة الملك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) » .

يمجد الله تعالى نفسه وينزهها عن أن يكون له شبيه أو مثيل . فهو الذي بيده ملك السموات والأرض المتصرف في جميع مخلوقاته لا يُسأل عما يفعل ، وهو على كل شيء قدير ، لا يعجزه شيء... ويستفاد من الآية إثبات صفة اليد لله سبحانه ، وهي يد تليق بحلال الله وعظمته ، فكما أن له ذاتاً لا تشبه الذوات ، فكذلك له يد لا تشبه الأيدي .

ثم أخبر سبحانه أنه خلق الموت والحياة . قال ابن عباس أي الموت في الدنيا والحياة في الآخرة ، وقيل أوجد الخلائق من العدم ثم يميتهم بعد هذا الإيجاد ، ثم يحييهم للبعث والجزاء في الآخرة ، وأوجدهم في الدنيا ليختبرهم أيهم يحسن العمل ويكون أكثر طاعة لله من غيره فيجزى كلا بما اكتسب . وهو العزيز في انتقامه من عصاه ، الغفور لمن تاب إليه وأتاب . قال تعالى :

« الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) » .

(تبارك الذي ..) تعالى ، أن أكثر خبره وإنعامه . (بيده الملك) الأمر والنهي والسلطان . (خلق الموت) أوجده ، أو قدره أزلاً . (ليبلوكم) ليختبركم . (أحسن عملاً) أصوبه وأخلصه .

ثم أخبر سبحانه أنه خلق السموات علوية في غاية الإتقان بعضها فوق بعض ، ليس فيهن خلل أو عيب أو اختلاف وتنافر ، ووجه أنظار العباد لينظروا إلى هذا الصنع العجيب : هل يرى الراي فيه شقوقاً أو صدوعاً وليُرجع النظرة بعد الأخرى في السماء باحثاً منقباً عن الخلل والعيب فسوف يرجع بصره خائباً صاغراً متحسراً لأنه لم يدرك ما طلبه من الخلل والنقص . . قال تعالى :

« الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) » .

وبعد أن نفى سبحانه وجود النقص في خلق السموات أخبر أنه زين السماء الدنيا وهي القريبة بالنسبة لسكان الأرض بالمصابيح وهي النجوم وجعل منها شهباً ترمى بها الشياطين الذين يسترقون السمع من السماء . قال قتادة : خلق الله النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، وأعد للشياطين علاوة على رميهم بالشهب في الدنيا عذاب النار في الآخرة . . قال تعالى :

« وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥) » .

« طباقاً » كل سماء مقببة على الأخرى . « تفاوت » اختلاف وعدم تناسب . « فطور » شقوق وصدوع ، أو خلل . « كرتين » رجعتين رجعة بعد أخرى . « خاسئاً » صاغراً لعدم وجدان الفطور . « هو حسير » قليل من كثرة المراجعة . « بمصابيح » بكواكب مضيئة . « رجوماً للشياطين » بانقضاض الشهب منها عليهم .

وكما أعدَّ سبحانه عذاب النار للشياطين ، أعدّه أيضاً للكافرين الذين كذبوا رسله ولم يؤمنوا به جزاء كفرهم وتكذيبهم ، وبئست النار من مآل ومنقلب يرجع إليها الكافرون - ثم وصف سبحانه حال الكفار في دخولهم النار وتعذيبهم بها وتبكيّت خزنتها لهم فذكر أنها تسمر بهم ويُسْمَع لغيلانها صوت منكر هو الشهيقي الذي يُسْمَع من الحمار أو نهقه ؛ وتغلي بهم غليان القدير حتى لكأنها يكاد ينفصل بعضها عن بعض من شدة غيظها عليهم . ويقول لهم خزنتها تبكيتم ما لهم وتقريعاً وإقامة الحجة عليهم : ألم يبعث الله فيكم رسلاً تنذركم من عذاب الله ؟ وعندئذ يعترفون بالواقع وأن الله تعالى بعث فيهم رسلاً فكذبوهم وجحدوا ما أنزل الله عليهم من الدين والبشارة بوعد الله والإنذار بوعيده فيرد عليهم خزنة النار بقولهم : إنكم كنتم في ضلال بالغ أقصى الحدود .. قال تعالى :

« وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَبُئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) » .

ثم أخبر سبحانه باعتراف الكفار بجرمهم وأنهم يقولون عند معاينة العذاب : لو كنا نسمع ما جاءتنا به الرسل في الدنيا من الهدى ونعقله ونعمل به ما غدونا اليوم في أهل النار . واعترفهم هذا بعد معاينة العذاب لا ينفهم شيئاً فبعداً

« شهيقياً » صوتاً منكراً كصوت الجحر . « نفور » تغلي بهم غليان القدور . « تكاد تميز » تنقطع وتتفرق . « فوج » جماعة من الكفار .

لأهل النار . قال تعالى :

« وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ
السَّعِيرِ (١٠) فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) » .

ثم أخبر سبحانه أن الذين يخافونه في خلواتهم ويكفون عن معاصيه
ويقومون بطاعته وهم لم يروه وعدهم بالمغفرة وحسن الجزاء لقاء خشيتهم
وطاعتهم له .. قال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) » .

ونبه سبحانه العباد على سعة علمه وأنه مطلع على السرائر والضمائر لا يخفى
عليه شيء مما يحول فيها ، وكيف يخفى على الخالق شيء من أمور مخلوقاته وهو
اللطيف الخبير بما تكنه الصدور ، وسواء عنده الإسرار بالأقوال أو الجهر بها ..
قال تعالى :

« وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣)
أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) » .

وبعد ذلك أخذ سبحانه 'بعد' شيئاً من نعمه على العباد فأخبر أنه جعل لهم
الأرض ذلولاً ، أي مستقرة ساكنة لا تميد ولا تضطرب ؛ سهلة لا يمتنع المشي
عليها ، ولا يعسر طلب الرزق فيها ، وأمر العباد بالسير في فجاجها طلباً للرزق
بالتجارة والزراعة وعامة وجوه الكسب ، وليأكلوا من رزق الله الذي سخره

لهم في هذه الحياة .

ثم بعد انقضاء الآجال يكون المرجع إلى الله يوم القيامة حيث يبعث الله الناس من قبورهم . قال تعالى :

« هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) » .

ثم أخذ سبحانه يخوف الكفار من عذابه ويحذرهم من نقمته وبأسه ويقول لهم : هل أمنتُم أن يجعل الله الأرض تضطرب بكم فتجيء وتذهب وهو معنى (تمور) ثم يخسفها بكم فيلقبكم أسفلها ويجعلها عليكم ؟ وهل أمنتُم أن ترسل عليكم ريحاً تحمل الحصباء فيحصبكم بها تعذيباً لكم وعندئذ تعلمون سوء عاقبة تكذيبكم بإنذارى حين يحل عليكم العذاب في الدنيا كما حل بالأمم المكذبة في العصور الخوالي فكيف كان إنكارى عليهم وكيف كان عقابي لهم شديداً وأليماً . قال تعالى :

« ءَأَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) ؟ » .

وفي قوله تعالى (ءَأَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ) إثبات صفة العلو لله تعالى

« الأرض ذلولاً » مثالة لينة سهلة . « مناكبها » جوانبها ، أو طرقها وفجاجها . « إليه النشور » إليه تبعثون من القبور . « يخسف بكم » يغور بكم . « هي تمور » ترتج وتضطرب . « حاصباً » ريحاً من السماء فيها حصباء . « كان نكير » إنكارى عليهم بالإهلاك .

(وفي السماء) أي على السماء فله سبحانه العلو المطلق ، علو الذات وعلو القدر وعلو القهر ، والمراد بالسماء العرش لأنه أعلى المخلوقات ثم نبه سبحانه على عظيم قدرته بالطير تخلق في الفضاء (صافات) أي تبسط أجنحتها للطيران تارة وتقبضها أخرى ولا يسكنها في حال البسط أو القبض من أن تسقط غير الله إذ هو البصير بما يصلح كل شيء من مخلوقاته .
قال تعالى :

« أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّتْ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ » (١٩) .

ثم أخذ يخاطب الكفار بصيغة الاستفهام الإنكاري توبيخاً لهم وإقامة للحجة عليهم قائلاً : من هذا الذي يمنعكم وينصركم من عذاب الله ويدفع عنكم ما أراد بكم؟ والجواب: لا أحد يمنعهم أو ينصرهم ولكنهم في غرور من الشيطان مخدوعون ، وأعاد عليهم الاستفهام قائلاً : من هذا الذي يرزقكم ويصل ما قطعه الله عنكم؟ والجواب : لا أحد يرزقهم بعد الله ولكن الكافرين أوغلوا في الطغيان وأمعنوا في الإدبار . عن الحق لا يستمعون إليه ولا يفتفعون به .
قال تعالى :

« أَمِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكُفْرَ إِنْ أَلَّا فِي غُرُورٍ » (٢٠) « أَمِنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ » (٢١) .

ثم ضرب سبحانه المثل للكفار والمؤمن ، أما الكافر في حيرته وضلاله

(صافات) باسطات أجنحتهن عند الطيران . (يقبضن) يضممنها إذا ضربن بها جنوبهن .
(جند لكم) أحوان لكم ومتعة . (غرور) خديعة من الشيطان وجنده . (لجوا في عتو)
تأدوا في استكبار وعناد . (نفور) شرود عن الحق .

فهو كمن يمشي منحنيًا لا يبصر الطريق ولا يدري أين يسلك ، وهذا شأنه في الدنيا ، أما في الآخرة فيحشر على وجهه إلى نار جهنم .. أما المؤمن ، فهو في الدنيا مستوٍ منتصب القامة على طريق واضح ، وهذا شأنه في الدنيا ، أما في الآخرة فإنه يحشر وهو يمشي سويًا على صراط مستقيم يوصله إلى الجنة ، فأبي الرجلين أهدى سبيلًا وأصح مسلكًا ؟ قال تعالى :

« أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢) » .

ثم ذكر سبحانه أنه ابتداءً خلق العباد وجعل لهم أسماعًا وأبصارًا وقلوبًا أي جعل لهم عقولًا وإدراكًا ولكن الكافرين لا يقومون بشكر هذه النعمة فيستعملونها في طاعة الله وامتنال أمره وهو سبحانه الذي نشر الخلق في أقطار الأرض على اختلاف ألسنتهم ولغاتهم وألوانهم ثم يجمعهم بمد هذه التفرقة ويعيدهم كما بدأهم أول مرة . قال تعالى :

« قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) » .

ثم أخبر سبحانه أن منكري البعث يقولون استبعاداً لوقوعه : متى يكون هذا الوعد بالبعث والجزاء على الأعمال ؟ وأمر الرسول أن يرد عليهم بقوله : إنه

(مكبًا على وجهه) ساقطًا عليه ولا يأمن العنور . (يمشي سويًا) مستويًا منتصبًا سالماً من العنور . (ذرأكم) خلقكم وبشكم وفرككم .

لا يعلم تحديد ذلك على وجه اليقين غير الله سبحانه وإنما أمرت أن أنذركم بوقوعه
لا محالة . قال تعالى :

« وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا
الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) » .

ثم أخبر سبحانه أن المشركين والجاحدين للبعث حين تقوم القيامة وحين
يشاهدون تحقيق وعد الله في البعث والجزاء تعلمو وجوههم الكتابية وتقول لهم
الملائكة أو خزنة جهنم : هذا الوعد الذي كنتم تستمعجلونه ولا تصدقون
بوقوعه . قال تعالى :

« فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا
الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) » .

ثم أمر الله رسوله أن يرد على الكافرين الذين كانوا يتمنون هلاكه ومن معه
من المؤمنين قائلاً : لو أن الله تعالى قدّر عليّ وعلى المؤمنين الهلاك أو تفضل
علينا برحمته فهد لنا في الأجل إلى نهايته فمن يحيركم أنتم من عذاب الله المؤلم إذا
استمررتم على الكفر ؟ وإنما الذي ينجيكم من عذاب الله حقاً التوبة والرجوع
إلى دينه . وأمر الرسول أيضاً أن يعلن للكفار بأنه والمؤمنين معه قد أخلصوا
الدين لله وآمنوا به فلا يعبدون غيره وأخلصوا له التعلق فلا يعتمدون على أحد
سواه وسوف ينكشف الأمر في الآخرة لكلا الفريقين ويتضح أيهما كان على الحق

(رأوه زلفة) رأوا العذاب قريباً منهم . (سيئت) كثبت واسودت غماً وذلاً . (تدعون)
تطلبون أن يعمل لكم .

أو الضلال أو لمن تكون العاقبة الحميدة . قال تعالى :

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِیَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩) » .

وأمر الله الرسول أيضاً أن يوجه أنظار الكفار إلى نعمة عظيمة من نعمه هي الماء ، لو جعله غائراً في الأرض بعد أن أنعم على العباد بجريانه بحيث يسهل الانتفاع به وتناوله بالدلاء والأيدي لما استطاعوا إعادته ولما كان في مقدور أحد أن يأتيهم بمثله . قال تعالى :

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠) » .

والماء المعين : قيل هو الكثير . وقيل هو الجاري ، والله أعلم .

(أُرِيتُمْ) أخبروني . (يجير الكافرين) ينجيهم . (غوراً) ذاهباً في الأرض لا ينال .
(بماء معين) جار أو ظاهر ، سهل التناول .

تفسير سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) ».

افتتح سبحانه هذه السورة بحرف من الحروف المقطعة . والكلام عن افتتاح بعض سور القرآن ببعض الحروف المقطعة واسع مديد ، غير أن أحسن ما قيل في ذلك : أن الله تعالى افتتح بعض السور بأمثال هذه الحروف المقطعة وهو أعلم بمراده منها . أما قوله تعالى : (والقلم وما يسطرون) فقد قال ابن كثير رحمه الله في تفسيرها : الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به كقوله : (اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) . فهو قسم منه تعالى وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم ولهذا قال : (وما يسطرون) يعني وما يكتبون . فالضمير في (يسطرون) يعود على

(والقلم) قسم بالقلم الذي يكتب به . (ما يسطرون) ما يكتبونه بالقلم . (غير ممنون) غير مقطوع عنك . (بأيكم المفتون) في أي طائفة منكم المجنون .

بني آدم . وقيل : المراد بالقلم الذي كتب به اللوح المحفوظ والضمير في (يسطرون) يعود على الملائكة . وقال البغوي : (يسطرون) يكتبون أي ما تكتب الملائكة الحفظة من أعمال بني آدم (ونعمة ربك) أي ربك . يقول الله لرسوله : لست مجنوناً كما يقول المكذبون ولكنك رسول أنعم الله عليك بنعمة الرسالة والنبوة وإن لك على تبليغ الرسالة والصبر في سبيل الدعوة وتحمل أذى قومك (لأجراً) غير مقطوع ، وإنك لعل دين عظيم وهو الإسلام فلا تكثر بأقوالهم ولا يضيق صدرك بفعلهم ، فسوف ترى ويرون ، وتعلم ويعلمون إذا نزل بهم العذاب يوم القيامة من المفتون الذي افتتن عن الحق وضل عن سواء السبيل . وقيل : فسوف يعلمون حينئذ من المجنون . والواقع أن الله تعالى يعلم أي الفريقين منكم أهدي سبيلاً ، ويعلم المنحرف الضال عن الحق المتباعد عن الهداية - ثم أمر الله رسوله بعدم طاعته للمكذبين من قومه إذا دعوه لاتباع دينهم وعبادة آلهتهم . ويقول له : إنهم بودهم لو تداهن في دينك فيداهنون هم أيضاً في دينهم ويصانعونك ، والمداهنة والمصانعة المطاوعة من الرسول هي أن يعبد آلهتهم سنة وأن يعبدوا إلهه سنة . قال تعالى :

« فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تَدَّهْنُ فَيَذْهَبُونَ (٩) » .

ثم نهى الله تعالى رسوله عن طاعة كل كثير الحلف بالباطل ضعيف الرأي ، حقير يفتاب الناس ويمشي بينهم بالنميمة ليفسد الصلات وعلاقات المودة ، بخيل شحيح يمنع ما عليه وما لديه من الخير ، ظالم يتعدى الحق ، وقيل : (معتد) أي في تناول ما أحل الله له يتجاوز فيه المشروع (أثيم) أي فاجر يتناول المحرمات (عتل) وهو الغليظ الجافي وبعد كل هذه الأوصاف فهو (زعيم)

(ودوا لو تدهن) أحبوا أن تلاينهم وتصانهم . (فيذهنون) فهم يلاينوك ويصانعونك .

أي دعي ملتصق بقريش ليس منهم ، وقيل : الزنيم الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزمنها . والزئمة اللحمة المتدلاة في الحلق . قيل ، إنه يقصد بهذه الأوصاف الذميمة شخص معين ، وقيل المقصود بها الوليد بن المغيرة ، وقيل الأخنس بن شريق ، وقيل غيرهما . المهم أن الله سبحانه أمر رسوله بمجانبة هذا الحلاف المهن وعدم طاعته فقد وهبه الله المال والبنين فقابل هذه النعمة بالكفر بآيات الله والإعراض عنها وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين . وقد توعدده الله بأن يسمه على أنفه أي يجعل له علامة يعرف بها ، قيل يسود وجهه في الآخرة . قال تعالى :

« وَلَا تُطِيعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَّنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ (١٦) » .

بعد هذا أخذ سبحانه يذكر قصة أصحاب الجنة وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ، وكانت لإخوة من بني إسرائيل حلفوا ليصرمها من ثمرها ولا يتصدقون منها على مسكين وباتوا على هذا العزم مصرين ؛ فأرسل الله على جنتهم ناراً بالليل أحرقها ، وفي الصباح غدوا على جنتهم لتنفيذ العزم الذي باتوا عليه فلم يروها ، وحسبوا أنهم أخطأوا الطريق إليها ثم تبينوا فعرفوها وعلموا أن الله تعالى عاقبهم على ما اعتزموه من حرمان المساكين وعدم التصديق عليهم فندموا وتابوا إلى الله إذ أدركوا غلظهم ،

(حلاف) كثير الحلف بالباطل . (مهين) حقير في الرأي والتدبير . (هماز) عياب أو مقتاب للناس . (مشاء بنميم) بالسعاية والإفساد بين الناس . (عتل) فاحش لئيم . (زنيم) دعي ملتصق بقومه . (أساطير الأولين) أباطيلهم المسطرة في كتبهم . (سنسفه) على الخرطوم (سنذله غاية الإذلال) .

وشبه الله قريشاً بأصحاب هذه الجنة حيث أنعم الله عليهم ببعثة الرسول ﷺ كما أنعم على أصحاب الجنة بالجنة فكفرت قريش بهذه النعمة كما كفر أصحاب الجنة نعمة الله عليهم فعاقبهم الله كما يعاقب كل جاحد لنعم الله . قال تعالى :

« إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ (۱۷) وَلَا يَسْتَنْتُونَ (۱۸) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (۱۹) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (۲۰) » .

(يستنون) أي لم يقولوا إن شاء الله حين عزموا على جني ثمارها (طائف) أي عذاب وهو النار التي سلطها الله على الجنة المذكورة فأحرقتها (كالصريم) كالليل المسود مما أصابها أو كالشيء المحرق أو المقطع .

« فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (۲۱) أَنْ أَعْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (۲۲) فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ (۲۳) أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا أَلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِنٌ (۲۴) وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (۲۵) » .

(تنادوا مصبحين) نادى بعضهم بعضاً مبكرين ليصرموا الجنة ويحنوا ثمرها (يتخافتون) يتهايمسون (لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين) أي لا

(بلوناهم) امتحننا أهل مكة بالقحط . (الجنة) بستان بالقرب من صنعاء . (ليصرمها) ليقطعن ثمارها بعد الاستواء . (مصبحين) داخلين في وقت الصباح . (يستنون) حصة المساكين كأهلهم . (طاف عليها) نزل بها . (طائف) بلاء محيط . (كالصريم) كالليل الأسود أو البستان المصروم . (فتنادوا) نادى بعضهم بعضاً . (اعدوا على حرثكم) باكروا مقبلين على بستانكم . (صارمين) قاصدين قطع ثماره ، (يتخافتون) يتشاورون بالحديث ، (غدوا) ساروا غدوة إلى حرثهم . (على حرد) على انفراد عن المساكين . (قادرين) على الصرام

تمكنوا فقيراً من حضور هذا العمل (على حرد) على غيظ مكتوم على المساكين
أو على جد من الأمر وحزم فيه (قادرين) أي في ظنهم على التصرف في جنتهم
وفي حرثهم لا يحول بينهم وبين ذلك أحد .

« فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) » .

لما رأوا ما حل بها من العذاب والإحراق أنكروها وظنوا أنهم ضلوا
الطريق إليها ولكنهم عادوا فتعرفوها وتأكدوا منها وأدركوا عندئذ غلظتهم
وأيقنوا أن الله تعالى أنزل بها عذابه فأحرقها وحرّمهم منها ومن ثمارها جزاء
حقدهم وحنقهم على المساكين .

« قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) » .

أوسطهم : أي أعدلهم وأعقلهم وأفضلهم . (لولا) : أي هلا تسبحون
الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم . وقيل : (تسبحون) أي
(تستثنون) أي تقولون : إن شاء الله عند عزمكم على الصرم والأول أظهر .

« قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) » .

صحبوا غلظتهم واعترفوا بذنبهم وسبحوا الله تعالى وأقروا على أنفسهم
بالظلم لحرمانهم المساكين من ثمار جنتهم :

« فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوُمُونَ (٣٠) قَالُوا يَوَيْلَنَا
إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٣١) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى
رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) » .

(لولا تسبحون) هلا تستغفرون الله من معصيتكم ، (يتلاوُمون) يلوُمون بعضهم بعضاً ،
(إلى ربنا راغبون) طالبون منه الخير والمغفرة .

(يتلومون) يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصرّوا عليه من منع المساكين حقهم فيما جذّوه من الثمر ثم نادوا على أنفسهم بالويل وقالوا إنما أصبنا في جنتنا بسبب طغياننا ثم رغبوا إلى الله أن يعوضهم خيراً من جنتهم . وقيل إنهم احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة .

« كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) » .

أي مثل هذا العذاب الذي أنزله الله بأصحاب الجنة سوف ينزله بقريش إذ كذبوا رسوله وجحدوا نعمه . ولهم في الآخرة عذاب أشق من عذاب الدنيا لو كانوا يعلمون عذاب الآخرة .. !

وبعد أن قص الله تعالى قصة أصحاب هذه الجنة وما نالهم من النعمة حين عصوا الله أردف ذلك ببيان ما أعدّه للمتقين الذين اتقوا ربهم بدوام الطاعة والخشية من العذاب فذكر أن لهم في الآخرة نعيماً لا ينقطع في جنات لا تفتى ولا تبديد .

ولما قال المشركون للمؤمنين : إنا سوف نعطي في الآخرة جزاء أفضل مما تعطون ، أكنههم الله تعالى بقوله (أفنجعل المسلمين كالمجرمين) أي كيف يصح ذلك في شرع الله وفي عدله ؟ ثم سألهم سؤال المنكر بـل سؤال الساخر بحكمهم وعقولهم (ما لكم ؟ كيف تحكون ؟ !) ثم سألهم كيف يكون ذلك ؟ وكيف يصح في عدله مساواة المسلمين بالمجرمين في الجزاء ؟ ! إنكم تحكون بأهوائكم وتقولون ما ليس لكم به علم ؟

ثم سألهم هل نزل لكم كتاب من عند الله تقرّأون فيه أن لكم ما تختارونه وتشتهونه لأنفسكم - أو هل أخذتم على الله عهداً ومواثيق مؤكدة إلى يوم

القيامة فاستوثقتم بذلك من أن لكم ما تحكون به لأنفسكم من الخير والكرامة عند الله ؟ قال تعالى :

« إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُؤْمِنِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمُنٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) » .

ثم وجه سبحانه الخطاب للرسول ﷺ قائلا : طالبهم بما يكفل ويضمن لهم المساواة في الجزاء بينهم وبين المسلمين .

« سَلِّمُوا إِلَهُكُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) » .

أو هل عندهم شركاء لله من أصنامهم وأندادهم تنفذ لهم ما يحكون به وما يريدونه لأنفسهم ؟ فإن كان لشركائهم هذه القدرة فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في مزاعمهم . قال تعالى :

« أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) » .

ويطالبون بإحضار الشركاء يوم القيامة يوم تبدو الأهوال ويشتد البلاء والامتحان وتظهر الأمور العظام تعجيزاً لهم إذ لا يغني ذلك اليوم والد عن ولده ولا يسأل حم حميماً ، ويطالب عندئذ الكفار والمنافقون بالسجود لله توبيخاً لهم لأنهم لا يقدررون على ذلك وقد تركوا السجود في الدنيا مع قدرتهم

(لما تخيرون) الذي تختارونه وتشتهونه . (لكم أيمان علينا) عهد مؤكدة بالآيات .
(لما تحكون) الذي تحكون به لأنفسكم . (زعيم) كفيل بأن يكون لهم ذلك .

عليه وتراهم من هول القيامة ذليلة أبصارهم لا يستطيعون رفعها للذل الذي غشيهم .
قال تعالى :

« يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا
يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) » .

أورد ابن كثير - رحمه الله - عند تفسير هذه الآية حديث أبي سعيد الخدري
عند البخاري قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد
له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد
فيعود ظهره طبقاً واحداً » قال : وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وفي غيرها
من طرق وله ألفاظ وهو حديث طويل مشهور ، وفي هذا الحديث إثبات صفة
من صفات الله تعالى يؤمن بها السلف من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تأويل ،
ولا تكيف ، ولا تمثيل .

بعد ذلك أخذ الله سبحانه يتوعد الكفار على تكذيبهم بالقرآن ، يتوعدهم
بتقريبهم من العذاب قليلاً قليلاً وهم لا يشعرون ، ويمهلهم ويمهلهم وينظرهم وذلك
هو كيد الله لهم - وكيد الله هو تدبيره الخفي فلا يشعرون إلا والعذاب قد
أحاط بهم ، وإن كيد الله عظيم لمن خالف أمره وكذب رسله واجترأ على معصيته .
قال تعالى :

(يكشف عن ساق) كناية عن شدة هول القيامة . (خاشعة أبصارهم) ذليلة منكسرة .
(ترهقهم ذلة) يغشاهم ذل وخسران .

« فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) » .

وعاد الخطاب موجهاً لرسول الله ﷺ يقول له سبحانه : هل طلبت منهم أجره وجعلاً على تبليغهم الرسالة فأعرضوا عنك مستثقلين هذه الغرامة التي فرضتها عليهم ؟ أو هل عندهم علم بالمغيبات مما سطره الله في اللوح المحفوظ فيكتبون منه ما يقولونه وما يحكون به ؟ قال تعالى :

« أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) » .

ثم أمر الرسول بالصبر على أذاهم وعلى تكذيبهم لقضاء الله الذي قضاه يجعل العاقبة الحميدة للمسلمين في الدنيا بالنصر والتأييد على الكافرين وفي الآخرة بالنعيم المقيم ، ونهى الرسول أن يسلك سبيل نبي الله يونس في الضجر من قومه حين ذهب مغاضباً لهم ، وكان من أمره ما قصه الله تعالى في سورة الأنبياء وسورة الصافات ، وأنه دعا الله سبحانه بعد أن التقمه الحوت ، دعاه من بطن الحوت وهو مكروب فاستجاب الله دعاءه وأخرجه من بطن الحوت الذي ابتلعه ، ولولا لطف الله ورحمته لألقي من بطن الحوت في الفضاء ملوماً مذموماً ، ولكن الله تعالى بعد أن أنقذه تداركه برحمته وتاب عليه واختاره لرسالته وجعله من

(فذرنى) دعنى وخلنى . (سنستدرجهم) سندفيهم من العذاب درجة درجة فدرجة حق توقعهم فيه . (أملى لهم) أمهلهم ليزدادوا إثماً . (مغرم) غرامة ذلك الأجر . (مثقلون) مكلفون حملاً ثقيلاً .

الأنبياء . قال تعالى :

« فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْأُخُوتِ إِذْ نَادَىٰ
وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ
وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) » .

ثم أخبر الله رسوله أن شدة عداوة الكفار له قد دفعهم للنظر إليه شزراً
كأنهم يريدون أن يصرعوه ويذبلوه عن موضعه ويرمونه بالجنون لما سمعوا
القرآن .. وقيل : أرادوا أن يصيبوه بالعين لولا وقاية الله وحمايته منهم .
والواقع أن القرآن لا يجلب الجنون وإنما هو عظة وتذكير لمن يتذكر به ويتعظ
من الناس أجمعين إنسهم وجنهم . قال تعالى :

« وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا
الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢) » .

(مكظوم) مملوء غيظاً في قلبه على قومه . (لنبيذ بالعراء) اطرح بالأرض الفضاء المهلكة .
(فاجتباهاه ربه) اصطفاها بعودة الرحي إليه . (ليزلقونك) يزلون قدمك فيرمونك .

تفسير سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) . »

الحاقة من أسماء يوم القيامة لأنه يتحقق فيها وعد الله للمؤمنين برضوان الله ودخول جنات النعيم ، ويتحقق وعده للكافرين بمسير الحساب وسوء المنقلب ولهذا عظم أمرها ورد ذكرها ، فقال : (وما أدراك ما الحاقة ؟) .

ثم أخذ سبحانه يستعرض الأمم المكذبة بالقيامة فبدأها بقوم ثمود وعاد وذكر أن ثمود كذبوا بالقارعة أي بالكارثة التي تقرر القلوب وتقزعهما بأهوالها .

أخذ سبحانه يفصل طريقة إهلاكهم فذكر أن قوم ثمود أهلكوا بالصيحة وهي (الطاغية) لأنها جاوزت الحد في الشدة ، وقبل (الطاغية) : الذنوب والظفیان ، أي أهلكوا بسبب ذنوبهم . وأما عاد فأهلكهم الله بريح صرصر وهي الباردة (عاتية) متجاوزة الحد شديدة الهبوب عنت عليهم بغير رحمة ولا بركة ، سلطها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتالية لا تفتر عنهم حتى أهلكتهم فتراهم فيها (صرعى) هلكى جمع صريع كأنهم أصول نخل خاوية من طول بلاها وفسادها لم تبق منهم أحداً بل هلكوا عن آخرهم . قال ابن عباس رضي الله عنهما : خاوية خربة وقال غيره : بالية أي جعلت الريح تضرب بأحدهم

(الحاقة) الساعة: يتحقق فيها ما أنكروه .

الأرض فينشدخ ويخر ميتاً على أم رأسه وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخلة
إذا خرت بلا أغصان ، ذكره ابن كثير ؛ قال تعالى :

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهِلِكُوا
بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهِلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦)
سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ
فِيهَا صَرَغِي كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ
بَاقِيَةٍ ؟ (٨) » .

ثم عرض سبحانه للذكر فرعون حيث كذب رسول الله موسى ،
وعرض لمن قبل فرعون من الأمم المكذبة لرسول الله الكافرة فذكر منهم
قرى قوم لوط وهي المؤتفكات يريد أهل المؤتفكات ، وقيل يريد جميع الأمم
المكذبة لما عصوا رسلكم أخذهم الله بالعذاب أخذه رابية أي مهلكة .
قال تعالى :

« وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩)
فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠) » .

(بالقارعة) بالقيامة تفرع القلوب بإفزعها . (بالطاغية) بالعقوبة المجاوزة للحد في
الشدة . (بريح صرصر) شديدة السموم أو البرد أو الصوت . (عاتية) شديدة العصف .
(سخرها عليهم) سلطها عليهم . (حسوماً) متتابعات أو مشؤومات . (أعجاز نخل)
جذوع نخل بلا رؤوس . (خاوية) ساقطة أو فارغة أو بالية . (المؤتفكات) قرى
قوم لوط « أهلها » . (الخاطئة) بالفعلات ذات الخطأ الجسم . (أخذه رابية) زائدة
في الشدة .

بعد هذا أخذ الله يمتن على العباد بحمله لأبائهم في سفينة نوح عندما تجاوز الماء حده زمن طوفان نوح وجعلهم في مأمن من الفرق وجعل هذا الصنيع وهو نجاة المؤمنين بحملهم في السفينة وغرق المكذبين عبرة وعظة يسمعونها العقلاء بأذانهم فيحفظونها وينتفعون بما يسمعون من كتابه تعالى .
قال تعالى :

« إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَأَعْيَةٌ (١٢) » .

وأخذ بعد ذلك سبحانه يذكر شيئاً من أهوال يوم القيامة فذكر النفخ في الصور للبعث والنشور ثم أكد أن النفخة واحدة لأن أمر الله لا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد، وذكر رفع الأرض عن أماكنها والجبال وتبدل الأرض غير الأرض وصيرورة الجبال هباء منثوراً بعد دكها وتكسيدها عندئذ تقوم القيامة وتنشق السماء فتكون في ذلك اليوم ضعيفة ويقف الملائكة على حافاتنا ونواحيها ويحمل عرش الله يوم القيامة ثمانية من الملائكة ويعرض الخلائق على الله للحساب والجزاء فلا يخفى عليه من أمورهم شيء . قال تعالى :

« فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا

« الجارية » سفينة نوح عليه السلام . « تذكرة » عبرة وعظة . « تعيها » تحفظها . « حملت الأرض » رفعت من أماكنها بأمرنا . « فدكتنا » فدقتا وكسرتا أو فسوتنا . « وقعت الواقعة » قامت القيامة . « انشقت السماء » تفتت وتصدعت . « واهية » ضعيفة متداعية . « على أرجائها » جوانبها وأطرافها .

وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمْنِيَّةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعَرِّضُونَ
لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) .

ثم أخذ سبحانه يقص حال السعداء في موقف الحساب وفرحهم وغبطتهم
بتناولهم صحائف أعمالهم بأيمانهم ومن شدة الفرح يعرضون صحائفهم على كل
من يلقونه ويطلبون منه قراءتها ويقولون : إنا كنا موقنين بهذا اليوم وهذا
الجزاء العادل ، وأخبر سبحانه أن هذا الصنف سوف يكون في الآخرة في حالة
من العيش مرضية عنده ، ثم وصف سبحانه لون هذا النعيم فأخبر أنه جنة رفيعة
قريبة الثمار يأكلون منها قائمين وقاعدين ومضطجعين دون عناء وكلفة ويقال لهم
تلفذوا بهذا النعيم من مأكّل ومشرب هنيئاً لكم وجزاء لما قدمتموه في الأيام
السالفة أيام الدنيا من الأعمال الصالحة ، قال تعالى :

« فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ كِتَابِيَّةٍ (١٩)
إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَّةٍ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١)
فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا
أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) » .

ثم أخبر سبحانه عن حال الأشقياء وأنهم يأخذون صحائف أعمالهم بشمالهم
بعد أن تلوى خلف ظهورهم امتهاناً لهم فتمنى أحدهم من شدة الغم أنه لم يعط
صحيفة عمله لما سطر فيها من قبائح أعماله ويتمنى أن لو كانت موته التي ماتها

« هؤم » خذوا ، أو تعالوا . « كتابيه » كتابي ، والهاء للسكت . « قطوفها دانية » ثمارها
قريبة التناول . « هنيئاً » غير منفصّ ولا مكدر .

قاضية عليه فلم يبعث بعدها . ثم يأخذ في مخاطبة نفسه بلسان حاله أو مقاله قائلاً : أي شيء أغنى عني مالي من عذاب الله فقد ضلت عني حجتى ؟ .. وذلك عندما تشهد عليه جوارحه بالشرك والمعاصي .. وقد زال عني ملكي وقوتي وعندئذ يأمر الله تعالى الزبانية أن تأخذه بعنف من المحشر فتجمع يده إلى عنقه في الغل ويدخل في سلسلة طولها سبعون ذراعاً ثم يورد إلى جهنم فيصطي بنارها ويغمر فيها ذلك لأنه كان مكذباً بالله العظيم ولم يقيم بحقوق الخالق من توحيدهِ وطاعته ولم يقيم بحقوق المخلوق : (لا يحض على طعام المسكين) أي لا يفعله ولا يرغب فيه .. قال تعالى :

«وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِإِلِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ (٢٥) وَلَمْ أَدرِ مَا حِسَابِيهِ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ (٢٩) خذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ (٣٤)» .

ولذا فليس له في هذا اليوم قريب يشفع له عند الله ، وليس له طعام غير صديد أهل النار وهو الغسلين مأخوذ من الغسل كأنه غسالة جروحهم وقيل هو الزقوم ولا يتناول هذا الطعام إلا الكافرون . قال تعالى :

(كانت القاضية) الموتة القاطعة لأمرى . (ما أغنى عني) ما دفع العذاب عني . (ماله) ما كان لي من مال وغيره . (سلطانيه) حجتى ، أو تسلطى وقوتى . (فغلوه) فقيده بالأغلال . (الجحيم صلوه) أدخلوه ، أو أحرقوه فيها . (فاسلكوه) فأدخلوه فيها . (لا يحض) لا يبحث ولا يحرض .

« فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلِينَ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧) » .

ثم أقسم سبحانه لخلقه بما يشاهدونه من المراثيات والمحسوسات من آياته وبما خفي عن أبصارهم من المغيبات، أقسم لهم بذلك تأكيداً أن القرآن كلامه وروحه وتنزيله على عبده ورسوله محمد ﷺ وأضافه إلى الرسول على معنى التبليغ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل. أما الكلام فإنما ينسب إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مبلغاً مؤدياً، وليس القرآن بقول شاعر أو كاهن بل هو منزل من عند الله ولكن الكفار لا يؤمنون به ولا ينزلوه من عند الله ولا يتعظون بما فيه. قال تعالى :

« فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) » .

« ما » في قوله تعالى : (قليلاً ما تؤمنون - قليلاً ما تذكرون) يحتمل أن تكون نافية وأراد بالقليل نفي إيمانهم أصلاً كقولك لمن قطعك : قلما تأتينا وتقصد أنه لا يأتيك أصلاً ، أو مصدرية فيكون وصف إيمانهم بالقلّة، والقلّة هنا بمعنى العدم أي لا تؤمنون ولا تذكرون .

(حميم) قريب مشفق يحميمه . (غسيلين) صديد أهل النار . (الخاطئون) الكافرون .
(فلا أقسم) أقسم و « لا » مزيدة .

ثم أخبر سبحانه عن أمانة الرسول ﷺ في تبليغ الرسالة فذكر أنه لم يزد فيها ولم ينقص منها شيئاً من عند نفسه ولو فرض أنه فعل شيئاً من ذلك لانتقم الله منه أشد الانتقام ولأخذ منه باليمين ولقطع منه الوتين وهو العرق الرئيسي الذي يتعلق به قلبه فيهلك ولا أحد يستطيع أن يحول بينه وبين عقاب الله أو يحجزه عنه . قال تعالى :

« وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) » .

وختم سبحانه السورة مبيناً أن القرآن من أغراضه العظة لكل من يخشى الله ويخاف عقابه وأنه سبحانه سبق في علمه أن في الخلق من يكذب بالقرآن رغم بيانه ووضوحه وعدم احتمال أن يكون من عند غير الله ، وأن القرآن سوف يكون حسرة لهؤلاء المكذبين عندما يعاينون ما أعدّه الله للمؤمنين في الآخرة من النعم والكرامة وأنه أيضاً هو الحق المتيقن الذي لا مرية فيه ثم أمر رسوله بتنزيه الله عما يقول الظالمون . قال تعالى :

« وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَخَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢) » .

(تقول علينا) اختلق واقترب علينا . (باليمين) بيمينه ، أو بالقوة . (الوتين) نياط القلب ، أو نخاع الظهر . (حاجزين) مانعين الهلاك . (الحسرة) ندامة . (فسبح باسم ربك) نزهه عما لا يليق به .

تفسير سورة المعارج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) » .

تنص الآية على أن سائلاً قام بتوجيه سؤال عن عذاب الله الذي لا شك في وقوعه ونزوله بالكافرين . أما هذا السائل فقيل هو النضر بن الحارث بن كعدة . وقيل إن قريشاً سألت رسول الله ﷺ عندما خوَّفها بعذاب الله ، سألتها قائلة: لمن هذا العذاب ومن هم أهله ؟ فأنزل الله هذه الآية . وقيل إن الحارث ومن على رأيه من قريش من المكذبين المشركين سألوا الله ، بمعنى دعوه قائلين : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وقد استجاب الله دعاءهم فقتل النضر صبراً بعد وقعة بدر ، وقتل جماعة من صناديد قريش في الوقعة نفسها . وسواء كان هذا هو العذاب المعني في الآية أو غيره مع ما أعده الله لهم في الآخرة فهو نازل بهم من عند الله ذي المعارج أي الدرجات العالية وصاحب العلو المطلق ، ففي الآية إثبات صفة العلو لله تعالى ، وهو مذهب أهل السنة ، والذي درج سلف الأمة ، يشبتون لله علواً يليق بجلاله وعظمته — ثم أخبر سبحانه بصعود الملائكة وجبريل إليه

(سأل سائل) دعا داع . (ذي المعارج) ذي السموات ، أو الفضائل والنعم .

وأن العذاب الذي سوف ينزله بالكافرين سوف يكون في يوم يبلغ طوله خمسين ألف سنة وهو يوم القيامة بدليل حديث مانعي الزكاة : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي زكاتها إلا صفحت له صفائح من نار يكوى بها جبينه وجنبه وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد . . يعني يوم القيامة » ثم أخذ سبحانه يسلي الرسول ﷺ عن تكذيب قومه وبأمره بالصبر الجميل على ما يناله منهم وعلى استعجالهم العذاب واستبعادهم لوقوعه فهم يرون وقوع العذاب وقيام الساعة بعيداً والله سبحانه يراه قريباً إذ لا محالة في وقوعه وكل آت قريب . وقيل إن المؤمنين يرونه (أي العذاب وقيام الساعة) قريباً وإن كان له أجل لا يعلمه إلا الله فهو كائن لا محالة . قال تعالى :

« تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) » .

ثم أخذ سبحانه يذكر بعض ما يكون في يوم القيامة من الأحوال فذكر تغير السماء وأنها تصير كالمهل وهو عكر الزيت ، شبهها بذلك في سوادها وانكدار أنوارها ، وقيل المهل هو ما أذيب من الفضة ونحوها ، شبه السماء به في تلونه ، وتصير الجبال كالمهن وهو الصوف المنفوش شبه الجبال به في انتفاشه وتخلل أجزائه . في ذلك اليوم ينزل الله عذابه بالكافرين فيرى القريب قريبه والصديق صديقه فلا يسأل عنه من شدة الأحوال وقد

(تعرج الملائكة) تصعد . (الروح) جبريل عليه السلام . (صبراً جميلاً) لا شكوى فيه لغيره تعالى .

براه في أسوأ الأحوال فتشغله نفسه عنه . قال تعالى :

« يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْئَلُ حِمِيمٌ حَمِيماً (١٠) يُبْصَرُونَهُمْ » .

ثم أخبر سبحانه أن الكافر في ذلك اليوم يود ويتمنى لو يحصل له أن يفترق من عذاب الله يومئذ بأحب الناس إليه وهم أبناؤه وصاحبه وهي زوجته . وبأخيه وبفصيلته وهي قبيلته وعشيرته التي فصل منها والتي تضمه ويأوي إليها ، وبكل أهل الأرض جميعاً . لو صح أن يفترق بهم ليدفع عن نفسه المذاب لفعل ولكن (كلا) يعني هيهات .. إنه لا ينجيه من عذاب الله شيء . قال تعالى :

« يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ مِئْذٍ بَيْنِيهِ (١١) وَصَحْبَيْهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا » .

ثم أخذ سبحانه يصف جهنم وشيئاً من عذابها فذكر أن من أسمائها لظى .. سميت بذلك لأنها تتلظى أي تتلهم وذكر من عذابها أنها تنزع الشوى ، قيل تنزع جلدة الرأس وكل الجلود .. وقيل تنزع أطراف اليدين والرجلين وتنادي عمارها الذين خلقهم الله لها ممن أعرض عن الإيمان وتولى عن الحق ، وجمع الأموال فأمسكها في الأوعية ولم يؤد حق الله الواجب فيها وهي

« السماء كالهيل » كالمدن المذاب ، أو عكر الزيت . « الجبال كالعهن » كالصوف المصبوغ ألواناً . « حميم » قريب مشفق . « يبصرونهم » يعرف الأحباء أحماءهم . « فصيلته » عشيرته أو الأقربين . « تؤويه » تضمه في النسب ، أو عند الشدة .

الزكاة . قيل في معنى (تدعو) أنها تناديهم بلسان طلق ثم تلتقطهم ..
قال تعالى :

« إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُوا مَنۢ أَدْبَرَ
وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ (١٨) » .

بعد هذا أخذ سبحانه يذكر طرفاً من الأخلاق الذميمة التي جبل
عليها جنس الإنسان . فأخبر أنه جبل على الهلع وهو الجزع وعدم الصبر
أي يجزع للمصائب والنقم تنزل به ويضجر منها ولا يصبر عليها ، وهو
أيضاً يبخل بالفضل من الخير يصيبه ويمنع حق الله فيه ، غير أن الله
تعالى قد استثنى من العموم طوائف ارتفعت عن خصال الذم وتحلت بخلال
الخير وهم الذين يحافظون على صلواتهم المفروضة ويؤدونها بخشوع وطمانينة
والذين جعلوا في أموالهم قسطاً معلوماً - يعني الزكاة - لذوي الحاجات من
سائل ومحروم . أما السائل فهو الذي يبدأ بالسؤال ، وأما المحروم فهو
الذي لا مال له سواء كان لا يقدر على الكسب أو قد هلك ماله بآفة أو
نحوها . والذين يؤمنون بيوم الجزاء والحساب فيعملون في الدنيا عمل من
يرجو الثواب ويخشى العقاب . والذين يخافون الله ذلك لأن عذاب الله لا
يأمنه أحد إلا بأمان من الله تعالى . والذين يكفون فروجهم عن الحرام
ويبتعدون بها عن موضع الآثام فلا يقربون إلا ما أذن الله لهم فيه من الزوجات
والإماء من ملك اليمين ، فإنهم لا يلامون على ذلك إذا كان مما أحله الله
لهم ، ومن يزد فوق ما أحله الله له من الزوجات وملك اليمين فقد اعتدى
وتجاوز الحلال إلى الحرام . والذين يرعون الأمانة والعهد فإذا اتتمنوا لم يخونوا

(إنها لظى) جهنم ، أو طبق منها . (نزاعة للشوى) قلاعة للأطراف ، أو جلد الرأس .
(فأوعى) أمسك ما له في وعاء بخلا .

وإذا عاهدوا لم يغدروا والذين يقومون بأداء الشهادات على وجهها لا يزيدون فيها ولا ينقصون ولا يكتمونها ، والذين يحافظون على مواقيت الصلاة وأدائها بآركانها وواجباتها ومستحباتها فافتتح سبحانه بالصلاة أوصاف من تحلى من عباده بخلال الخير ، واختتمها بالصلاة أيضاً مما يشعر بشرفها للعناية بها وكثرة فضلها وثوابها . قال تعالى :

«إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمَ الَّذِينَ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْزَاجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنْ أَبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) .»

وقد وعد سبحانه أصحاب هذه الأوصاف بخير الجزاء . يكرمهم الله تعالى

(هلوعاً) سريع الجزع ، شديد الحرص . (جزوعاً) كثير الجزع والأسى . (منوعاً) كثير المنع والإمساك . (المحروم) من العطاء لتعفقه عن السؤال . (مشفقون) خائفون . (العادون) المجاوزون الحلال إلى الحرام .

بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، بالنعم المقيم الدائم في جنات الخلد . ثم وجه سبحانه الخطاب لرسوله محمد ﷺ منكرأ على الكفار صنيعهم في إقبالهم صوب رسول الله ﷺ مسرعين ، مديمي النظر إليه ، ثم لا يعملون بما أمرهم به ولا ينتفعون بما يستمعون إليه بل ينفرون منه جماعات تأخذ يمينا وشمالا متفرقة . قيل نزلت هذه الآية في جماعة من المستهزئين من المشركين فأنكر الله عليهم ذلك ، ورد عليهم زعمهم دخول الجنة حيث قالوا إن كانت ثمة جنة فنحن أهلها .. قائلا : هل يطمع من هذا حاله من النفور عن الحق والفرار عن الرسول أن يدخل كالسلم المطيع الجنة ينعم فيها حقاً ؟ ! إنهم لن يدخلوها ولقد علموا أنهم مخلوقون كغيرهم من نطفة ثم من علقه من ثم مضغة فليس لهم فضل يستوجبون به الجنة وإنما يتفاضل الناس بالأعمال وتستوجب الجنة بالإيمان والطاعة لا بالكفر والمعصية .. وأقسم سبحانه بنفسه وهو رب مشارق الشمس ومغاربها أنه قادر على إهلاكهم والإتيان بقوم آخرين غيرهم خير منهم وأمثل وأطوع لله وأكثر استجابة لرسوله ولن يعجزه ذلك إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . قال تعالى :

« أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَّمُونَ (٣٥) فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيُطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) » .

(مهطعين) مسرعين ، مادين أعناقهم إليك . (عِزِينَ) جماعات متفرقين . (فلا أقسم) أقسم و « لام » مزيدة . (بمسبوقين) مغلوبين أو عاجزين .

(مهطمين) مسرعين (عزين) متفرقين (بمسبوقين) مغلوبين أو عاجزين .
وعاد سبحانه بوجه الخطاب لرسوله متوعداً الكفار قائلاً : دعهم في
تكذيبهم وكفرهم وعنادهم وباطلهم إنهم سوف يلقون جزاء ذلك في اليوم الذي
وعدهم الله فيه بالجزاء والحساب .. ذلك اليوم الذي يخرجون فيه من القبور
مسرعين كأنهم يسرعون إلى أصنامهم في الدنيا . وأصل النصب ، كل ما نصب
للإنسان من علم أو غير ذلك فهو يقصد إليه مسرعاً ، وفي ذلك اليوم تكون
أبصارهم خاضعة ذليلة لا يرفعونها لما يتوقعونه من العذاب وقد غشيم الهوان .
قليل هو سواد الوجوه .. ذلك اليوم الذي وعدوا به في الدنيا هو يوم القيامة .
قال تعالى :

« فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي
يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سَرَّاعاً كَانَتْهُمْ إِلَى
نُصْبٍ يُوفُضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ
الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤) » .

(فذرهم) فدعهم وخليهم . (يخوضوا) لينغمسوا في باطلهم . (من الأجداث) من القبور .
(سراعاً) مسرعين إلى الداعي . (نصب) أحجار عظموها في الجاهلية . (يوفضون)
يسرعون . (خاشعة أبصارهم) ذليلة منكسرة . (ترهقهم ذلة) تفشاهم مهانة شديدة .

تفسير سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) ».

الإنذار هو الإعلام مع التحذير والتخويف ، ويذكر الله تعالى أنه أرسل رسوله نوحاً إلى قومه يحذرهم ويخوفهم من عذابه المؤلم ، وبأسه النازل بهم إن هم تمادوا في الطغيان وعبادة الأوثان . قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين في قوم نوح ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا فيها صور أولئك ليدذكروا حالهم وعبادتهم ، فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء الصالحين (انتهى) ولما تفاقم الأمر وانصرفوا عن الله بعث فيهم رسوله نوحاً يحذرهم عاقبة التماذي في هذه العبادة الباطلة ويخوفهم من عذاب الله . وصدع نوح بأمر الله والدعوة إلى توحيده وإخلاص العبادة له والخوف منه واتقاء عذابه بطاعته وطاعة رسوله نوح عليه السلام إذ جاءهم بأمر الله والبشارة بتحقيق وعد الله لمن آمن منهم بغفران الذنوب وتمديد آجالهم أو البركة في أعمارهم التي كتبها الله لهم ومنحهم العافية إلى نهايتها بحيث يقضون الأعمار المكتوبة في راحة وصحة ، وأخبر نوح قومه أن الموت وهو أجل الله المذكور في الآية نازل بهم لا محالة وطلب منهم الإيمان قبل حلول الموت ، فلا ينفعهم عند ذلك إيمان

لو كانوا يعلمونه . وسوف ينزل بهم نقمته في الآخرة وعذابه جزاء عدم إيمانهم وتكذيبهم . قال تعالى :

« قَالَ يَتَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخِرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) » .

وأضاف الله الأجل إليه سبحانه لأنه هو الذي أثبتته وقدره ، وأخذ سبحانه يقص الأدوار التي مر بها نوح في دعوته والطريقة التي سلكها امتثالاً لأمر الله ورغبة في هداية قومه فذكر مشاركته على الدعوة ليلاً نهاراً ، وأن ذلك لم يزد القوم إلا تباعداً عن الحق ونفوراً من الإيمان لدرجة أنه كلما دعاهم لما فيه مغفرة ذنوبهم من الإيمان وطاعة الله وضعوا أصابعهم في آذانهم لكيلا يسمعوا صوت الداعي وأسدلوا ثيابهم على وجوههم لكيلا يروه ثم كانت منهم الإصرار والمداومة على الكفر والاستنكاف عن اتباع الحق والانقياد له وذكر سبحانه تنويع نوح في الدعوة فكما ثابر عليها ليلاً ونهاراً كذلك ثابر أيضاً جهره بين الناس رافعاً بها صوته وسراً ينفرد بكل واحد منهم ويدعوه ، واستغل ناحية حرصهم على الدنيا وطالبهم بأن يطيعوا الله فيما يأمرهم به من عبادته وحده وأن يستغفروه مما فرط منهم من عبادة غيره ففي ذلك سعادة الدنيا بأن يغفر لهم ذنوبهم السابقة فهو سبحانه كثير الغفران للذنوب التائمين المنيبين إليه من عباده ، ويرسل عليهم الغيث متواصلاً ويكثر لهم الأموال والأولاد ، ويجعل لهم البساتين العظيمة تجري خلالها الأنهار . ولما لم يُجِدْ فيهم هذا الأسلوب في الدعوة خاطبهم بلهجة المستنكر وأخذ يسرد لهم الأدلة على عظمة الله وسعة قدرته مما

(إن أجل الله) وقت مجيء عذابه إن لم تؤمنوا .

يستوجب طاعته وتوحيده قائلاً : ما بالكم لا تخافون عظمة الله تعالى وبأسه ونقمته ؟ ولا تعظمونه حق عظمته وهو الذي أوجدكم من العدم في أدوار مختلفة وحالات بعد حالات ، نطفة ثم علقه ثم مضغه إلى أن جعلكم خلقاً سوياً . ثم ذكر لهم دليلاً آخر وهو خلق السموات وجعلها طباقاً واحدة فوق الأخرى وجعل القمر في السماء الدنيا نوراً . وإنما قال فيهن كما يقال أتيت بني تميم وإنما أتيت بعضهم وإذا كان القمر في إحداهن فهو فيهن جميعاً . وجعل الشمس مصباحاً مضيئاً ثم ذكرهم بمنة الله عليهم بخلق أبي البشر آدم وهو المراد من الإنبات المذكور في الآية التالية وكل البشر من ذرية آدم وبعد هذا الإنبات يعيدهم في الأرض بالدفن بعد الموت ثم يخرجهم من الأرض بالبعث وقت قيام الساعة وذلك من دلائل قدرته سبحانه ثم ذكر لهم نعمة أخرى من نعم الله عليهم وهي أنه جعل لهم الأرض فراشاً مهيئاً وثبتها بالجبال ليسلكوا منها طرقاً واسعة .. قال تعالى :

« قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَاحَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَآسْتَكْبَرُوا أَسْتَكْبَرًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلْ

(فراراً) تباعداً ونفوراً عن الإيمان . (استغشوا ثيابهم) بالغوا في إظهار الكراهية للدعوة . (أصروا) تشددوا وانهمكوا في الكفر .

السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَرًا (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) .

الفجاج : جمع فج وهو الطريق الواسعة . ولما لم يُخدِ هذا التنويع وتغيير أساليب الدعوة في قوم نوح شيئاً ، توجه نوح إلى الله شاكياً صنيع قوميه وعصيانهم ؛ واتبع الفقراء والسفلة منهم للأغنياء والرؤساء الذين وهبهم الله الأموال والأولاد فلم تزدتهم هذه النعم إلا ضلالاً في الدنيا وخسارة في الآخرة وقد كاد هؤلاء الأغنياء والرؤساء لنوح كيداً كبيراً حيث لم يؤمنوا به بل أخذوا يصدون أتباعهم عن الاستجابة والإيمان به والميل إليه ويغرونهم بإيذائه ويحضونهم على التمسك بعبادة آلهتهم وهي ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر .

أورد ابن كثير رحمه الله حديث ابن عباس عند البخاري قال : صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب من بعد وقد أضلت الأصنام أو أضلت الرؤساء والأغنياء بأمرهم بعبادة الأصنام خلقاً كثيراً في نهاية شكوى نبي الله نوح من

(يرسل السماء) المطر الذي في السحاب . (مِدراراً) غزيراً متتابعاً . (لا ترجون لله وقاراً) لا تخافون عظمة الله . (خلقكم أطواراً) مدرجاً لكم في حالات مختلفة . (سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا) كل سماء مقببة على الأخرى . (نوراً) منوراً لوجه الأرض في الظلام . (الشمس سراجاً) مصباحاً مضيئاً يمحو الظلام . (سُبُلًا فِجَاجًا) طرقاً واسعات .

قومه دعا عليهم بأن يزيدهم الله بعبادتهم للأصنام هلاكاً، وقيل خساراً؛ وقيل عذاباً . قال تعالى :

« قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً (٢١) وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسراً (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً (٢٤) » .

بعد ذلك أخبر سبحانه أنه انتقم منهم فأغرقهم بسبب خطاياهم وكثرة ذنوبهم وأعظمها الشرك، أغرقهم بالطوفان الذي قص الله خبره مفصلاً في سورة هود. وبعد إغراقهم أدخلهم النار ولم يكن لهم معين ولا مجير ينصرهم من عذاب الله ، وكرر نوح الدعاء على قومه فطلب من الله أن يهلكهم أجمعين وأن لا يبقی منهم (دياراً) أي أحداً يدور في الأرض فيذهب ويحيى من الدوران . وقيل من الدار ، أي نازلاً داراً وعلل هذا الطلب بأن الله سبحانه لو أبقي منهم أحداً لم يهلكه فإنه سوف يضل خلق الله وسوف لا يلد إلا من كان فاجراً في أعماله ، كثير الكفران لربه، وإنما قال نوح ذلك لحيرته بهم ولدراسته لأحوالهم وأخلاقهم أمدأ طويلاً حيث مكث بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وقيل إنما دعا بذلك حين أعلمه الله أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن به منهم ، فدعا

« خساراً » ضللاً في الدنيا وعقاباً في الآخرة . « مكرراً كُبَّاراً » بالغ النكبة في الكبر . « ودّاً ، سُوَاعاً ، يَغُوثَ ، يَعُوقَ . نَسراً » أصنام عبدها ثم انتقلت إلى العرب فكان ود للكب وسُوَاعٌ لِهَذِيل وَيَغُوثٌ لَظَفَان وَيَعُوقٌ لَهْمَذَان ونسراً لآل ذي الكلاع من حمير .

عليهم كما دعا رسول الله ﷺ على عتبة وشيبة وصحابهما فقال : اللهم عليك بهم ،
لعلمه بمآلهم وما كشف الله له عن أحوالهم ، وبعد أن دعا نوح على القوم الظالمين
دعا الله لنفسه ولوالديه ولمن دخل داره من المؤمنين والمؤمنات ، دعا للجميع
بالمغفرة وهي دعوة عامة إلى يوم القيامة ، وكرر الدعاء على الظالمين بالهلاك
والخسران . قال تعالى :

«مَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ
الْكَافِرِينَ دَبَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا
إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي
مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)» .

(دَبَّارًا) أحد يدور ويتحرك في الأرض . (تَبَارًا) هلاكاً ودماراً .

تفسير سورة الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) ».

أمر الله تعالى رسوله محمد ﷺ أن يخبر الناس أن الله تعالى أوحى إليه باستماع نفر من الجن لقراءته وذلك عندما كان عائداً من الطائف بعد دعوة ثقيف إلى الإسلام . وكان هذا الاستماع بوادي نخلة عندما كان يصلي الصبح أو بينما كان قائماً في الليل يتعبد وقد رجع الجن إلى قومهم قائلين : إنا سمعنا قرآنًا يتعجب من بلاغته وفصاحته يدعو إلى الصواب من إيمان بالله وتوحيد له ، فما لبثنا أن صدقنا به إذ علمنا أنه من عند الله ووحدها الله تعالى فلن نجعل له بعد اليوم شريكاً - وذكرت الجن أن الله تعالى جده ، أي تنزه جلاله مما نسب إليه من أن يتخذ صاحبة وولداً .

وذكرت الجن أن سفيهاً كان يقول الظلم والجور على الله وهو نسبة اتخاذ صاحبة والولد إليه . ويعنون بسفيهم إبليس ، وقيل هو اسم جنس لكل سفيه والمراد به من لم يسلم منهم ، وتقول أيضاً : إنها لم تكن تحسب أن الإنس والجن تتألا على الكذب في نسبة صاحبة والولد لله فلما سمعت القرآن

(قرآننا عجباً) كتاباً عجبياً بديعاً بليغاً . (الرش) الحق والصواب .

وآمنت به وعلمت منه مبلغ كذب الإنس والجن وافترائهم على الله؛ وقصت الجن خبر الإنس في استعاذتهم بهم إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً ، قال ابن كثير : كانت عادة العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجن أن يصيبهم بشيء يسوءهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وخفارته فلما رأت الجن استعازة الإنس بهم من خوفهم منه زادوهم رهقاً أي خوفاً وذعراً . قال تعالى :

« وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَاقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) » .

والشطط والاشتطاط قيل هو الغلو في الكفر ؛ وقيل الكذب لبعده عن الصدق . فيعبر به عن الجور لبعده عن العدل ؛ وعن الكذب لبعده عن الصدق .

« وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَّنَ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) » .

وذكر سبحانه أن الجن كانت تظن كما تظن الإنس أن الله تعالى لن يبعث رسولا بعد فترة الرسل « أي قبل بعثة الرسول محمد ﷺ » وقيل المراد بالبعث بعث الموت ، أي أن الجن كانت تنكر البعث . كإنكار الإنس له ؛ ثم اهتموا وأقروا به بعد سماع القرآن ، وعادت الآيات تواصل خبر الجن وأنها عندما طلبوا بلوغ السماء كعادتهم قبل مبعث الرسول ﷺ وهو المراد من قولهم في الآية التالية « لمسنا السماء » وجدوها قد ملئت من سائر أرجائها بالحراس

(تعالى) ارتفع وعظم . (جدّ ربنا) جلاله أو سلطانه ، أغناه . (يقول سفيها) جاهلنا « إبليس اللعين » . (شططاً) قولاً مفرطاً في الضلال . (يعوذون) يستعينون ويستجيرون . (زادوهم رهقاً) إثماً ، أو طغياناً وسفهاً .

الأقوياء من الملائكة وبالشهب من النجوم ؛ وقد كان لهم منها مقاعد لاستراق السمع فحرموا منها ومن يحاول أن يعود إلى استراقه للسمع الآن أي بعد البعثة الشريفة يجد شهاباً مرصوداً له ، لا يتخطاه بل يهلكه ، هذه المقاعد التي كان يقعد بها مسترقو السمع طردهم منها الحراس والشهب ولهذا عجبت الجن وقالت إنها لا تدري ما الذي حدث في السماء حتى منع استراق السمع ورمي من يحاوله بالشهب ، ولا تدري أيضاً هل المقصود من منع استراق السمع شراً أريد بأهل الأرض أم صلاح وخير لهم ، وقال الجن أيضاً : إن منهم صالحين وغير صالحين ، وقيل : كان منهم مؤمنون وكافرون وكانوا جماعات ومذاهب متفرقة وهو المراد من قولهم (كنا طرائق قديداً) فالطرائق المذاهب والقدر المختلفة ، يقال صار القوم قديداً إذا اختلفت حالاتهم وقال الجن أيضاً إنهم يعلمون موقنين بأنهم لا يعجزون الله تعالى لو أراد بهم أمراً ولا يعجزونه لو طلبهم مهما أمعنوا في الهرب ، وعاد الجن يذكرون أنهم عندما سمعوا القرآن من الرسول ﷺ آمنوا به وبالرسول وأنه رسول الله لأن من آمن بالله فلا يخشى نقصاً من حسناته ولا يرهق بالزيادة في سيئاته ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : البخس نقص الحسنات والرهق الزيادة في السيئات ، وذكر الجن أيضاً أنهم حتى بعد سماعهم للقرآن انقسموا إلى فريقين مسلمين مصدقين بنبوته محمد ﷺ وقاسطين (أي جائرون عادلون عن الحق) .

أما من أسلم فقد قصد طريق الحق وأما الجائر العادل عن الحق والإيمان فسوف تسمر به النار ويكون وقوداً لها جزاء إعراضه عن الهدى .

« وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا (٨) وَأَنَا كُنَّا

(حرساً شديداً) مُحرَّساً أقوياء من الملائكة . (شهباً) شعل نار تنقض كالنواكب . (شهاباً رصداً) راصداً ، مترقباً يرجه .

تَقَعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ لِسْمَعٍ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) وَأَنَا لَا نَذْرِي أَشْرًا أُرِيدُ يَمُنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا (١١) وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) .

ثم ذكر الله ما يفعله بهؤلاء وأمثالهم لو استقاموا .. قال تعالى :

« وَاللَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) . »

قال البغوي في تفسير هذه الآية : لو استقاموا على طريقة الحق والإيمان والهدى فكانوا مؤمنين مطيعين لأسقيناهم ماء غدقا كثيرا ، ومعناه لو آمنوا لوسعنا عليهم في الدنيا وأعطيناهم مالا كثيرا وعيشا رغدا ، وقوله تعالى : (لنفتنهم فيه) أي لنختبرهم كيف شكرهم فيما خولوا .

ومن يعرض عن القرآن يدخله الله عذابا شديدا ، والإعراض إن كان

« رشدا » خيرا وصلاحا . « طرائق قددًا » مذاهب متفرقة مختلفة . « ظننا » علمنا وأيقنا الآن . « فلا يخاف بخصا » فلا يخشى نقصا من ثوابه . « ولا رهقا » غشيان ذلة له . « منا القاسطون » الجاثرون عن طريق الحق . « لجهنم حطبا » للنار وقودا . « الطريقة » الملة الحقيقية ، ملة الإسلام . « ماء غدقا » كثيرا واسعا . « لنفتنهم فيه » لنختبرهم فيما أعطيناهم . « يسلكه » يدخله . « عذابا صعدا » شاقا يعلموه ويفلته فلا يطيقه .

من الكافرين فمعناه عدم القبول وعدم الإيمان به وإن كان من المؤمنين فمعناه ترك العمل به واتباعه .

ثم أخبر سبحانه أن المساجد وهي مواضع العبادة لله بمعنى أنه لا يصلح فيها الشرك وعبادة غير الله . قال قتادة : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعتهم أشركوا بالله فأمر الله المؤمنين أن يخلصوا الدعوة لله إذا دخلوا المساجد كلها . وقيل أراد بالمساجد بقاع الأرض كلها كما صح عن النبي ﷺ أنه قال « وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً » الحديث .. قال تعالى :

« وَأَنَّ أَلْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) . »

ثم أخذ سبحانه يصف حال الجن في استماعهم لرسول الله ﷺ في قراءته للقرآن وذلك عندما كان يصلي بوادي نخلة وأن بعضهم كان يركب بعضاً لحرصهم على الاستماع . وعبد الله المذكور في الآية التالية هو رسول الله ، ويدعوه قيل يعبد ، وقيل داعياً إلى الله . قال تعالى :

« وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) . »

ثم أمر الله رسوله محمداً ﷺ - أن يرد على المكذبين به من قريش الذين قالوا له إنك قد جئت بأمر عظيم ، عادت به الناس جميعاً فارجع عنه 'نجيرك' . ! أمره أن يرد عليهم بقوله إنما أعبد ربي وأستجير به وحده ولا أشرك به في عبادته أحداً وأمره أن يصارحهم بعجزه عن أن يجلب لهم خيراً أو يدفع عنهم ضراً إذ كان بشراً مثلهم ، وجلب النفع ودفع الضر بيد الله وحده ، وأمره أيضاً أن يخبرهم عن خوفه من الله وأن أحداً لا يستطيع أن يحيره منه لو عصاه أن ينقذه من عذابه لو خالف أمره ، ولن يجد عنه ملجأً يلجأ إليه وذلك عندما

(عبد الله) هو النبي صلى الله عليه وسلم . (عليه لبداً) متراكمين من ازدحامهم عليه .

طلبوا منه أن يترك الدعوة إلى الله ويخبرهم أيضاً أنه لا يملك إلا البلاغ أي تبليغ الرسالة . وقيل : لا يحيرني من الله أو يخلصني إلا إبلاغي للرسالة التي أوجب الله عليّ أداؤها فإذا أبلغت رسالة ربي ولم تستجيبوا لي بل بقيتم على كفركم وشرككم فإن الله تعالى أعد لمن يعرض عن أمره ويخالف رسوله ، أعد له ناراً يعذب فيها في الآخرة لا خروج له منها . ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء المشركين لا يزالون على ما هم عليه من التكذيب والشرك إلى أن يشاهدوا العذاب عياناً فيتضح لهم صدق ما وعدوا به ويعلمون عندئذ أي الحزبين أضعف ناصراً وأقل عدداً أحزب المؤمنين الذين أخلصوا العبادة لله أم حزب المشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر . قال تعالى :

« قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَّغْتُ مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَتِهِ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) » .

ثم أمر سبحانه الرسول أن يعلن للكافرين أنه لا يعلم موعد قيام الساعة ولا متى يحل العذاب الذي وعد الله به المشركين والجاحدين وهل سيكون قريباً أم يجعل الله له أمداً طويلاً فعلم ذلك عند الله وهو عالم الغيب فلا يطلع أحداً على الغيب إلا رسولاً اصطفاه لرسالته فيطلعهم على ما يشاء من الغيب ليكون معجزة يؤيده الله بها فيخبر عن بعض الغيب مما أطلعه الله عليه . ومن أجل ذلك فإنه يدخل بين يدي الرسول ومن خلفه رسداً ، أي حفظة من الملائكة : قيل يحفظونه من أن يقرب إليه شيطان - فيحفظ الوحي من استراق الشيطان

« لن يحيرني » لن يمتني وينقلني . « ملتحداً » ملجأ وحرزاً أركن إليه .

والإلقاء إلى الكهنة - وقيل يحفظونه من الشياطين ويعصمونه من تخاليطهم
ووسوستهم حتى يبلغ الوحي .. قال تعالى :

« قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمْدًا (٢٥)
عِلْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنْ أَرْتَضَى مِنْ
رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) » .

ثم ذكر الله أن ما سبق ذكره ليعلم الرسول أن الملائكة قد أبلغوا رسالات
ربهم . وقيل ليعلم الرسول محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو
الرسالة وعلم ما عندهم فلم يخف عليه منهم شيء . قال تعالى :

« لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ
وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨) » .

قال ابن عباس : أحصى ما خلق وعرف عدد ما خلق فلم يفته علم شيء حتى
مناقيل الذر والخردل .

(أمدأ) زماناً بعيداً . (رصدأ) حرساً من الملائكة يحرسونه . (أحاط) علم علماً تاماً
(أحصى) ضبط ضبطاً كاملاً .

طبع عظماني
دار البنان
للطباعة والنشر

هاتف ٢٥٧٤١-٢٩٤٢٠٤-٢٩٣٠٤٣
بغروت - لبنان - ص.ب ٥٦٢٠

مَقَرَّرُ الْفَيْسِيَرِ بِالسَّنَةِ الْأُولَى
بِرَأْسِ التَّوْحِيدِ بِمَعَالِمِ الْعَالَمِينَ الْأَوَّلِينَ بِالْمَدِينَةِ الْمَوْسُطَةِ

الْفَيْسِيَرُ الْمَوْسُطُ

فِي الْأَصْنَافِ الْمُتَقَبَّلَةِ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْفَيْسِيَرِ الْمُتَقَبَّلَةِ

الجزء الأول

أَلْفَهُ

عَبْدُ اللَّهِ خِيَاطُ

منشورات

مَكْتَبَةُ الْبَيْتِ الْبَيْتِ

جدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله

والصلاة والسلام على رسول الله

محمد وعلى آله وصحبه

أما بعد

فهذه هي الحلقة الأولى من كتاب (التفسير الميسر) نسقتها حسب منهج وزارة المعارف للسنة الأولى بدار التوحيد ، ومعاهد المعلمين الابتدائية ، والمدارس المتوسطة ، وتبتدىء من أول سورة المزمل ، وتنتهي بنهاية سورة الناس .

اعتمدت في وضعها على التفاسير المشتهرة المعتبرة ، التي تعنى بتقرير مذهب السلف ، رضوان الله عليهم .

أسأل الله تعالى

أن ينفع بها ، ويعينني على إتمام بقية السلسلة

إنه أكرم مسؤول

وصلى الله على خير خلقه ، محمد وآله وصحبه .

عبد الله خياط

تفسير سورة المزمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ (١) لَيْلٌ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفُهُ أَوْ أَنْقُصُ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) » .

(المزمل) المتلف بشيابه والمتغطي بها وأصله المتزمل - وقد أمر الله رسوله أن يترك التغطي والتلف والنوم ليقوم جزءاً من الليل لعبادة ربه ويبتن له سبحانه القدر الذي يقومه من الليل وخيَّره بين قيام نصف الليل أو النقص من النصف إلى الثلث أو الزيادة على النصف إلى الثلثين . فكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يقومون على هذه المقادير وأمره بالتمهل في قراءته . قالت عائشة رضي الله عنها : كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها . ثم أخبر الله الرسول صلى الله عليه وسلم أنه سوف ينزل عليه قولاً ثقيلاً وهو القرآن وقد ورد في معنى القول الثقيل أقوال للمفسرين منها أنه شديد ومنها أن العمل به ثقيل لما فيه من الأوامر والنواهي والحدود والفرائض والوعيد وبيان الحلال والحرام . ومنها أنه ثقيل في الميزان يوم القيامة . ومنها أنه ثقيل لما كان يلقاه النبي صلى الله عليه وسلم من الشدة عند نزول الوحي عليه حتى أن جبينه ليتفصد

(المزمل) المتلف بشيابه . (ورتل القرآن ترتيلاً) اقرأه بتأن وتمهل .

عرقاً في اليوم الشديد البرد وقد كان يثقل جسمه عليه الصلاة والسلام بذلك :
أوحى إليه وهو على ناقته فبركت به ، وأوحى إليه وفخذه على فخذه زيد
ابن ثابت فكادت أن ترض فخذه زيد . . ثم عاد سبحانه يذكر قيام الليل فأخبر
أن ناشئة الليل وهي ساعات القيام فيه أشد مواطأة أي موافقة بين القلب
واللسان وأجمع لتلاوة القرآن ، وأما النهار فأخبر سبحانه أن فيه جرياً وراء
المصالح وقضاء الحوائج وإقبالاً وإدباراً وفيه أيضاً فراغ طويل أي بعد قضاء
الحوائج ، ثم أمر رسوله أن يذكره ويعظمه ويتفرغ لعبادته وينقطع إليه ،
فالتبتل : الانقطاع لعبادة الله تعالى وتأميل الخير منه دون غيره وقيل : هو
رفض الدنيا والتماس ما عند الله تعالى فهو سبحانه المالك المتصرف في المشرق
والمغرب لا إله غيره ولا رب سواه وهو جدير بإفراده بالتوكل والاعتماد عليه
في جميع الأمور قال تعالى :

« إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ
وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرْ
أَسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) » .

(قولاً ثقيلاً) شاقاً أو شديداً . (ناشئة الليل) ساعاته التي يقوم المرء فيها للعبادة .
(هي أشد وطئاً) أكثر موافقة . . يوافق القلب فيها اللسان عند التلاوة . (أقوم
قيلًا) أصوب قراءة . (سبْحاً طويلاً) تصرفاً وتقلباً في حوائجك . (تبتل إليه تبتيلاً) انقطع
إليه في عبادته .

ثم أخذ سبحانه يعزي رسوله ويسليه عن تكذيب قومه له ويأمره بهجرهم هجرأ لا عتاب معه وهو الصفح الجميل بل يدارهم ويفضي عن زلاتهم ويتوعد سبحانه المستهزئين موجهاً الخطاب للرسول قائلاً : دعني وهؤلاء المكذبين المترفين أصحاب الأموال المنعمين سوف أكفيك أمرهم وأجازيهم .. فتمهل عليهم قليلاً .. فسوف يلقون جزاء ما عملوا . ثم بين سبحانه ما أعد لهم من ألوان العذاب في الآخرة فذكر الأنكال .. وهي القيود العظام يقيدون بها فلا تنفك أبداً . والنار المستعرة المضطربة .. والطعام الذي يغص به الآكلون إذ ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج - قيل هو الزقوم - والعذاب المؤلم ينزل بهم ، كل ذلك يوم تهتز وتزلزل الأرض والجبال وتتفتت الجبال فتصير ككثبان الرمل المهيل - والمهيل هو الرخو - الذي تهيله الريح أي تنشره . هكذا تصير الجبال في الآخرة بعد أن كانت حجارة صماء ، قال تعالى :

« وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النُّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا (١٤) » .

(هجرأ جميلاً) حسناً لا عتاب فيه . (أولي النعمة) أصحاب التمتع . (ومهلهم قليلاً) انتظر بهم . (أنكالاً) قيوداً . (ذا غصة) ينشب في الحلق . (ترجف الأرض) تتزلزل . (كثيباً مهيلاً) رملاً رخواً ينهال .

ثم وجه الخطاب بعد ذلك إلى كفار قريش والمراد به الناس عموماً على أعمالهم مثل ما أرسل إلى فرعون رسوله موسى وعندما عصى فرعون موسى انتقم الله منه انتقاماً (وبيلاً) أي شديداً وغلظاً . وبعرض قصة فرعون وموسى يخوف كفار قريش ومن هذا حذوهم في تكذيب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لأنه إذا كان الانتقام من كذب موسى شديداً فسوف يكون من كذب محمداً ، وهو أفضل من موسى ، أعظم وأشد . وذكر سبحانه بعد هذه القصة شيئاً من أهوال يوم القيامة يوجه للناس عامة قائلاً : كيف يحصل لكم الأمان إن كفرتم بالله من يوم يكون فيه الفزع العظيم فتشيب من أهواله شدته وكثرة بلابله الولدان وتتشقق السماء بسببه ومن هوله ، والوعد به كائن لا محيد عنه وواقع لا شك فيه .

ثم أشار بعد ذلك إلى تلك الآيات المتقدمة وما فيها من ذكر يوم القيامة وأهواله وقال إنها عظة يتعظ بها من شاء أن يسلك سبيلاً إلى الله بالإيمان به والتقوى والطاعة من شاء الله له الهداية .. قال تعالى :

« إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) »

(أخذاً وبيلاً) أي شديداً .

السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩) .

وعاد سبحانه في الآيات التالية يذكر قيام الليل وقد كان مشروعاً في الابتداء كما مرّ في أول السورة وأخذ يخاطب الرسول بقوله : إنه يعلم القدر الذي كان يقومه صلى الله عليه وسلم من الليل ، كان يقوم أقل من ثلثيه وأكثر من النصف منه . ويقوم النصف والثلث هذا تارة وذلك أخرى ، ويعلم أيضاً أن أصحاب الرسول كانوا يقومون من الليل نفس هذه المقادير غير أنه سبحانه لعلمه أنهم لا يستطيعون المواظبة على ذلك ؛ أولاً : لأنهم لن يستطيعوا ضبط الوقت ، فتارة يزيد الليل على النهار ويأخذ منه ، وبالعكس .. وتارة يعتدلان . ثانياً : لأنهم لن يستطيعوا إحصاء القدر الواجب عليهم قيامه ، فإن زادوا عن الواجب ثقل عليهم وإن نقصوا منه شق عليهم فلعلمه سبحانه بذلك رفق عنهم الحرج ورخص في القيام من غير تحديد بوقت وجعل لهم الخيار في قيام ما شاءوا من الليل وفي أي وقت شاءوا كيفما تيسر لهم ، وعبّر سبحانه عن الصلاة بالقراءة في قوله تعالى : (فاقرأوا ما تيسر من القرآن) كما قال تعالى في سورة الإسراء : (ولا تجهر بصلاتك) ذكره ابن كثير .

(السماء منفطر به) تشقق السماء بسبب أهوال يوم القيامة . (وعده مفعولاً) واقعاً لا محالة . (تذكيرة) تذكير موعظة .

ثم عاد سبحانه يذكر أن من أسباب الترخيص في قيام الليل أيضاً : علمه بأن في الأمة أصحاب أعذار كالمريض والمسافرين لغرض التجارة وابتغاء المكاسب والمشتغلين بالجهاد في سبيل الله ، كل هؤلاء لا يستطيعون قيام الليل ، ولهذا كان التخفيف والتخير في قيام ما تيسر من الليل كل بحسبه ، وكان هذا في صدر الإسلام ثم نسخ بفرض الصلوات الخمس على ما ذكره جمهرة من مفسري السلف .. بعد هذا أمر سبحانه بإقامة الصلوات المفروضة أي بأدائها على الوجه الأكمل المشروع وإعطاء الزكاة وهي حق المال المفروض ، والتصدق مع الزكاة وهو ما يعنيه بقوله (وأقرضوا الله قرضاً حسناً) فإنه جل شأنه يعطي على الصدقة أكرم عطاء وأجزله ولذلك رغب في عمل البر وأخبر أن كل ما يقدمه العبد من ذلك فهو خير مما يستبقيه لنفسه في الدنيا وأنه سوف يجد ثوابه في الآخرة أفضل مما أعطى وأعظم أجراً مما أخر .. وأمر سبحانه في ختام السورة بالاستغفار من الذنوب ووعد بغفرانها فهو سبحانه كثير الغفران لمن تاب إليه ، قال تعالى :

« إِن رَّبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّن

(تقوم أدنى) أقل . (أن لن تحصوه) لا تطبقون طول القيام .

مَرْضَى ، وَآخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِسُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ
وَآخِرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا . وَمَا تُقَدِّمُوا
لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ ، تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا ،
وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠) .

(يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ) يَسَافِرُونَ . (أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا) تَصَدَّقُوا .

تفسير سورة المدثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ
فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ
فَاصْبِرْ (٧) ».

(المدثر) أصلها المدثر ، والدثار ما يلتف به الإنسان من الثياب . روى جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كنت على جبل حراء فنوديت يا محمد إنك رسول الله فنظرت عن يميني وعن يساري فلم أر شيئاً فنظرت فوق فإذا هو قاعد على عرش بين السماء والأرض — يعني الملك الذي ناداه — فرعبت ورجعت إلى خديجة وقلت دثرتني ! فدثرته خديجة فجاءه جبريل وقرأ : (يا أيها المدثر : قم فأنذر) » والمعنى : يا أيها المتلفف بشيابه الذي تملكه الرعب من رؤية الملك ارم عنك دثارك وانفض الإنذار قومك والناس أجمعين من الشرك وعبادة غير الله التي يترتب عليها العذاب الأليم . (وربك فكبر) أي عظم ربك بالتوحيد ونزعه عن الشرك والمقائص .

(المدثر) المتلفف بشيابه . (أنذر) حذر . (فكبر) عظم . (فطهر) نق نفسك من الذنوب أو ثيابك من القذر . (الرجز) الأصنام أو المعاصي عموماً .

(وثيابك فطهر) قيل في تفسيرها جملة أقوال . قيل : إن الغرض من تطهير الثياب صونها عن النجاسات سواء كان بالتقصير لئلا تصل إلى الأرض أو بإزالة النجاسات منها بالغسل . وقيل : المراد بالتطهير ألا تكون مغصوبة بل تكون من كسب حلال . وقيل : المراد بالثياب الأعمال فهي تلبس المرء كما تلبسه الثياب ، والمراد بالتطهير إصلاحها وتخليصها من الشرك والمعاصي . وقيل : كان المشركون لا يتطهرون الطهارة الحسية فأمر الله رسوله أن يتطهر ويطهر ثيابه . قال ابن كثير : وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب فإن العرب تطلق الثياب عليه .

(والرجز فاهجر) الرجز الأصنام والأوثان وهجرها ترك عبادتها والتبرؤ منها وأهلها .

(ولا تمنن تستكثر) قال ابن عباس : لا تعط العطية تلمس أكثر منها . وقيل : لا تمنن بعملك على ربك تستكثر ، وقيل : لا تمنن بالنبوة والقرآن على الناس فتأخذ منهم أجراً تستكثر به .

(ولربك فاصبر) قيل : اصبر على طاعته وأوامره ونواهيه لأجل المثوبة على ذلك . وقيل : اصبر على أذى قومك لوجه ربك .

بعد ذلك طمأنه سبحانه بأن قومه سوف يجدون جزاء هذا الإيذاء يوم ينقر في الناقور أي ينفخ في الصور ، ووصف ذلك اليوم بأنه شديد وعسير وأكد ذلك بأنه غير هين وغير يسير . . قال تعالى :

« فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمٌ مَّيْدٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) » .

وانتقلت الآيات بعد ذلك يقص الله فيها خبر الوليد بن المغيرة وما كان من تنكره للنعم التي أنعم الله بها عليه من المال والولد والبسطة في الرزق والجاه وما كان من قوله في القرآن إنه سحر وما أعدّ له من عذاب الآخرة ، فتوعده الله أبلغ توعده بقوله : (ذرني) أي اتركني وفوضني فيه ، هذا الذي خلقته وأخرجته من بطن أمه لا مال له ولا ولد ثم جعلت له مالا كثيراً وجعلت له أولاداً حضوراً لا يغيبون عنه .. لغناهم وعدم احتياجهم للتكسب بالضرب في الأرض .. فيحرم من التمتع برؤيتهم .. وبسطت له العيش بسطاً ومكنته من صنوف المال والأثاث وجعلت له المال بعضه على بعض كما عهد الفرش .. ثم يرجو أن أزيده مالا وولداً وتمهيداً ؟ لا .. ! لن يكون ذلك .. ! ولن أجمع له بعد اليوم بين المال والمزيد من النعم فقد كان معانداً للقرآن كافراً به بعد معرفته وإيقانه أنه حق واعترافه أنه ليس من كلام الإنس ولا الجن . ثم قال (سأرهقه صعوداً) سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة فيها .. ورد في الحديث أن الصعود جبل من نار يصعد فيه الصاعد سبعين خريفاً ثم يموي كذلك .. وهكذا .. إلى ما لا نهاية .. قال تعالى :

«ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً (١٢) وَبَنِينَ شُهُوداً (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ

(ذرني) اتركني . (مالا ممدوداً) كثيراً . (بنين شهوداً) أولاداً حاضرين لديه . (مهدت له تمهيداً) بسطت له في الرزق وطول العمر بسطاً .

أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لَا يَأْتِنَا عَنِيداً (١٦) سَأَرْهُقُهُ
صُعُوداً (١٧) .

ثم أخذ الله تعالى يعدد جرائمه التي هددته من أجلها وتوعده فذكر أنه فكر وتروى فيما يختلقه من المقال في القرآن . ثم أنكر عليه كأنه يتعجب من جراته بالباطل على الحق فقال (قتل كيف قدر) أي لعن كما تقول : قاتله الله .. ثم كررها للتأكيد ووصف منظره وهو على هذه الحالة فقال : إنه أعاد النظر والتروي .. ثم قطب وقبض ما بين عينيه .. وكلسح وجهه واشتد في ذلك .. وبعد ذلك كله انصرف عن الحق وتعالى عليه حتى لا ينقاد للقرآن ثم قال : ما هذا إلا سحر يرويه محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم وليس هذا إلا قول بني الإنسان .. قال تعالى :

« إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) » .

(لا يأتينا عنيداً) معانداً . (سأرهقه صعوداً) سأكلفه مشقة من العذاب . (فكر وقدر) فكر فيما يختلقه ، تروى . (فقتل كيف قدر) أي لعن .. وهو دعاء عليه وتمعجب منه . (ثم نظر) أعاده النظر والتروي . (عبس) قبض ما بين عينيه . (بسر) زاد في العبوس كالمتم في شيء . (أدبر) عن الإيمان . (استكبر) تكبر عن الانقياد . (إلا سحر يؤثر) سحر يروى عن السحرة .

ثم ذكر الله ما أعد له من العذاب في الآخرة فأخبره أنه سيدخله (سقر) وهي من أسماء جهنم وكرر ذكرها تهويلاً لأمرها ، ثم فسر هذا التهويل ببيان ما تفعله بمن يلقى فيها فقال إنها تأكل اللحم والعروق والعصب والجلود فلا تبقي من ذلك شيئاً إلا أهلكته ثم يعود كما كان بعد أن يبدله الله بغيره وهم فيها مقيمون للعذاب لا يموتون ولا يحيون .. وأخبر سبحانه أيضاً أن جهنم (لَوْاحَةٌ للبشر) أي تغير لون البشرة حتى تدعها أشد سواداً من الليل ، وأن عليها تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها . قال تعالى :

« سَاصِلِيهِ سَقَرٌ (٢٦) وَمَا أُدْرِيكَ مَا سَقَرٌ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوْاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) » .

ثم أخبر سبحانه أنه جعل خزنة النار ملائكة غلاظاً شداداً لا يقاومون ولا يغالبون وذلك رد على قريش حين ذكر الخزنة فقال أبو جهل : يا معشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم مقاومة واحد منهم فتغلبونهم ؟ وأخبر سبحانه أنه ما ذكر عدد الخزنة إلا اختباراً للكفار وإضلالاً لهم حتى قالوا ما قالوه ، وليعلم ويتأكد أهل الكتابين - التوراة والإنجيل - أن ما أخبر به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من عدد خزنة النار حتى لأنه موافق لما في كتبهم وليزداد من آمن من أهل الكتاب تصديقاً بالنبي صلى الله عليه وسلم إذا وجدوا ما قاله

(ساصليه سقر) سادخله جهنم . (لواحۃ للبشر) مغيرة للجلد حتى تجعله أسود .

موافقاً لما في كتبهم ولثلاثي شك أهل الكتاب والمؤمنون في عدد الخزنة وليقول الذين في قلوبهم شك ونفاق والمشركون أيضاً : أي شيء أراد الله بهذا العدد القليل المستغرب استغراب المثل ؟ ثم أخبر سبحانه أنه كما أضل هؤلاء المشركين والمنافقين والمتشككين في عدد خزنة جهنم يضل أيضاً من يشاء من الخلق بعدله ويهدي من يشاء منهم بحكمته وأخبر سبحانه أنه لا يحيط أحد بعدد ملائكة العذاب وكثرتهم غيره سبحانه وذلك لثلاثي توهم متوهم أنهم تسعة عشر محصورون في هذا العدد فقط ، فتسعة عشر هم خزنة النار ولهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمهم إلا الله ، وعاد سبحانه يرجع القول إلى ذكر سقر فقال : وما هي - فيما أراد الله من ذكرها - إلا تذكرة وموعظة للناس . قال تعالى :

« وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ، وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ، وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِذَا مَثَلًا ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ ، وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١) » .

(وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) المراد بأصحاب النار خزنتها . (لا يرتاب) لا يشك . (في قلوبهم مرض) شك ونفاق .

ثم أقسم سبحانه بالقمر لعظم منافعه ، والله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته . أما المخلوق فلا يجوز له أن يقسم بغير الله . وأقسم سبحانه بالليل حين يدبر ويولي وبالصبح حين يشرق . أقسم بذلك كله أن جهنم حقاً لإحدى البلايا والدواهي الكبر وهي نذير للناس . قال الحسن : والله ما أنذر الله بشيء أدهى منها . وبين سبحانه أن هذا الإنذار قد حصل لكل واحد من آمن أو كفر ، لمن شاء أن يتقدم في الخير والطاعة أو يتأخر بالشر والمعصية فكل نفس مرتنة مأخوذة بعملها يوم القيامة . قال تعالى :

« كَلَّا وَالْقَمَرَ (٣٢) وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لإحدى الكُبرِ (٣٥) نَذِيرٌ لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) » .

ثم استثنى من هذا العموم أصحاب اليمين فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم ولكن يغفرها الله لهم ، وأصحاب اليمين قيل هم أصحاب السعادة المسلمون فإنهم فكروا رقابهم بأعمالهم الصالحة كما فك الرهان رهنه بأداء الحق . وقيل هم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم ، وقيل هم أطفال المسلمين لأنه لا أعمال لهم يرتهنون بها وقيل غير ذلك . وقد أنزل الله أصحاب اليمين في غرفات الجنات فأخذوا يتساءلون عن حال المجرمين وعن السبب في دخولهم النار فأجابهم المجرمون بقولهم : إنهم لم يكونوا يصلحون مع

(أدبر) ولى وذهب . (أسفر) أضاء وتبين . (إنها لإحدى الكبر) النار لإحدى العظائم . (رهينة) مرتنة بعملها .

المصلين ، ولم يكونوا يطعمون المساكين مما أعطاهم الله ، بل كانوا يشتركون في الباطل مع المبطلين ، وكانوا يكذبون بيوم الجزاء على الأعمال وهو يوم القيامة ، وأنهم ما برحوا على هذه الحال حتى فاجأهم الموت قال تعالى :

« إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ؟ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نَطْعِمِ الْمَسْكِينِ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) » .

ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء المتصفين بهذه الصفات لا تنفعهم شفاعة شافع . قال ابن مسعود رضي الله عنه : يشفع الملائكة والنبيون والصالحون وجميع المؤمنين فلا يبقى في النار إلا أربعة ثم تلا (قالوا لم نك من المصلين) إلى قوله : (بيوم الدين) .

وعادت الآيات تنقد صنيع الكافرين في إعراضهم عن مواعظ القرآن وما يدعو إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وشبههم سبحانه في إعراضهم ونفورهم عن الحق كحمر الوحش حين تنفر ممن يريد صيدها من الأسود فقوله : (قسورة) معناه الأسد وقيل جماعة الرماة لا واحد لها

(ما سلككم) ما أدخلكم . (نخوض مع الخائضين) نتكلم بالباطل فيما لا نفعل . (بيوم الدين) بيوم الجزاء . (اليقين) الموت .

من لفظها . وقيل الرجال الشداد وكل ضخم شديد عند العرب (قسورة) .

واستمرت الآيات في نقد تعنت كفار قريش بطلب كل واحد منهم أن ينزل الله عليه كتاباً منشوراً يأمره الله فيه باتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد زجرهم الله عن هذا الطلب بقوله (كلا) أي أنهم لا يعطون ما طلبوا . ثم ذكر سبحانه أن الذي حملهم على هذا الطلب عدم إيمانهم بالآخرة وعذابها ، ولو خافوا العذاب لما اقترحوا هذه الآيات على صدق الرسول بعد قيام الأدلة على صدقه . قال تعالى :

« فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَانَهُمْ حُرٌّ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً (٥٢) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) » .

ثم أخبر سبحانه أن القرآن موعظة ، فمن شاء الانتفاع به والاعتاظ جعله نصب عينيه وانتفع به ، غير أنه لا يتذكر ويتعظ بالقرآن إلا من شاء الله له الهداية وهو سبحانه أهل لأن يُتقى أي تجتنب محارمه وأهل لأن يغفر ذنوب من اتقاه وأتاب إليه . قال تعالى :

« كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦) » .

(التذكرة) مواعظ القرآن . (حر) جمع حار . (مستنفرة) نافرة . (قسورة) جماعة الرماة أو الأسد . (أهل التقوى) أحق أن يخاف منه . (أهل المغفرة) أهل أن يغفر لمن اتقاه .

تفسير سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢)
أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ
نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْتَلْ
أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ (٦) » .

قال ابن كثير رحمه الله قد تقدم غير مرة أن المقسم عليه إذا كان منتفياً جاز الإتيان (بلا) قبل القسم لتأكيد النفي . والمقسم عليه هنا هو إثبات المعاد . وقد أقسم سبحانه بيوم القيامة وهو يوم المعاد والجزاء والحساب ، وأقسم أيضاً بالنفس اللوامة وهي النفس التي تندم على الشر لم فعلته . وعلى الخير لم لم تستكثر منه . ثم رد سبحانه على منكري البعث المستبعدين إعادة الأجساد رد عليهم بقوله : (أيحسب الإنسان أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ) أي بعد التفرق والبلى . قيل إن ذلك رد على

(لا أقسم) أقسم و « لا » زائدة . (النفس اللوامة) كثيرة الندم على ما فات . (نسوي بنانه) أنامله ، أي نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخف البعير . (يفجر أمامه) يمضي قدماً في معاصي الله . (أيان) متى .

من سأل رسول الله قائلًا : أوّ يجمع الله العظام ؟ قال تعالى : (بلى قادرين على أن نسوي بنانه) أي أنّ الله تعالى قادر على إعادة العظام بالبعث بعد فنائها في التراب وعلى جمعها من أماكنها المتفرقة .. بل قدرته سبحانه فوق كل ذلك .. فهو قادر على أن يسوي بنانه .. أي أطراف أصابع يديه ورجليه فيجعلها شيئًا واحدًا كخف البعير وحافر الحمار فلا ينتفع بها في القبض والبسط وسائر الأعمال اللطيفة كالكتابة والخطاطة وغيرها .

ثم أخبر سبحانه أن الإنسان لا يحفل أن ربه قادر على بعثه وجمع عظامه ولكنه يريد أن يضي قدمًا في معاصي الله ما عاش يقدّم الذنب ويؤخر التوبة .. قال ابن عباس : المراد بالإنسان الكافر المكذب بيوم الحساب يكذب بما أمامه من البعث والحساب ولهذا يسأل عنه في الآية الأخرى مستبعدًا وقوعه فيقول (أيا ن يوم القيامة) متى يكون ؟ كأنه غير منغمس فيه ! ومن هنا وصف هذا العمل بالفجور .

بعد ذلك أخذ الله سبحانه يعدّد شيئًا من أهوال يوم القيامة . فذكر بروق البصر أي شخوصه وتحيره وانبهاره من شدة الرعب . وذكر خسوف القمر أي ذهاب ضوئه . وذكر اجتماع الشمس والقمر ، قيل يجمع بينهما فيظلمان من المغرب وقيل يجمع بينهما في ذهاب الضياء وقيل غير ذلك . وعند رؤية هذه الأهوال يحاول ابن آدم الهرب من شدة الرعب والفرح فيتساءل إلى أين يكون الفرار والمعتصم ؟ فيجيب بأنّه ليس ثمة من مفر ولا مستقر إلا إلى الله ، فهو مرجع الخلائق وإليه مصيرهم .

قال تعالى :

« فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) » .

وعندئذ يخبر الإنسان بكل ما قدمه من الأعمال حين العرض والحساب :
قديمها وحديثها أولها وآخرها صغيرها وكبيرها .. وقيل يخبر بما قدمه قبل الموت من عمل صالح أو سيئ وما ادخره بعده من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها من بعده اقتداء به .. ثم أخبر سبحانه أن الإنسان حجة على نفسه لا يحتاج إلى أن ينبئه غيره أو يشهد عليه بما فعل غير نفسه . فسمعه وبصره ويدها ورجلاه وجوارحه كل أولئك شهيد عليه ولو حاول أن يعتذر عن نفسه وعن صنيعه . قال تعالى :

« يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥) » .

بعد هذا أخذ سبحانه يوجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطريقة المثلى في تلقي الوحي . فأمره أن لا يعجل بتحريرك لسانه وشفته حين استماعه من الملك حالة إبلاغه الوحي كما كان يفعل . بل يصبر حتى يفرغ الملك

(برق البصر) حار . (خسف القمر) ذهب ضوءه . (جمع الشمس والقمر) جمع بينها في ذهاب الضوء . (لا وزر) لا حصن ولا ملجأ . (المستقر) المرجع والصير . (معاذيره) اعتذاراته .

من تبليغ ما أمره الله بتبليغه .. ووعد الله الرسول أن يجمعه له في صدره ويثبت قراءته على لسانه بحيث لا ينساه أو يتفقت منه مع بيان معناه وإلهامه شرحه على ما أراد جل وعلا . قال تعالى :

« لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) » .

(قرآنه) أي قراءته . (قرآنه) أي قرأه الملك .

ثم عاد سبحانه إلى ذكر السبب في إنكار البعث والتكذيب بيوم القيامة وأوضح أن السبب هو حب الدنيا والعمل لها وترك الآخرة والتشاغل عنها فخطب المكذبين بقوله (كلا) أي ليس الأمر كما تظنون أيها المكذبون ! إنما حكمكم على التكذيب حبكم للدنيا وهوكم بها وتشاغلكم عن الآخرة .. ! وفرق بين حال المؤمنين والمكذبين الكافرين في الآخرة : المؤمنون لهم من متاع الآخرة النظر إلى وجه الرب الكريم مع نضرة وجوههم وهو غاية النعيم والكرامة بخلاف الكافرين فإن وجوههم عابسة كالحة مسودة مغبرة قد أيقنوا أن سوف تنزل بهم داهية عظيمة وأمر شديد وهو دخول النار . قال تعالى :

(لتعجل به) تسابق الملك في قراءته . (إن علينا جمعه وقرآنه) جمعه في صدره ثم تقرأه . (قرآنه) أي تلاه عليك الملك . (فاتبع قرآنه) استمع إليه وأنصت . (بيانه) إيضاحه .

«كَلَّا بَلْ تُحِيبُونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وَجُوهُ
يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢٣) وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ
بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) » .

وفي قوله تعالى (إلى ربها ناظرة) حجة لأهل السنة في إثبات رؤية الله تعالى للمؤمنين دون الكافرين وقد ورد من الأحاديث الصحيحة في إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة عياناً بأبصارهم ما لم يحجده إلا أهل الزيغ والضلال .

ثم أخبر سبحانه بنهاية مرحلة العبد في الدنيا وانقطاع صلته بها بالموت وما يسبق الموت من حالة الاحتضار وما يعاني العبد من حشرة إذا بلغت الروح إلى التراقي وهي العظام بين ثغرة النحر والعاتق وما يكون فيه أهل المحتضر من البلبلة والاضطراب فيطلبون له من يرقيه مما ألم به أو يشفيه وهيئات أن تجدي رقية أو علاج وقد أيقن المحتضر أنه مفارق الدنيا والتفت عليه الشدة بالشدة . شدة الموت بشدة الآخرة إذ أصبح في آخر أيام الدنيا وأول أيام الآخرة وهو المراد بقوله تعالى (والتفت الساق بالساق) وقيل في معناه أيضاً : اجتمع فيه الحياة والموت ، وقيل المراد ساقا المحتضر إذا التفتا بعد موته في الكفن فإلى الله مرجعه ومردّه وهو مسوق إليه قبل يوم القيامة وقد كان في دنياه يكذب

(العاجلة) الدنيا . (ناضرة) حسنة مشرقة . (إلى ربها ناظرة) تنظر إلى ربها عياناً .
(باسرة) عابسة مسودة . (فاقرة) داهية عظيمة .

بالحق ، لا يؤمن به ولا يعتقدده ، ويعرض عن العمل به بجوارحه ثم يذهب مع ذلك متبختراً إلى أهله مختالاً في مشيته .. قال تعالى :

« كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ
الْفِرَاقُ (٢٨) وَالَّتِفْتُ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ
الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢)
ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) . »

(يتمطى) أصله يتمطط أي يتمدد لأن المتبختر يمد خطاه ، قيل المراد بهذا
هو أبو جهل .

ثم توعده الله صاحب تلك الصفات وعيداً مؤكداً ساخراً به لكفره واختياله
قائلاً : يحق لك أن تمشي هكذا وقد كفرت بخالقك .. ! وأخذ يتساءل سبحانه
ويقول : أظن هذا الكافر المتبختر أنه سوف يهمل لا يؤمر ولا ينهى ، ويهمل
في الآخرة لا يبعث ولا يجازى ؟ أو لم يكن مخلوقاً من مني مهين يراق من أصلاب
الرجال في أرحام النساء ثم تدرج في الخلق فكان بعد المني علقه ثم مضغة ثم
تشكل ونفخ فيه الروح فصار خلقاً سوياً ذكراً أو أنثى .. أو ليس القادر على

(التراقي) العظام التي بين ثغرة العاتق والنحر . (راق) طبيب يرقى ويداوي .
(التفت الساق بالساق) المراد ساقا الميت التصقتا ببعضهما . (المساق) المرجع والمصير .
(يتمطى) يتبخر .

هذا الخلق السوي بقادر على إحيائه بعد موته كما بدأه ، قال تعالى :

« أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ (٣٥) أَيْحَسَبُ
الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُنْ نَطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧)
ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ
وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠) .

(أوى لك فأوى) كلمة تهديد ووعيد . (يترك سدى) يترك مهملاً لا يؤمر ولا ينهى .
(يمنى) يصب في الأرحام .

تفسير سورة الانسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) ».

يخبر الله سبحانه أنه خلق الإنسان وأوجده من عدم بعد أن كان زمنًا طويلًا شيئًا لا يذكر لحقارتته وضعفه ، وبين سبحانه الأطوار التي مر بها الإنسان في خلقه ، فخلقه في بطن أمه من ماء ، ثم جعله علقة فمضغة فعظامًا ثم كسا العظام لحماً وكان هذا الإيجاد من العدم والخلق لاختبار الإنسان بالتكليف والقيام بالأوامر والنواهي . وقد جعل له سبحانه سمعاً وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية وبين له طريق الخير والشر وسبيل الحق والباطل والهدى والضلال فانقسم الناس إلى موحد طائع ومشارك عاص . أو إلى فريقين : شقي ضل واقتبع طريق الهالكين ، وسعيد امتثل أمر ربه وشكره وسلك طريق الراشدين .

(هل) قد . (حين) زمن طويل . (أمشاج) أخلاط . (نبتليه) نختبره . (هديناه السبيل) بيننا له طريق الخير والشر .

ثم بيّن ما أعدّه للفريقين من الجزاء في الآخرة فقال عن الكافرين إنه هيا لهم النار أشد ألوان العذاب .. هيا لهم (سلاسل) يسحبون بها (وأغلالاً) توضع في أيديهم وتقل بها أعناقهم (وسعيراً) وهي النار المستعرة شديدة الوقود ، بخلاف الأبرار وهم المؤمنون الصادقون المطيعون ، فقد هيا لهم من النعم في رفيع الجنان ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .. هيا لهم مشرباً لذيذاً .. خيراً بارداً مزج بالكافور - قيل المراد بالكافور بياضه وطيب ريحه وبرودته - هذا الشراب هو من عين في الجنة يتصرف فيها الأبرار ويقودونها حيث شاءوا إلى قصورهم ومجالسهم .. قال تعالى :

إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) .

وأخبر سبحانه أن هذا النعم هو جزاء أعمالهم الطيبة في الدنيا فقد كانوا فوق ثباتهم على ما أوجبه الله عليهم من الطاعات ألزموا أنفسهم بواجبات أخرى بطريق النذر ووفوا بها وتركوا المحرم عليهم خوف سوء الحساب يوم المعاد وحذراً مما يكون فيه من الشرور العظيمة المنتشرة التي تعم الخلائق إلا من رحم الله ، وكانوا يتصدقون بالطعام

(اعتدنا) هيأنا . (أغلالاً) قيوداً . (سعيراً) ناراً . (مزاجها) ما تنزج به . (كافوراً) الكافور : طيب له رائحة زكية . (يفجرونها تفجيراً) يقودونها حيث شاءوا من منازلهم .

على المسكين وهو الفقير الذي لا مال له ، وعلى اليتيم وهو الصغير الذي لا أب له ، وعلى الأسير ، قيل الأسير على إطلاقه ، وقد أمر رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأسرى . وقيل الأسير هو المملوك ، وقيل الزوجة ، وكانت إحسانهم إلى هؤلاء بإطعامهم على حبهم للطعام وقلته وحاجتهم إليه ، وقيل يطعمون على حب الله ويقولون مع الإطعام بلسان الحال (إنما نطعمكم لوجه الله) ورجاء ثوابه لا نريد على هذا الإطعام مكافأة ولا شكراً من الناس لأننا نخشى عذاب الله فلعل الله يرحمنا من عذابه في اليوم العبوس القمطرير ، والعبوس الذي تعبس فيه الوجوه من هوله ، والقمطرير الشديد الطويل في البلاء .. قال تعالى :

« يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) » .

وعاد سبحانه في الآيات يذكر بقية ما هباً للأبرار من النعيم والكرامة فأخبر سبحانه أنه أمن خوفهم من شرور ذلك اليوم وأعطاهم نضرة أي حسناً وبهاء في وجوههم وسروراً في قلوبهم وأنزلهم - جزاء صبرهم على الطاعات واجتنابهم للمنهيئات وإطعامهم ذوي الحاجات وإيثارهم

(مستطيراً) منتشرأ مبتدا . (عبوساً) تعبس فيه الوجوه لأهواله (قمطريراً) أي شديداً أشد ما يكون من الأيام في البلاء .

على أنفسهم - جنة ينعمون فيها بالمنزل الرحب والعيش الرغد واللباس الحسن، ويتكثرون فيها على السرر ولا يحسون في الجنة بحرارة شمس ولا بشدة برد، وتقرب منهم ظلال الأشجار، وسخر لهم ثمارها تسخيراً عجيماً بحيث لا يتعبون في قطفها بل يأكلون منها قياماً وقعوداً ومضطجعين دون مشقة أو عناء ويتناولونها كيف شاءوا ويطوف عليهم الخدم بأواني الطعام وهي من الفضة وبأكواب الشراب وهي من الكيزان من غير عرى، ومع أنها من الفضة إلا أنها شفافة جمعت بين صفاء الزجاج وشفافيته وبياض الفضة، وقد قدر السقاة لهم من الخدم مقدار الشرب فيها بحيث يكون الكأس على قدر الشراب الموضوع فيه لا يزيد ولا ينقص، بل هو على قدر حاجة الشارب وتلك منتهى العناية والإكرام. ويسقى الأبرار في هذه الأكواب خمرًا ممزوجة بالزنجبيل وكانت العرب تستطيب الزنجبيل فوعدهم الله أن يسقيهم في الجنة الكأس الممزوجة بالزنجبيل الجنة. ومبالغة في الكرامة يمزج لهم الشراب بالكافور قارة وهو بارد وبالزنجبيل أخرى وهو حار ليعتدل الأمر، والزنجبيل هو عين في الجنة (تسمى سلسبيلًا) سميت بذلك لسلاسة مائها وحدة جريها وقيل لسلاستها في الخلق وقيل لأنها سلسلة منقادة، تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم.

قال تعالى :

« فَوَقَّيْهِمُ اللَّهُ شُرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّيْهِمُ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١)
وَجَزَّيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى

(نضرة) حسنًا في وجوههم .

الْأَرَاثُكَ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ
ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّنْ
فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَرُوهَا
تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧)
عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨) .

ثم أخذ سبحانه يذكر أوصاف خـدم الأبرار وسقاتهم فذكر أنهم
(ولدان) أي من صغار الخدم لا يموتون ولا يهرمون ولا يتغيرون .
وهو المراد من قوله تعالى : (مخلدون) إذا رآهم الرائي منتشرين في قضاء حوائج
الأبرار مع كثرتهم وحسن ألوانهم وثيابهم حسبهم اللؤلؤ في رونقه وحسنه وهو
منتشر .

ثم أخذ سبحانه يخاطب الرسول ﷺ قائلا : (وإذا رأيت ثم)
أي هناك في الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحبور
والسرور رأيت مملكة لله عظيمة وسلطانا باهرا .. ثبت في الصحيح أن

(الأراثك) السرر عليها الأستار . (شمساً ولا زمهريراً) لا حرأ مزعجاً ولا بردأ
مؤلأ . (دانية) قريبة . (ذلت) قربت للمتناول . (قطوفها) ثمارها . (أكواب)
آنبة شراب لا عرى لها ولا خراطيم . (قوارير من فضة) في بياض الفضة وصفاء
الزجاج . (قدروها) جعلوا الشراب فيها على قدر حاجة الشارب . (كأساً) خمرأ .
(زنجبيل) مزوجة بالزنجبيل . (سلسبيل) سلمة منقادة .

الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً إليها « إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها » .

ثم ذكر سبحانه نوع لباس أهل الجنة فقال إن عليهم ثياباً من الحرير وهي على صنفين صنف رقيق وهو السندس 'يلبس مما يلي البدن كالقمصان'، وصنف غليظ وهو الإستبرق له بريق ولعان يلبس من الظاهر . ويلبسون أيضاً 'حلياً' في أيديهم وهي الأساور من الفضة .

أما شرابهم فقد وصفه تعالى بأنه طهور قيل في معناه إنه طاهر لم تدنسه الأيدي والأرجل عند عصره كخمر الدنيا ، وقيل هو عين على باب الجنة من شرب منها نزع الله ما في باطنه من الغل والحقد والحسد وسائر الأخلاق الرديئة . ويقال لأهل الجنة حين يشاهدون هذا النعيم : هذا جزاء أعمالكم الصالحة وسعيكم في الدنيا بطاعة الله تعالى ، جزاءهم الله على القليل من العمل في الدنيا بالكثير من الفضل في الآخرة . قال تعالى :

« وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْشُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلُكًا كَبِيرًا (٢٠) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (٢٢) » .

(ولدان) جمع وليد وهو الصغير . (مخلدون) لا يكبرون ولا تزيد أعمارهم من سن الوليد . (ثم) بفتح الثاء : هناك . (عاليهم) عليهم . (سندس) حرير رقيق . (استبرق) حرير غليظ .

بعد ذلك أخذ سبحانه يمتن على رسوله بإنزال القرآن عليه تنزيلاً أي متفرقاً ولم ينزله جملة واحدة وطلب مقابل هذه المنة العظيمة أن يصبر (لحكمه) ولما قدره عليه وقضاه في تبليغ الرسالة من تحمل المشاق والأذى .. وأمره ألا يطيع (آثماً أو كفوراً) من قومه .. الآثم هو الفاجر في أفعاله ، والكفور هو الكافر قلبه . وقيل أشخاصاً بأعينهم كأبي جهل والآية عامة لكل من ينطبق عليه وصف الآثم أو الكفور .

وأمر سبحانه أن يذكره في بكور الأيام وأصائلها أي في أوائلها وأواخرها ، قيل : أراد بالذكر الصلاة وبالبكرة صلاة الفجر وبالأصيل صلاتي الظهر والعصر ، وبقوله : (ومن الليل فاسجد له) صلاة المغرب والعشاء ، وقيل أراد بهذه الآية صلاة التطوع في الليل .

ثم أخذ سبحانه ينكر على الكفار ومن شابههم تقديم (العاجلة) أي الدنيا على (الآخرة) ويقول (إن هؤلاء) يحبون الدنيا ونعيمها الزائل ويتركون ما يكون أمامهم من الحساب في اليوم الشديد الأهوال وهو يوم القيامة فلا يؤمنون به ولا يعملون له .

ثم أخذ سبحانه يذكر إيجادهم من العدم وأنه سبحانه أحكم خلقهم وهو المراد من قوله تعالى : (وشددنا أسرهم) وقيل : شدنا أسرهم أي أوصاهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب وإذا شاء إهلاكهم أهلكتهم وأتى بقوم آخرين بدلاً منهم !

وختم الآيات سبحانه بقوله : إن هذه السورة بما فيها من ترغيب ووعد ووعيد وغير ذلك هي (تذكرة) وعظة للمتأملين (فمن شاء) الخير لنفسه فليتقرب إلى الله بطاعته واتباع أمره واجتناب نهيه فذلك خير مسلك

يوصله إلى الله . على أن مشيئة العبد لا توصله إلى ما يريد من الهداية (إلا أن يشاء الله ذلك له) . ليس في مقدور أحد أن يهدي نفسه أو يجر لها نفعا إلا بمشيئته تعالى ، والله أعلم بمن يستحق الهداية فييسرها له ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى بعدله وحكمته البالغة ، ولا يظلم ربك أحداً . فمن كتب له الهداية أدخله في رحمته ومن كتب عليه الشقاء لما يعلم من سريره ونفسه هيا له في الآخرة عذاباً أليماً . قال تعالى :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمْ آيْمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١) » .

(بكرة وأصيل) أول النهار . (العاجلة) الدنيا . (يذرون) يتركون .
(يوماً ثقيلاً) يوماً شديداً . (شددنا أسرهم) أحكنا خلقهم .

تفسير سورة المرسلات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ
نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ
نَذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ (٧)» .

أجمع جمهور المفسرين على أن (المرسلات) الرياح ، و (عرفاً) متتابعة
أي الرياح التي أرسلت متتابعة ، ومثل المرسلات (العاصفات) أي
التي تعصف بشدة فيكون لها دوي وصوت مرتفع ، و (الناشرات)
قيل هي الرياح أيضاً تنشر السحاب في آفاق السماء كما يشاء الله عز وجل ،
وقيل الملائكة الموكلون بالسحب ينشرونها . (الفارقات فرقا) هي
الملائكة تنزل بأمر الله على الرسل تفرق بين الحق والباطل والهدى
والضلال والحلال والحرام فتلقي إلى الرسل وحياً فيه إعدار إلى الخلق
وإنذار لهم من عقاب الله إن خالفوا أمره .. يقسم الله تعالى بكل

« المرسلات » الرياح . « عرفاً » متتابعة . « العاصفات » الشديدة الهبوب . « الناشرات »
الرياح التي تنشر السحاب . « الفارقات » الملائكة تأتي بما يفرق بين الحق والباطل .
« الملقيات ذكراً » الملائكة تلقي الوحي والذكر إلى الأنبياء . « عذراً أو نذراً » تلقي الذكر
لإزالة الأعداء والتخويف من سوء العاقبة .

ذلك : بالرياح في هبوبها المتتابع وعصفها وبالرياح إذا نشرت السحاب في آفاق السماء ثم بالملائكة الذين ينزلون بالوحي من عند الله فيه ما يفرق بين الحق والباطل وفيه الإعذار إلى الخلق والإنذار لهم . يقسم الله بكل هذه الأشياء أن وعده في أمر قيام الساعة والبعث وجزاء كل نفس بما عملت .. كل ذلك .. كائن لا محالة !

ثم أخبر بوقت وقوع ذلك وهو حين يذهب ضوء النجوم ويتمحي نورها ، وإذا فرجت السماء أي تشققت وتدلّت ، وإذا نسفت الجبال أي قلعت من أماكنها فلا يبقى لها أثر ، وإذا جمع الرسل لميقات يوم معلوم وهو يوم القيامة ليشهدوا على الأمم وهو المراد من قوله تعالى : (أقتت) وقيل : أجلت . ثم تساءل سبحانه قائلا : (لأي يوم) أخر أمر الرسل والفصل بينهم وبين أممهم وشهادتهم على أممهم ، وأجاب على هذا التساؤل بقوله : (ليوم الفصل) أي أجل أمرهم ليوم فصل الرحمن بين الخلائق . وكرر سبحانه ذكر يوم الفصل بصيغة الاستفهام فقال : (وما أدريك ما يوم الفصل) لتعظيمه وتهويل أمره . ثم قال : (ويل يومئذ للمكذبين) أي : ويل لهم من العذاب في جهنم في ذلك اليوم . قال تعالى :

« فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ
نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقْتَتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ؟ (١٢) »

« طُمِسَتْ » ذهب ضوءها ، « فُرِجَتْ » انشقت . « نُسِفَتْ » قلعت من أماكنها .
« أُقْتَتَتْ » جمعت للوقت المحدد .

لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَذْرِيكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيَلُومُ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ (١٥) .

وبعد أن حذر سبحانه الكافرين من يوم الفصل وأهواله أخذ يذكر سبحانه لونا آخر من التخويف ويعدد ما أنزله بالأمم الماضية المكذبة للرسل من الهلاك والعذاب في الدنيا ، كقوم نوح وعاد وغيرهم . وأنه سوف يتبع بالهلاك المكذبين من المتأخرين كالمكذبين من قريش لرسول الله ﷺ ، ومثل هذا الصنيع في العذاب والهلاك سوف يفعل بكل مجرم لأن سنة الله في جميع المجرمين واحدة لا تتغير . قال تعالى :

« أَلَمْ نُنْهِكَ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيَلُومُ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ (١٩) .

وأخذ بعد ذلك سبحانه يمتن على العباد بخلقهم من ماء مهين وهو النطفة الحقيمة الضعيفة ، وجعل هذا الماء في الأرحام مستقراً متمكناً إلى مدة معينة هي وقت الولادة ، وقدرته سبحانه على تصوير الإنسان كما أراد في أحسن صورة (فنعلم) الباري جل جلاله في بديع صنعه والويل لمن كذب بالبعث فإن من قدر على الإنشاء من العدم قدر على الإعادة . قال تعالى :

« أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١)

« ليوم الفصل » ليوم القيامة . « ماء مهين » حقيق وهو النطفة . « فجعلناه في قرار مكين » جمعه الله في موضع حصين وهو الرحم .

إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيَلُ
يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) .

ثم بيّن الله جانباً مما قدر عليه في صيغة سؤال فذكر أنه جعل
(الأرض كفاتاً) تضم العباد على ظهرها (أحياء) وفي بطنها (أمواتاً)
وذكر أنه جعل في تلك الأرض جبلاً (رواسي) مستقرة (شاخات)
ضخمة جداً ومرتفعة لثلاثين وتضطرب فلا يحصل الانتفاع بها ولا الاستقرار
عليها ، وذكر سبحانه أنه سقى عباده (ماء فراتاً) أي عذباً بشق الطرق ،
بالعيون والآبار والأنهار والأمطار ، ثم ختم هذا المعنى وهذه الآيات بما ختم
به الآيات السابقة فتوعد المكذبين بهذه الآيات بالويل في ذلك اليوم ..
قال تعالى :

« أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا
فِيهَا رَوَاسِيَ شَاخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيَلُ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) . »

ثم أخبر سبحانه ببعض ما أعده للكافرين المكذبين بالمعاد من الجزاء
فقال إنهم يؤمرون يوم الحساب بالانطلاق إلى ما كانوا يكذبون به في

(إلى قدر معلوم) إلى مدة معينة وهي مدة الحمل . (فقدرونا) كنا قادرين على
ذلك . (كفاتاً) وعاء ؛ ومعنى الكفت : الضم والجمع ، تضمهم أحياء على ظهرها في
الدور وتجمعهم أمواتاً يحوفها في القبور . (رواسي) جبلاً . (شاخات) هاليات .
(فراتاً) عذباً .

الدنيا وهو العذاب ، وبيّنه سبحانه بقوله (ظل ذي ثلاث شعب) ذلك هو دخان جهنم إذا ارتفع انشعب وافترق ثلاث فرق ، وهو لا يُظِلُّ من الحر ولا يغني من لهب النار . وأخبر سبحانه أيضاً أن جهنم ترمي شررها كأنه في ضخامته وعظمته القصر العظيم ، أو الحصن ، وكأنه الجبال السود في اللون فإن العرب تسمي الأبل السوداء صفراً لأن سوادها يشوبه شيء من الصفرة ، ذكره البغوي . وجاء في الحديث : « هي جبال السفن تجمع إلى بعض حتى تكون كأوساط الجبال » . ثم ختم الله هذه الآيات بقوله : ويل يومئذ للمكذبين يوم لا يجحدون ما يدفعون به العذاب عن أنفسهم . قال تعالى :

« انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِلْتُ صُفْرٍ (٣٣) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) » .

ثم أخبر سبحانه عن حال الكافرين المكذبين بيوم المعاد فقال : إنهم يوم القيامة لا يقدرّون على الكلام ولا يؤذن لهم فيه للاعتذار عما أسلفوه من الكفر والتكذيب ، فقد قامت عليهم الحجة . ثم ختم الآيات بما هو معروف من توعد المكذبين به .. قال تعالى :

(ظل ذي ثلاث شعب) المراد به دخان جهنم إذا ارتفع انشعب إلى ثلاث شعب . (لا ظليل) لا يظل من الحر . (ولا يغني من الهب) لا يرد لهب جهنم . (كالقصر) كالبناء الضخم . (جمالة صفر) أبل صفر أو سود .

« هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيَلُوكَ يَوْمَئِذٍ الْمُكْذِبِينَ (٣٧) » .

ثم كرّر سبحانه القول عن يوم الجزاء وأخبر أنه (يوم الفصل) أي الذي يفصل فيه بين الخلائق ويحزي كلا بعمله ، ويحاسب فيه على النقيير والقطمير . ولأجل هذا الجزاء والحساب جمع المكذبين به والجاحدين له من أمة محمد مع المكذبين للرسول من الأمم السابقة ، وطلب من الكفار أن يحتالوا لأنفسهم في الخلاص من العذاب إن كان لهم حيلة تنفعهم ، وذلك على سبيل التعجيز والتبكيث . ثم عاد إلى توعدهم بالويل في هذا اليوم الذي عجزوا فيه عن دفع العذاب عن أنفسهم والاحتياط لخلاصهم . قال تعالى :

« هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيَلُوكَ يَوْمَئِذٍ الْمُكْذِبِينَ (٤٠) » .

وبعد أن بيّن سبحانه حال أصحاب الجحيم من المكذبين بيوم الدين وما أعدّه لهم من ألوان العذاب والنكال ، بيّن أحوال عباده المتقين الذين قاموا بأداء الواجبات وترك المحرمات واجتنبوا الشرك في العبادات . فأخبر أنهم يوم القيامة على العكس من أولئك المكذبين . وأنهم ينعمون تحت ظلال الأشجار الوارفة ويشربون من ماء عيون الجنان ويأكلون من كل أنواع الثمار وكل ما يشتهونه من فواكه يتلذذون بها ، ويقال لهم على سبيل الإحسان

إليهم (كلوا واشربوا) وتنعموا جزاء قيامكم بطاعة الله تعالى في الدنيا .
وبمثل هذا الجزاء يثيب الله كل من أحسن العمل وقام بأداء ما افترض عليه ، ثم
عرج على المكذبين بهذا الجزاء العادل فتوعدهم بعد أن وصف ما وعد به المتقين .
قال تعالى :

« إِنَّا لَآمِتَّةَيْنِ فِي ظُلُلٍ وَغُيُونٍ (٤١) وَفَوَاحِيهٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢)
كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذًا لِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيَلُوكَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) » .

ثم أخذ سبحانه يأمر المكذبين الجاحدين أمر تهديد ووعيد قائلاً :
(كلوا وتمتعوا) في الدنيا إلى آخر آجالكم فإن أجل الدنيا محدود
ومتاعها قليل ، وبعد هذا المتاع القليل في الدنيا سوف تساقون إلى العذاب
لأنكم مشركون كافرون بربكم ، مكذبون بوعده ، مستحقون لعذابه ،
قال تعالى :

« كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ (٤٦) وَيَلُوكَ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) » الذين تعرضوا لعذاب الله لتكذيبهم بهذا اليوم .

ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء المكذبين كانوا في الدنيا عن عبادة الله
مستكبرين ، وعن الركوع لله غير مستجيبين ، والمراد بالركوع الصلاة جميعها .
قال تعالى :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيَلُوكَ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) » .

أي بأوامر الله ونواهيه ، قال ابن عباس : إنما يقال لهم ذلك في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون .

وختم سبحانه السورة بالتعجب من حال هؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن الذين لم ينتفعوا بعظاته ولم يؤمنوا بآياته ؛ وفيها الأدلة الناطقة بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم والبراهين الواضحة على أن هذا القرآن كلام الله ومنزل من عند الله ، يقول الله تعالى متعجباً : فإذا كانوا لا يؤمنون بالقرآن الذي فيه أخبار الأولين والآخرين وقصص المكذبين وما أنزل الله بهم من العذاب الأليم . فأي كلام بعد القرآن يؤمنون به ؟ قال تعالى :

« فَبَيِّضْ حُجَّتَهُ بِعُدَّةِ يَوْمِئِذٍ (٥٠) » . *

(*) بنهاية سورة المرسلات ، ينتهي مقرر السنة الأولى بالمعهد في التفسير .

تفسير سورة النبأ

وتسمى سورة (عم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ
مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) » .

عم . أصله « عن ما » فأدغمت النون في الميم وحذفت ألف ما فصارت
« عم » كما يقال فيم ، فهي لفظة استفهام ، والمعنى : عن أي شيء يسأل المشركون
بعضهم بعضاً ، ثم أجاب عن هذا السؤال بقوله : (عن النبأ العظيم ، الذي هم
فيه مختلفون) أي الخبر العظيم الشأن الذي اختلفوا في أمره ، والمراد به البعث
بعد الموت وغدوا فيه بين رجلين منكر له أو شاك فيه ، وقيل المراد بالنبأ
العظيم القرآن ، وغدا الناس فيه بين مؤمن به وكافر . أما كلا سيعلمون فهو تهديد
ووعيد بعد وعيد ، أي سيعلمون عاقبة تكذيبهم في الآخرة عندما تنكشف
الأمور ..

بعد هذا أخذ سبحانه يعرض جملة من الأمور الدالة على عظيم قدرته والتي
يستنتج منها أن من كان قادراً على إيجاد هذه الأمور العظيمة فهو على الإعادة
والبعث أقدر ، فذكر سبحانه أنه جعل الأرض مهاداً أي كالفرش

(عم) عن أي شيء . (النبأ العظيم) الخبر الهائل وهو البعث بعد الموت .

المهد بحيث يُقيم عليها الناس والدواب وهي قارّة ثابتة ، وأرساها بالجبال فجعلها لها أوتاداً لتسكن فلا تضطرب ، وجعل من الخليفة ذكراً وأنثى ، وجعل النوم قطعاً للحركة لتحصل به راحة الأبدان من الكد في أمر المعاش ، وجعل سبحانه الليل ساتراً للعباد حيث يغطي الخليفة بظلامه .. وعلى عكسه النهار جعله سبحانه مبصراً نيّراً ليتمكن الناس فيه من التكسب والسعي في أمر المعاش ، وخلق سبع سموات محكمة متقنة الخلق ليس فيها شقوق ولا فطور ، وجعل الشمس مضيئة منيرة ، فالوهج يجمع بين النور والحرارة . وأنزل سبحانه من المعصرات وهي السحاب مطراً كثيراً الانصباب متتابعاً ، ليخرج بهذا الماء المبارك الكثير جميع أنواع الحبوب مما يأكله الناس ، ويخرج به أيضاً نباتاً وهو ما تنبتة الأرض مما تأكله الأنعام من العشب ، وليخرج به البساتين الناضرة والحدائق فيها من جميع الثمار المتنوعة ، مجتمعة فيها الأشجار وهو معنى (ألقافاً) أي ملتفة بالشجر . قال تعالى :

« أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً (٧) وَخَلَقْنَاهُ أَزْوَاجاً (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتاً (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً (١٢)

(مهَاداً) مهادة . (أزواجاً) أصنافاً : ذكوراً وإناثاً . (سباتاً) راحة لأبدانكم . (لباساً) ساتراً كاللباس . (معاشاً) وقتاً للمعاش .

وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً
ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) .

وبعد أن وجه أنظار العباد إلى دلائل قدرته الباهرة مستدلًا بها على البعث ،
أخذ يخبر عن يوم الفصل وهو يوم القيامة وأت له وقتاً محدداً وميعاداً للأولين
والآخرين ، ولما وعد به من الجزاء والثواب ، وذلك يوم النفخ في الصور للبعث
والخروج من القبور ، حيث يأتي الناس إلى موضع العرض زمرراً وجماعات كل
أمة مع رسولها ، وحيث تتشقق السماء فتكون طرقاً ومسالك لنزول الملائكة ،
وتصير ذات أبواب ، وتزحزح الجبال عن أماكنها فلا يكون لها ثبات ، بل
تكون كالسراب يراه الراي من بُعد فإذا اقترب منه لا يرى شيئاً ..
قال تعالى :

« إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ
فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ
الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) » .

وبعد أن ذكر سبحانه يوم الفصل وما يكون فيه من العرض والجزاء
وتشقق السماء وزحزحة الجبال عن أماكنها ذكر ما يكون بعد ذلك من
المرور على متن جهنم وما أعده للكافرين من العذاب وما هيأه للمؤمنين

(سراجاً) شمساً . وهَّاجاً يجمع فيه النور والحرارة . (المعصرات) السحاب .
(ثجاجاً) منصّباً بكثرة . (أَلْفَافاً) ملتفة بالشجر . (أفواجاً) جماعات . (سراباً)
كالسراب في ترائيها للعين وذهابها .

من النعم ، فقال إن النار مرصدة ومعدة للكافرين المكذبين برسل الله . وقيل في معنى (مرصداً) أيضاً موضع الرصد تنتظر الكفار ليدخلوها ، وقيل هي طريق وممر فلا سبيل لأحد إلى الجنة حتى يقطع النار ..! ومعنى (مأباً) أي مرجعاً ومصيراً ومنزلاً ، وسوف يمكث الكفار فيها آماداً طويلة ودهوراً لا نهاية لها كلما انقضى زمن تجدد لهم زمن آخر ، وهم على ذلك لا يحدون في جهنم ، طوال هذه المدة ، برداً ينفعهم من حر السعير ، ولا شراباً يروهم من العطش إلا الحميم والفساق ، والحميم هو الماء الحار في منتهى درجة الحرارة ، والفساق هو صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم ، وهذا العذاب الذي نزل بهم هو وفق أعمالهم في الدنيا وكفرهم بالله وتكذيبهم رسله ، ولأنهم كانوا في الدنيا لا يخافون أن يحاسبوا على أعمالهم ، ولا يعتقدون بوجود دار يحزرون فيها على سيئاتهم ، وكانوا يكذبون بجميع الأدلة والبراهين الدالة على توحيد الله والنبوة والمعاد ويجمع ما جاء به القرآن ، يكذبون به تكذيباً . وقد أحصى الله كل أعمال العباد وكتبها عليهم وسيجزئهم بها إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ويقال لأهل النار تينيساً لهم من الكف عن العذاب بل إخباراً لهم بالزيادة منه ألواناً (ذوقوا) ما أنتم فيه من العذاب (فلن نزيدكم إلا عذاباً) من جنس هذا العذاب .. قال تعالى :

« إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً (٢١) لِلطَّاغِينَ مَأْباً (٢٢) لَبِيشِينَ

فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا
وَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وَفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧)
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩)
فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) .

ثم انتقلت الآيات يخبر الله فيها عما هيأه لعباده المتقين من النعيم المقيم ،
فذكر أن لهم فوزاً ونجاة من النار ، قال ابن عباس : متنزهاً . ثم فسّر هذا
الفوز والنعيم بقوله : إن لهم حدائق أي بساتين فيها من جميع النخيل والشجر
المثمر والعنب ، ولهم كواعب جمع كاعب وهي الجارية الناهد لم يتبدل ثديها ،
وقيل كواعب أي عذارى ، وأتراباً أي في سن واحدة ، ولهم كأس
من الخمر ملأى متتابعة ، ومع هذا الشراب لا تتغير عقولهم فيحدث منهم
ما يحدث للشاربين في الدنيا من اللغو وهو الكلام الباطل ، ولا يسمعون كذاباً
أي لا يكذب بعضهم بعضاً ، فالجنة دار السلام ليس فيها كلام لاغ عار عن
الفائدة ، ولا إثم أي كذب . وقد جازاهم الله بهذا الجزاء وأعطاهم إياه بفضل
وإحسانه عطاء كثيراً وافياً . يقال أحسبت فلاناً أي أكثرت له العطاء حتى
قال : حسبي . قال تعالى :

« إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ

(أحقاباً) مدداً طويلة . (حمياً) حارة . (غساقاً) قيحاً وصديداً . (كذاباً)
تكذيباً . (مفازاً) فوزاً ونجاة . (كواعب) جمع كاعب . وهي الفتاة التي استدار
ثديها .

أُتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا
كِذَّابًا (٣٥) جَزَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا (٣٦) .

ثم أخبر سبحانه عن عظمته وجلاله ، وأنه خالق السموات والأرض وما
بينهما والمدير لشؤونهما والمتصرف فيهما ، وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل
شيء ، ولا يقدر أحد من الخلائق على مخاطبته إلا بعد إذنه ، وذلك يوم القيامة ،
(يوم يقوم الروح) - هو جبريل - وتقوم الملائكة مصطفين لا يقدر أحد
منهم أن يتكلم ، أي يشفع ، إلا من أذن الله له في الشفاعة ، فلا يشفع إلا فيمن
كان يقول في الدنيا قولاً صواباً وهو أن يُقر بالتوحيد ويعمل به ، وقيل
لا يستطيع أحد من الخلائق جميعاً أن يتكلم بإجلال الله وهيبته منه إلا من أذن
الله له في الكلام ، وكان ممن يقول في الدنيا حقاً ويعمل به ، والحق هو الشهادة
لله بالتوحيد .

ثم نوه سبحانه عن عظمة يوم القيامة بأنه اليوم الذي لا شك في
وقوعه ، فمن شاء الأمن فيه فليتخذ وسيلة بطاعة الله والعمل الصالح
الذي يقربه من ربه وينال به الأمن من عذابه .. وعاد سبحانه لتخويف
الكفار وإنذارهم فقال سبحانه : إنه أنذرهم من العذاب يوم القيامة ، وهو
قريب لتأكيد وقوعه عندما ينظر المرء ما قدم من أعمال صالحة وسيئة ، وما
صنعه في الدنيا من خير وشر ، فيستبشر المؤمن بوعد الله له على الجزاء
الحسن ، أما الكافر فيودّ حين يرى العذاب وحين يشهد أن كل أعماله

(أتراباً) مستويات في السن . (كأساً دهاقاً) ممتلئة . (عطاء حساباً) كافياً وافياً .

السيئة قد سطرت عليه ، يود أنه كان في الدنيا تراباً ولم يخلق ولم يخرج إلى الوجود .. قال تعالى :

« رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَأُئِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمُرءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠) » .

(الروح) جبريل . (صواباً) قولاً صحيحاً لا شطط فيه ولا خروج . (مآباً) مرجعاً .

التفسير الميسر - أول «٤»

تفسير سورة النازعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) » .

اختلفت عبارات المفسرين في هذه الكلمات هل هي صفات لشيء واحد أم لأشياء مختلفة .. وقد أقسم سبحانه بهذه الأشياء على أن القيامة حق لا ريب فيه . والنازعات جاء في تفسيرها عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من مفسري السلف أنها الملائكة تنزع أرواح بني آدم ، فمهم من تأخذ روحه بعسر وتبالغ في نزعه من جسده تعذيباً له .. وهذه أرواح الكفار .. ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وهذه أرواح المؤمنين تقبضها بسهولة كما ينشط العقال من يد البعير إذا حل عنه وهو تفسير قوله تعالى : (والناشطات نشطاً) . وأما (السابحات سبحاً) فهي الملائكة

(النازعات) الملائكة تنزع أرواح الكفار . (غرقاً) بعسر وشدة . (الناشطات) الملائكة تقبض أرواح المؤمنين . (نشطاً) بسهولة . (السابحات) الملائكة تنزل من السماء مسرعة بأمر الله . (فالسابقات) الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة . (فالمدبرات أماً) الملائكة تدبر الأمر من السماء إلى الأرض بأمر الله .

في طريقة قبضها لأرواح المؤمنين : تسليها من الجسد سلا رقيقاً بسهولة
ثم تدعها تستريح كالذي يسبح في الماء فأحياناً ينغمس وأحياناً يرتفع .
(فالسابقات سبقاً) هي الملائكة أيضاً تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة
وقيل الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح . (فالمدبرات أمراً) هي
الملائكة أيضاً . ولم يختلف أحد من المفسرين في تفسيرها بالملائكة ، تدبر
الأمر من السماء إلى الأرض بأمر الله عز وجل فكل منهم موكل بعمل حسب
أمره تعالى وتدبيره .. ومن أول السورة إلى هنا قَسَمَ أقسم الله به وجواب القسم
مضمرة كأنه قال : والنازعات غرقاً ، وكذا وكذا إلى نهاية القسم والجواب :
لتبعن ولتحاسبن .

ثم حدد الله هذا البعث والحساب بأنه سيحدث يوم تتحرك وتزلزل
الأرض والجبال ويموت جميع الخلق لسماع (الرّاجفة) وهي النفخة
الأولى وصفت بما يحدث بحدوثها ثم (تلبعها) أي تتلوها النفخة الثانية
وهي (الرادفة) ردت الأولى وبينهما أربعون سنة كما جاء في الحديث ،
فالأولى غيمت كل شيء ، والثانية تحيي كل شيء بإذن الله تعالى أي للبعث
والحساب . فإذا وقف العباد في موقف العرض على الله لحسابهم عندئذ
تكون قلوب الكافرين الجاحدين للبعث في الدنيا والمستبشرين لوقوعه
(واجفة) أي خائفة وأبصار أصحابها ذليلة حقيرة بما عاينت من أهوال
القيامة ، ذلك لأنهم كانوا لا يصدقون بهذا اليوم ويقولون في غرابة
واستنكار وتعجب : هل بعد الموت وبعد أن نصير (عظاماً نخرة)
بالية نرد إلى (الحافرة) أي إلى أول أمرنا فنصير أحياء ؟ وقيل
الحافرة وجه الأرض التي تحفر فيها قبورهم ، فحافرة بمعنى محفورة ،

يستغفرون رجعتهم بعد الموت أحياء على الأرض ويقولون : لئن صح هذا البعث وهذه الكرة أي الرجعة للحياة بعد الموت ، فنحن اذن خاسرون لأننا كذبنا بها ، وهو استهزاء منهم ومبالغة في الكفر وعدم التصديق بالبعث ، فرد الله عليهم قائلاً : إنما هي النفخة الأخيرة إذا أمر الله بها فلا راد لأمره وسوف يكون جميع الخلائق على وجه الأرض يخرجون من قبورهم إلى المحشر . قال تعالى :

« يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (١٤) » .

ثم أخذ سبحانه يسلي الرسول صلى الله عليه وسلم عن تكذيب قومه بذكر قصة نبي الله موسى مع فرعون ملك مصر حين أرسله الله ليدعوه إلى عبادة الله وتوحيده ، فقال سبحانه مخاطباً الرسول : هل سمعت أو جاءك خبر (موسى) حين كلمه الله بالوادي المبارك المطهر المسمى (طوى) فقال له : (اذهب إلى فرعون) فإنه تجاوز الحد في التكبر والطغيان ، وقل له : هل ترغب في أن تتطهر من الآثام وتسلك مسلكاً

(الراجفة) النفخة الأولى . (الرادفة) النفخة الثانية بعد الأولى . (واجفة) مضطربة .
(خاشعة) ذليلة . (الحافرة) وجه الأرض . (نخرة) بالية . (كرة خاسرة) رجعة خائبة .
(زجرة) صيحة . (بالساهرة) على وجه الأرض .

تتركى فيه نفسك وتطيع به ربك ، وأدلك إلى عبادة ربك فيصير قلبك خاشعاً مطيعاً بعد أن كان قاسياً متجبراً ؟ وأظهر موسى لفرعون أدلة واضحة على صدقه بأنه مرسل إليه من عند الله ، قيل : هي العصا التي ألقاها في الأرض فصارت حية تسمى ، ويده التي أدخلها في جيبه فخرجت بيضاء تتلأ ، ومع ذلك كذب فرعون موسى وكذب بالحق الذي جاء به مع وضوح الأدلة عليه ، وعصى الله ولم يلتزم الإيمان بل أخذ يكابر ويزعم أن موسى ساحر ، وأن ما جاء به هو السحر لا المعجزة الباهرة ، وأخذ يسعى في الأرض بالفساد ؛ ومن الفساد أنه جمع السحرة ليقابل بسحرهم وباطلهم الحق الذي جاء به موسى والمعجزة التي أيده الله بها ، وجمع جنوده وأعوانه ثم قال لهم : (أنا ربكم) الذي لا رب فوقى ؛ فانتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالا لأمثاله من الجاحدين ؛ ففي الدنيا بالفرق وفي الآخرة بالعذاب الأليم في النار، وإن في هذا الانتقام الذي انتقمه الله من فرعون حين كذب وعصى لعظة لمن يتعظ وزجراً لمن يزدجر . قال تعالى :

« هَلْ أَتَيْكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَذْبَرَ

(بالواد المقدس) المطهر . (طوى) اسم الوادي . (طغى) تجاوز الحد . (الآية الكبرى) معجزة انقلاب العصا حية .

يَسْعَى (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤)
فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن
يَخْشَى (٢٦) .

ثم أخذ سبحانه ينكر على منكري البعث ويحتج عليهم قائلًا : أخلقكم بعد الموت أشد وأصعب عندكم وفي تقديركم أم خلق السماء مع عظمها؟ وفي ذلك استنتاج لعظمة قدرة الله تعالى وإلزام لمنكري البعث بأن من قدر على خلق السماء مع عظمها قادر على خلق الإنسان الضعيف وقادر على إعادته بعد الموت أيضاً . وأخذ سبحانه يذكر كيفية خلق السماء فقال إنه (رفع سمكها) أي سققها وقيل جعل مقدار ارتفاعها عالياً . (فسواها) أي جعل خلقها مستويًا لا تفاوت ولا شقوق ولا فطور ، وجعل ليلها مظلمًا ، يقال غطش الليل إذا أظلم ، وجعل نهارها ظاهرًا واضحًا . ثم وصف سبحانه كيفية خلق الأرض فقال سبحانه : إنه دحا الأرض بعد خلق السماء ، والدحو معناه البسط . وعن ابن عباس قوله : (دحاها) أي أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار وجعل فيها الجبال والسهل والأكام ثم ذكر أنه فجّر من الأرض العيون والينابيع والأنهار وأنبت فيها النباتات سواء أكان قوتًا لبني آدم كالحب والتمر ، أم قوتًا ترعاه الماشية كالأعشاب والحشائش ، وثبت الجبال في أماكنها وجعلها كالأوتاد لئلا تميد الأرض بأهلها وتضطرب ، وفعل كل ذلك

ليتمتع به سكان الأرض مدة بقائهم عليها . قال تعالى :

« أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا
فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ
بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١)
وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَّعْنَاكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) » .

وبعد أن بيّن سبحانه قدرته العظيمة مستدلاً عليها بخلق الأكوان ونشر
الأموات أخذ يبيّن صدق ما أوحى به إلى الرسل من أن ذلك اليوم الذي
ينشر فيه الأموات حق لا مرية فيه ، فإذا جاءت طامته الكبرى ، وهي النفخة
الثانية التي يكون فيها البعث وتقوم القيامة ، حينئذ يتذكر ابن آدم كل ما عمله
من خير أو شر في الدنيا ، وتظهر النار ظهوراً بيّناً فيراها الناس عياناً ،
فمن تجاوز الحد في العصيان وقدم الدنيا على الآخرة وآثر لذتها على ثواب الآخرة
فإن النار مسكنه ومستقره (وأما من خاف) وقوفه بين يدي الله وحسابه له
(ونهى) نفسه عن الوقوع فيما حرم الله عليه فإن الجنة سوف تكون مسكنه
ومستقره . قال تعالى :

« فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ

(سمكها) سقفاها . (فسواها) جعلها مستوية . (أغطش) أظلم . (أخرج ضحاها) أظهر
نهارها . (دحاهها) بسطها . (الطامة الكبرى) القيامة .

مَا سَعَى (٣٥) وَبُرِّزَتْ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧)
وَأَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمُلُوءَى (٣٩) وَأَمَّا
مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ أَهْوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ
هِيَ الْمُلُوءَى (٤١) .

ثم أخبر سبحانه أن المشركين كانوا يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم عن الموعد الذي تقوم فيه القيامة وعن تحديد وقتها استهزاء منهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يردد ما يقولون ، قالت عائشة رضي الله عنها : لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت هذه الآية (فيما أنت من ذكرها) أي لست في شيء من علمها وذكرها حتى تهتم لها وتذكر وقتها ، فمردة علمها إلى الله وحده ومنتهى خبرها إليه ، إنما مهمتك التخويف والإنذار بأهوالها من بأس الله وعذابه ، وإنما ينفع إنذارك من يخشى ذلك . أما الكافرون فإنهم حين يفاجئون بها ويخرجون من القبور يستقصرون مدة الحياة الدنيا كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضحى تلك العشية . وقيل كأن لبشهم في القبور كان قدر عشية أو ضحاها . قال تعالى :

(برزت) أظهرت وأبرزت . (الجحيم) النار . (المأوى) المكان والمستقر .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسُهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَى (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥) كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) » .

(أَيْانَ مَرَسَاهَا) مَتَى ظَهَرَهَا وَقِيَامُهَا . (مُنْتَهَاهَا) نَهَايَةُ عِلْمِهَا . (عَشِيَّة) آخِرُ النَّهَارِ .
(ضُحَاهَا) أَوَّلُ نَهَارِهَا أَيْ نَهَارُ الْمَشْيَةِ .

تفسير سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ
يَزْكَى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ أَسْتَفْنَى (٥)
فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكَى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ
يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) » .

نزلت هذه الآية في عبد الله بن أم مكتوم ، وكان رجلاً أعمى جاء إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم وهو منشغل بدعوة صناديد قريش إلى الإسلام وبيان
ما أنزل الله عليه من الدين ، وأخذ يقول له : علمني مما علمك الله . وهو لا يعلم
أن الرسول مشغول بغيره من يحرض على هدايتهم من أولئك الصناديد . وأخذ
يكرر ابن أم مكتوم قوله ، فعبس له رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه
وأعرض عنه ، فأنزل الله تعالى : (عبس وتولى . أن جاءه الأعمى) أي غير
وجهه وقطبه لأن الأعمى أتى إليه فأعرض عنه ولم يلتفت لسؤاله .. ولكن

(عبس) غير ملامح وجهه . (تولى) أعرض . (يزكى) تحصل له زادة وطهارة في نفسه .
(يذكر) يتعظ . (تصدى) تعرض له . (تلهى) تشاغل .

الله التفت إلى رسوله وخاطبه بضمير الحاضر بعد أن كان يتكلم عنه بضمير الغائب مبالغة في العتاب فقال (وما يدريك لعله يزكى ؟) أي شيء يعلمك عن حال هذا الأعمى فلعله يتطهر من الجهل أو من الذنب بما يسمع منك من القرآن والإرشاد ؛ أو لعله يتعظ فتنتفعه الموعظة .. ويزكى : أصلها يتزكى قال ابن عباس : أي بما له من المال . (فأنت له تصدى) أي تتعرض له وتقبل عليه وتصغي إلى حديثه حرصاً على هدايته وأصلها تتصدى . (وما عليك ألا يزكى) أي ليس عليك هدايته إن عليك إلا البلاغ . (وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهي) أصلها تتلهي أي : الذي جاء مسرعاً ليهتدي بما يتعلمه منك تتشاغل وتعرض عنه ؟ ثم نبه سبحانه الرسول صلى الله عليه وسلم بعدم العودة إلى ما فعله مع الأعمى بقوله : (كلا) وهي كلمة ردع لأن القرآن وما فيه من الموعظة تذكرة لجميع الناس فلا ينبغي أن يؤثر بها أحد على أحد . وقيل (كلا) أي حقاً (إنها) أي آيات القرآن أو السورة موعظة وتذكير للخلق فمن شاء أن يتعظ بها فليفعل .. وقيل فمن شاء الله له الهداية ألهمه ذلك فتذكر بالقرآن واتعظ بآياته ، والقرآن أودعت آياته (في صحف مكرمة) رقيقة القدر مطهرة من الدنس ومن الزيادة والنقص . قيل : المراد بالصحف : المنسوخة من اللوح المحفوظ وهي بأيدي الملائكة وهم السفرة أي الرسل بين الله تعالى والأنبياء بالوحي ، وهم كما وصفهم الله تعالى كرام على الله أو كريمة أخلاقهم ونزاهة فعالمهم ، لم يتدنسوا بمعصية .. قال تعالى :

« كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) ».

ثم أخذ سبحانه يذم الكافر المنكر للبعث فقال (قتل الإنسان ما أكفره) أي لعن هذا الإنسان ما أشد كفره ! هو دعاء عليه على ما جرت به عادة العرب من الدعاء بهذا اللفظ بقولهم : قاتله الله . وهو هنا تقبيح لما عليه هذا الإنسان من الكفر مع إحسان الله إليه وكثرة أياديه عليه ، ولذلك ونجّه بقوله (من أي شيء خلقه) وهو استفهام معناه التقرير وفيه فسر هذا الخلق بأنه (من نطفة) أي من ماء مهين وأنه (خلقه فقدره) وجعله أطواراً وأحوالاً : نطفة ثم علقه ثم مضغة إلى آخر هذه المقدرات حتى يولد ويشب ثم يكذب أو يصدق ، وهذا معنى قوله تعالى (ثم السبيل يسره) أي جعله متمكناً من سلوك سبل الخير أو سبل الشر وقيل يسر له الخروج من بطن أمه عند الولادة ، وبعد انقضاء أجله (أماته) وجعل له قبراً يوارى فيه ؛ ثم إذا حان وقت القيامة وبعث الناس من القبور أقامه وبعثه للحساب والجزاء (كلا لما يقض ما أمره) . قيل في معنى (كلا) أنها كلمة ردع وزجر للإنسان عما هو فيه من التكبر عن التوحيد وإنكار البعث والحساب ، وقيل معناه حقاً إن الإنسان لم يفعل ما أمر به ولم يؤد ما فرض عليه .. قال تعالى :

(كلا) كلمة زجر أي لا تفعل . (تذكرة) عظة . (صحف) جمع صحيفة وهي ما يكتب فيها . (مرفوعة) عالية القدر . (مطهرة) بعيدة عن الدنس والزيادة والنقص . (سفرة) كنية وهم الملائكة . (بررة) مطيعين .

« قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ
نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسِّرُهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ
فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) ».

وبعد أن بيّن سبحانه خلق الإنسان فصلّل رزقه الذي يسره له وجعله
قواماً لحياته ، وأمره سبحانه بالتدبر في ذلك ليعلم علم اليقين عظمة قدرة الله
تعالى ويتأكد أن من قدر على إخراج النبات من الأرض الهامدة قادر على إحياء
الأجساد وإخراجها من القبور بعد أن بليت وصارت عظاماً نخرة .. ! أمره
سبحانه بالتدبر في ذلك فذكر أنه أنزل الماء من السماء فصبه على الأرض القاحلة ،
ثم شققها بالنبات شقاً فأخرج منها جميع ما يقات به الإنسان ، الحبوب على
اختلافها ، وأخرج منها العنب قوتاً وفاكهة وأخرج منها القصب ، قيسل هو
العلف للدواب وقيل هي الرطبة وهي ما يؤكل من النبات غصاً طرياً ، وأخرج
منها شجر الزيتون يعصر منه الزيت ، وأخرج منها النخيل فيه الثمرة الطيبة ، وأخرج
منها البساتين الجميلة الملتفة الأشجار الغليظة ، وهو معنى قوله تعالى : (وحداثق
غلباً) وأخرج منها جميع أنواع الفاكهة ، وأخرج منها (آباً) وهو العشب
والخشيش ترعاهما الماشية .. صنع ذلك كله ليتمتع به الإنسان وينتفع به ويطعم
دوابه . قال تعالى :

« قتل » لعن . « الانسان » المراد به الكافر . « فقدرة » قدر رزقه وأجله وشقي أم سعيد .
« فأقبره » جعل له قبراً يدفن فيه . « أنشره » بعثه بعد الموت .

« فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥)
ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا
وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَارَكْهُ
وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) » .

وبعد أن ذكر ما تفضل به على عباده من أمر المعاش عاد يذكر أمر المعاد
للتزود له بالأعمال الصالحة ، فذكر من أخباره الصالحة وهي النفخة الثانية تصخ
الأسماع من قوتها ورهبتها ، وعندما يسمعها الخلائق يفر المرء من أحب الناس
إليه وأقربهم منه : من أخيه وأمه وأبيه ومن (صاحبه) وهي زوجته ومن
أولاده لأنه مشغول عنهم بأهوال القيامة وبالحساب والجزاء فلا يفرغ لهم ولا
يسأل عنهم ، وفي ذلك ينقسم الناس إلى فريقين : سعداء وأشقياء ، وإلى أهل
جنة وأهل نار ، فعلمة أهل الجنة أن تكون وجوههم مشرقة مضيئة فرحة
مسرورة بما نالت من الجزاء والكرامة ، وعلامة أهل النار أن يعلو وجوههم
السواد والكآبة وتغشاها الظلمة والكسوف لما يشاهدونه من سوء المصير وهم
الكفرة المكذبون في الدنيا يتوعدهم الله بهذا المصير والفجرة المفترون على الله .
قال تعالى :

« وقضبا » علفا تأكله الدواب رطباً . « غلبا » غلاظ الأشجار . « وأبأ » المرعى للدواب
كالخيش .

« فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤)
وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَحْبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ
يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ
مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا
قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) » .

« الصاخة » صيحة القيامة . « شأن يغنيه » يشغله ويصرفه عن شأن غيره . « مسفرة »
مضيئة مشرقة . « مستبشرة » فرحة . « ترهقها » تملوها . « قترة » ظلمة .

تفسير سورة التكوير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا
الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ
حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧)
وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ
نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجُحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢)
وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُحْضَرَتْ (١٤) . »

هذه جملة أمور ذكرها الله تعالى وأخبر عن وقوعها وهي من أهوال
القيامة . فالسماء تكور أي تلف كما تلف العمامة ، يجمع بعضها إلى بعض
ثم تلف ، فإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها . والنجوم تنكدر أي تتناثر

« كورت » لفث مثل تكوير العمامة ، وذهب ضوءها . « انكدرت » انتثرت وتساقطت .
« سيرت » أزيلت عن أماكنها . « العشار » النوق الحوامل . « عطلت » . أهمل أمرها وهي
أنفس أموال العرب . « حشرت » جمعت . « سجرت » صارت ناراً تتأجج . « زوجت » جمع
كل شكل إلى نظيره . « الموءودة » البنت تدفن حية . « الصحف » الأعمال . « كشطت »
أزيلت . « سعرت » أوقدت . « أزلفت » قربت .

من السماء وتسقط على الأرض . والجبال تزول عن أماكنها وتذسف ، فإذا الأرض قاعاً صفصفاً ، والعشار تعطل وهي النوق الحوامل التي أتى على حملها عشرة أشهر ، وتعطيلها إهمالها من غير رعي مع أنها أنفس مال عند العرب يتشاغلون عنها بما رأوا من الأهوال ، (والوحوش) وحوش البراري تحشر أي تجمع ليقترض بعضها من بعض . وقيل حشرها موتها . والبحار تسجر أي تسمر وتصير ناراً تتأجج ، وقيل سجرت أي ملئت وفجر بعضها على بعض حتى تعود بحراً واحداً ، والنفوس تزوج أي يجمع كل شكل إلى نظيره ، فال مؤمن مع المؤمن والكافر مع الكافر ، ويقرن الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة ، ويقرن الرجل السوء مع الرجل السوء في النار ، والموءدة تسأل عن الذي وأدها أي دفنها ظلاماً وهي حية ، وعن الذنب الذي اقترفته حتى أحل دفنها وهي على قيد الحياة ، وفي سؤالها توبيخ لقاتلها فسوف تجيب بأنها وثدت ظمأ وبغير ذنب ، وصحف الأعمال تنشر للحساب ويقرأ كل امرئ كتابه ويمحى بما سطر فيه من الأعمال ، والسماء تكشط أي تنزع عن مكانها كما ينزع الغطاء عن الشيء وقيل تطوى ، والنار تسمر أي توقد ويزداد إحماؤها لتعذيب أعداء الله ، والجنة تقرب لأولياء الله لتنعيمهم فيها . وعندما تحدث هذه الأمور تعلم كل نفس ما عملته من خير أو شر ، إذ يكون حاضراً ومائلاً أمامها .. قيل إن ستاً من الأمور المتقدمة تقع في الدنيا كمقدمات للقيامة .. وهي تكوير السماء ، وانكدار النجوم ، وتسمير الجبال عن أماكنها ، وتعطيل العشار ، وحشر الوحوش بمعنى موتها ، وتسجير البحار . وإن ستاً تقع في الآخرة .. وهي

تزويج النفوس ، وسؤال الموءودة ونشر صحف الأعمال ، وكشط السماء ، وإيقاد النار ، وتقريب الجنة . قال ابن عباس : هي اثنتا عشرة خصلة ست في الدنيا وست في الآخرة .

وبعد أن ذكر طرفاً من أهوال القيامة أقسم سبحانه بأسلوب النفي قائلاً (لا أقسم بالخنس الجوار الكنس) وهي النجوم في مطالعها تخنس بالنهار فلا ترى وتكنس بالليل فتأوي إلى مجاريها ، فالخنوس الرجوع إلى وراء ، بينما يرى النجم في آخر البرج إذ كرّ راجعاً إلى أوله والكنوس الاستتار أي تأوي إلى مكانها أي مواضعها وتستتر كما تستتر الطبءاء في المغاور وهي الكناس ، وأقسم سبحانه بالليل إذا عسعس أي أدبر أو أقبل ؛ فلفظة عسعس تستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك . وأقسم سبحانه بالصبح إذا تنفس ، أي بالفجر وبضياته إذا أشرق وارتفع نوره ، أقسم بذلك على أن القرآن تبليغ رسول كريم وهو جبريل نزل به من عند الله ، فالكلام كلام الله وإضافته إلى جبريل على سبيل التبليغ وإنما يضاف الكلام إلى من قاله مبتدئاً ، ووصف جبريل بأنه كريم عند ربه وصاحب قوة ، ولا يضعف ولا يعجز عما يكلف به ، وله مكانة عند الله ومنزلة رفيعة وهو مسموع الكلمة مطاع في الملأ الأعلى قطيعه الملائكة وهو أمين على وحي الله ورسالاته لأنبيائه . . . قال تعالى :

« فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ

« بالخنس » النجوم تخنس بالنهار : تختفي . « الجوار » السيارة . « الكنس » النجوم حال غيابها .

إِذَا عَسَّسَ (١٧) وَالصُّبْحَ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ
كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثُمَّ
أَمِينٍ (٢١) .

ثم انتقل سبحانه من ذكر أخبار الرسول وأوصافه إلى ذكر المرسل إليه ،
وهو النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فأخبر أنه ليس بمجنون كما رماه بذلك
المشركون وأشار إليه بقوله (صاحبكم) أي الذي عاشرتوه وعرفتم كمال عقله ،
ولقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل على خلقته التي خلقه الله عليها في
الأفق المبين أي البين بمطلع الشمس جهة المشرق وهي الرؤية التي كانت بالبطحاء ،
وليس الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على تعليم ما غاب من أمر الوحي على
الناس (بضنين) أي ليس ببخيل ، بل يبذل ما أنزل الله عليه لكل أحد ،
وليس القرآن بقول شيطان مرجوم بل نزل به جبريل على الرسول وألقاه على
لسانه (فأين تذهبون) سدت عليكم السبل ، وانقطعت بكم الحجج ، وأين
تذهب عقولكم حين كذبتكم بالقرآن وقد ظهر لكم أنه حق من عند الله ؟ وما
القرآن إلا عظة يتذكر به من أراد الاستقامة واتباع الحق ، على أن الأمر ليس
موكلًا إليكم في الهداية أو الغواية ، بل مشيئتم مرتبطة بمشيئة الله تعالى رب
الخلايق أجمعين ، فمن شاء هدايته وفقه لسلوك طريق الهداية . والمعني
بالخطاب كفار قريش ومن سار على نهجهم في التكذيب والضلال ..

(عسس) أقبل بظلامه أو أدبر . (تنفس) أقبل وامتد ضوءه . (ذي قوة) صاحب
قوة . (مكين) صاحب مكانة .

قال تعالى :

« وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ (٢٣)
وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ
رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧)
لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) » .

(بضنين) ببخيل أو متهم في التبليغ . (رجم) مرجوم . (ذكر للعالمين) موعظة
للناس أجمعين .

تفسير سورة الانفطار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ ائْتَنَّتْ (٢) وَإِذَا
الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا
قَدِمْتَ وَأَخَّرْتَ (٥) » .

ذكر سبحانه وقوع هذه الأمور بين يدي الساعة وهي من أحوال القيامة كما
تقدم في سورة التكويد ؛ فالسما تنفطر أي تتشقق بأمر الله ، والكواكب
تتناثر أي تسقط من مواضعها ، والبحار يفجر بعضها على بعض فتصير بجزراً
واحداً ويخلط العذب بالملح ، والقبور تبعثر أي تقلب وتبحث ويبعث من فيها
من الموتى أحياء . وعندئذ بعد وقوع هذه الأمور تعلم كل نفس ما قدمت من
عمل صالح أو سيئ وما أخرته من سنة حسنة سئتها أو وصية أوصت بها ، ثم
وجه سبحانه الخطاب بعد ذلك لمنكري البعث ، وقيل لجنس بني آدم فيدخل فيه
الكفار وعصاة المؤمنين قائلًا : (يا أيها الإنسان) أي شيء خدعك وسوّل

(انفطرت) انشقت . (ائتنرت) تساقطت . (فجرت) فجر بعضها في بعض . (بعثرت)
هدمت وحفرت وأخرج من فيها من الموتى .

لك الباطل ، فضيحت ما أوجب الله عليك وأمنت عقابه ، مع كرم ربك عليك حيث أوجدك من العدم ، وسوى خلقك في بطن أمك بأن جعل لك يدين ورجلين وعينين وسائر الأعضاء ؟ وقيل جعلك مستوي القامة منتصبها وعدل أعضائك فلم يجعل إحدى اليدين أطول من الأخرى ولا بعض الأعضاء أبيض والآخر أسود ، وركبك في صورة اقتضتها مشيئته من الحسن والقبح والطول والقصر والشبه ، بأن جعلك في شبه الأب أو الأم أو العم أو الخال ، قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبُّكَ الْكَرِيمَ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيُّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) » .

ثم وجه سبحانه الخطاب بعد ذلك للكفار المكذبين بالجزاء والحساب ، قائلاً (كلا) وهي كلمة ردع وزجر عن الغفلة والاعتزاز بكرم الله وحلمه ، مخبراً أن الذي حملهم على مواجهة الرب الكريم بالمعاصي هو تكذيب في قلوبهم بالمعاد والجزاء والحساب ، مع أن الله قد جعل عليهم ملائكة يحصون عليهم أعمالهم ويكتبونها لمجازاتهم عليها ، فهم كرام على الله يعملون ما يفعله العباد من خير أو شر ، قال تعالى :

« كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) » .

(ما غرك) ما خدعك وجراك على معصيته . (فسواك) جعلك مستوي الخلق . (فعذلك) جعلك معتدلاً متناسب الخلق . (تكذبون بالذين) بالجزاء والحساب .

ثم أخبر سبحانه بآل الخلائق في الآخرة وانقسامهم إلى قسمين حسب استجابتهم لأوامر الله وطاعتهم له أو عصيانه والتكذيب بوعدده في الجزاء ، فقال إن الأبرار وهم المطيعون لله الذين يتقون محارم الله يتنعمون في الجنة ، وعلى عكسهم الفجار وهم التاركون لشرع الله ودينه في النار يدخلونها يوم الدين أي يوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة ، فلا يغيب عنهم عذابها ؛ وعظم شأن يوم الدين بالاستفهام عنه وبتكرير الاستفهام مرتين ، وفي هذا التكرار تأكيد وتهويل . ثم أوضح سبحانه أن يوم الدين هو ذلك اليوم الذي لا يقدر فيه أحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه : إلا أن يأذن في الشفاعة لمن يشاء ويرضى ؛ وليس لأحد فيه أمر أو ملك بل قد استأثر الله بالأمر كله ، قال تعالى :

« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩) » .

تفسير سورة المطففين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَيَلُ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ
يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ
أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ
لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) » .

التطفيف في اللغة هو البخس والنقص والمراد هنا بخس حقوق الناس في
المكيال والميزان بأن يزيد الإنسان على حقه أو ينقص منه ، عن ابن عباس قال:
لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله
تعالى (ويل للمطففين) وقيل : نزلت في رجل يُعرف بأبي جهينة كان له
مكيالان ، يأخذ بالأوفى ويعطي بالأنقص . وقد وصف الله تعالى في هذه الآية
المطففين وصفاً واضحاً فقال هم الذين إذا اكتالوا على الناس - أي أخذوا منهم
الحق - استوفوا الكيل والوزن وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم ينقصون الكيل

(ويل) هلاك وعذاب . (للمطففين) الذين ينقصون الكيل والوزن . (اكتالوا) أخذوا
حقهم كيلاً . (يستوفون) يأخذونه وافياً (كالوهم) كالوا لغيرهم . (يخسرون) ينقصون
الكيل والميزان .

والوزن ، وقد توعدهم الله تعالى بالويل . وقيل في معناه : إنه شدة العذاب في الآخرة . وقيل إنه واد في جهنم .. أنكر عليهم سبحانه صنيعهم وتعجب من جرأتهم وكأنهم لا يستيقنون بأن الله تعالى سوف يبعثهم .. ولا يخافون من القيام بين يديه ولا من حسابهم على تطفيئهم وعلى ما قدموا من صغير وكبير ، يبعثهم في يوم القيامة : ذلك اليوم الذي يقوم الناس فيه من القبور لجزاء رب العالمين وحسابه .

ثم زجر سبحانه المطففين وردعهم عن التطفيف بقوله (كلا) أي ليرتدعوا عما هم فيه من إنقاص الكيل والوزن . ثم أخبر سبحانه أن كتاب أعمال الفجار وهم الكفار وقيل هم المطففون لفي سجين ، وسجين مأخوذ من السجن وهو الضيق أي الحبس والتضييق في جهنم ثم عظم من شأن ذلك بالاستفهام عنه فقال : (وما أدراك ما سجين) ثم بيّنه من بعد كأنه يجب عما استفهم عنه فقال : (كتاب مرقوم) أي مسطور واضح الكتابة .

ثم توعد سبحانه المكذبين بيوم الجزاء بالويل وهو شدة العذاب في الآخرة ؛ ومعناه الهلاك والدمار وعرض بعد ذلك لأوصاف المكذبين بيوم الجزاء ؛ قائلا : إنه لا يكذب به إلا كل متجاوز للحد ، مرتكب ما حرم الله عليه : أثم في أقواله وأفعاله ؛ إذا تلى عليه القرآن وسمعه من رسول كذب به وقال : إن هو إلا أخبار الأولين أخذها الرسول عن غيره وليس هو بكلام الله المنزل على رسوله .. قال تعالى :

« كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَذْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيَّوْمَ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكْذَبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) ».

وزجر سبحانه القائل لهذه المقالة ، بقوله (كلا) أي ليس الأمر كما ذكر من أن القرآن أساطير ؛ وإنما الذي جعله يذكر ما غلب على قلبه من الذنوب والمعاصي حتى انطمس قلبه ؛ فلم يعد يميز بين الحق والباطل .. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل الله قلبه ، فإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ، وذاك الران الذي ذكر الله في القرآن .. ثم أوضح سبحانه بعض ألوان ما أعد له من العذاب في الآخرة فذكر أن لهم يوم القيامة نزل سجين ؛ ثم هم محجوبون عن رؤية الرب الكريم ، وذلك غاية الحرمان إذ يتمتع برؤية الله في الآخرة عباده المؤمنون فيرون الله كما ورد في الحديث : إنكم ترون ربكم كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته بعكس الكفار فهم محجوبون

« كلا » ردع لهم عن ما هم عليه . « كتاب الفجار » الكتاب الذي تكتب فيه أعمالهم . « سجين » من السجن وهو الضيق أو الحبس والتضييق في جهنم . « مرقوم » مشبته فيه أعمالهم كالرقم في الثوب . « معتد » متجاوز للحد . « أساطير الأولين » أكاذيبهم المسطرة .

عن رؤيته ، وهذا هو الاعتقاد الصحيح في رؤية الله تعالى في الآخرة وهو اعتقاد أهل السنة والجماعة . ثم هم مع هذا الحجب والحرمان من رؤية الله ، يدخلون النار ويصلون عذابها ويقال لهم تقريماً وتوبيخاً : هذا هو الجزاء الذي كنتم به تكذبون رسل الله في الدنيا ، وهذا هو العذاب الذي كنتم تستبعدون وقوعه ، قال تعالى :

« كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا لَهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) » .

وبعد أن بين سبحانه حال الكفار وما أُعد لهم من الهوان والعذاب في الآخرة ، أوضح حال الأبرار فابتدأ القول عنهم بقوله (كلا) أي حقاً إن كتاب أعمال الأبرار وهم المطيعون لله المصدقون بوعدته في عليين . قيل في معنى عليين : إنه الجنة أي كتاب أعمالهم مرفوع في الجنة على قدر منازلهم ، ثم عظم من شأن ذلك بالاستفهام كما فعل في (سجين) قائلاً (وما أدراك ما عليون) ثم أجاب على الاستفهام بقوله (كتاب مرقوم) أي مسطور بين الكتاب . وكتاب الأبرار الموضوع في عليين تحضره الملائكة المقربون عند الله إذا صعد به إلى عليين .. روي في الأثر : إن الملائكة تصعد بصحيفة فيها أعمال العبد فإن رضي الله عنه قال اجعلوه في عليين . وإن لم يرض قال اجعلوه في سجين ..

« ران على قلوبهم » أصل الرين الغلبة ، غلب على قلوبهم آثار الذنوب فسودتها . « لصالوا الجحيم » النار يقاسون حرها .

قال تعالى :

« كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) » .

ثم أخذ سبحانه يفصل فيما أعده للأبرار من النعيم والكرامة فقال : إنهم في الجنان ينعمون نعيماً مقيماً لم تر مثله عين ، فهم على الأرائك ، وهي الأسرة الفخمة ذات الزخارف في الغرف الأنيقة ذات الستائر ، ينظرون إلى وجه ربهم الكريم وتلك أعظم مشوبة وأحبها إلى قلب المؤمن . وينظرون إلى ما هم فيه من النعيم المقيم .. وينظرون إلى أعدائهم وما هم فيه من العذاب الأليم ، في وسط الجحيم .. هؤلاء الأبرار إذا نظرت إليهم عرفت في وجوههم أثر النعمة والبهجة بها ، فهم يسقون من خمر صافية لا مثيل لها ، ختمت فلم تمسها يد قبل أيديهم .. وقال ابن مسعود : (مختوم) أي ممزوج (ختامه) أي آخر طعمه (مسك) ، وفي مثل هذا الثواب والجزاء (فليتنافس المتنافسون) وليستبق المستبقون : يعملون الصالحات فيدخلون الجنات لينالوا هذا الثواب ثم عاد إلى الخمر المسماة بالرحيق فقال أنه يمزج من تسنيم ، ثم فسر هذا الاسم فقال (عينا يشرب بها المقربون) وهي أشرف شراب في الجنة تنصب على المقربين فيمزجون بها الخمر أو يشربون من غير مزج .. قال تعالى :

« كتاب الأبرار » كتاب أعمالهم . « لفى عليين » في موضع عال في الجنة . « يشهده المقربون » يحضره الملائكة إذا صعد به إلى عليين .

« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتْمُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِنْ أَجْهِ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) » .

وبعد أن أخبر سبحانه بما أعدّه للمؤمنين من النعيم والكرامة ، وما أعدّه للفجار من العذاب ، عرض لحالة الكفار في الدنيا مع المؤمنين ، ثم أوضح ما سيقابل به المؤمنون ذلك في الآخرة فقال : إن المجرمين أي الكفار كانوا يضحكون من المؤمنين سخرية واستهزاء بهم ، وإذا مر بهم المؤمنون يتغامزون عليهم بأعينهم ويشيرون بها استهزاء وتهكأ بهم ، وإذا رجع هؤلاء المجرمون إلى أهلهم رجعوا يتفكحون بذكر المؤمنين مستخفين بما هم فيه ، وإذا رأى المشركون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نسبوهم إلى الضلال ومجانبة الطريق السوي لأنهم على غير دينهم ، مع أنهم لم ياكلوا بحفظ أعمالهم حتى يرسلوا ليحصوا على المؤمنين ما يصدر منهم ؛ ففي يوم القيامة يقتص الله للمؤمنين من الكافرين ، فالكفار يعذبون في النار والمؤمنون ينعمون في الجنان ، وهم على الأرائك ينظرون إلى الكفار يعذبون فيضحكون منهم كما سبق أن

« الأرائك » الأسرة المنصوبة . « نضرة النعيم » بهجته . « رحيق » الرحيق من أسماء الخمر . « مختوم » أي لم تمسه يد إلى أن يفك ختمه شارب . « مزاجه » ما يمزج به . « من تسنيم » من شراب يقال له تسنيم وهي عين في الجنة .

ضحك الكفار من المؤمنين في الدنيا ! فهل جوزي الكفار بهذا الصنيع على ما كانوا يفعلونه في الدنيا بالمؤمنين من الاستهزاء والتنقيص والضحك ؟ الجواب : نعم ! جوزوا أتم الجزء وأكمله ، والاستفهام هنا للتقرير ، وثوب معناها جوزي ، قال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩)
وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا
فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ (٣٢) وَمَا
أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ
يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ تُؤِثُّبَ الْكُفَّارُ
مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) » .

« فكهين » متفككين لاستهزائهم بالمؤمنين . « ثوب الكفار » جوزوا على أعمالهم .

تفسير سورة الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) ».

انشقت السماء انصدعت وتفطرت . قيل ذلك من أشرط الساعة وعلاماتها ، ومعنى أذنت لربها استمعت لأمر ربها بالانشقاق وأطاعته ، وحق لها أن تسمع وتطيع أمر ربها ، فهو العظيم الذي أذل كل شيء لأمره ، وامتداد الأرض تسويتها والزيادة في سعتها وزوال ما عليها من الجبال حتى تصير مستوية ، ومعنى (أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ) أَلْقَتْ مَا فِي بطنها من الأموات للحشر وتخلت عنهم .. ثم وجه سبحانه الخطاب إلى جنس الإنسان قائلاً : (يا أيها الإنسان إنك كادح) أي مجد ومجتهد وساع إلى ربك إلى أن ينتهي أجلك ، ثم إنك ستلقى ما عملت في حياتك من خير أو شر وتجازى عليه .. فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه فسوف يكون حسابُه سهلاً ، لا تعسير فيه ، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله يدني العبد يوم القيامة حتى يضع كتفه

« أذنت » استمعت لأمر ربها في الانشقاق . « حقت » حق لها أن تسمع وتطيع . « مدت » زيد في سعتها . « تخلت » خلعت ما في بطنها .

عليه فيقول فعلت كذا وكذا ويعدد عليه ذنوبه ، ثم يقول سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، ويرجع إلى أهله في الجنة مسروراً بما أعطاه الله ! (وأهله) زوجاته في الجنة من نساء الدنيا ومن الحور العين ، وأما من أعطي كتاب أعماله بشماله من وراء ظهره بعد أن تلوى - وهو الكافر - فسوف يدعو على نفسه بالويل والخسارة والهلاك ويقول : يا ويلاه ! يا ثبوراه ! وسوف يدخل النار حتى يصلى بجرها ، لأنه كان في أهله في الدنيا مسروراً فرحاً لا يفكر في العواقب .. فأعقب ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل ، وكان يعتقد أنه (لن يحور) أي لن يرجع إلى الله حياً بعد أن مات ، فهو ممن يكذب بالبعث . ورد الله تعالى على هذا الاعتقاد بقوله (بلى) إنه سوف يُبعث ويعيده الله كما بدأه ويحازيه على أعماله فإنه كان به خبيراً وبأعماله بصيراً ! قال تعالى :

«يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ (٦)
فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨)
وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ
ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ
كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) بَلَى إِنَّ
رَبَّهُ كَانَ بِهٍ بَصِيرًا (١٥) » .

« كادح » ساع . « ينقلب » يرجع . « يدعو ثبوراً » ينادي على نفسه بالهلاك . « يحور » يرجع .

ثم أقسم سبحانه بالشفق وهو ما يكون بعد غروب الشمس من احمرار الجو ،
وأقسم بالليل وما وسق أي وما جمعه الليل وضمه مما كان منتشراً بالنهار ،
وذلك أن الليل إذا أقبل يضم الأشياء ويسترها بظلامه . كما أقسم بالقمر إذا
اتسق أي تكامل نوره ، وهو في الأيام البيض .. أقسم الله سبحانه بكل ذلك
وهو يخاطبنا بقوله : (لتركبن طبقاً عن طبق) أي لتتحولن من حال إلى
حال ، وقيل في تفسير هذه الأحوال إنها شدائد الموت ثم البعث ثم الحساب ثم
الجزاء ؛ وقيل إنها التحول في الدنيا من الرضاعة إلى الفطام .. ومن الشباب إلى
الشيخوخة .. ومن الشيخوخة إلى الموت . وعاد سبحانه يذكر الكفار ويتعجب
من عدم إيمانهم ويستفهم استفهام المنكر عليهم ذلك بقوله : (فما لهم لا يؤمنون
وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون) إعظاماً للقرآن وإجلالاً له . وقيل في
معنى يسجدون يصلون ، وعبر عن الصلاة بالسجود لأنه جزء منها ، ثم أردف
سبحانه الاستفهام ببيان أن من سجية الكفار المخالفة للحق والعناد فيه مهما
ظهرت لهم الدلائل . وهو سبحانه أعلم بما يحرمونه في صدورهم من الكفر
والتكذيب ! يقال أوعيت المال إذا جمعته ، ثم أمر الله رسوله الله صلى الله عليه
وسلم أن يخبرهم بعذاب مؤلم أعدّه الله لهم على كفرهم وتكذيبهم ، وأنزل هذا
الإخبار منزلة البشارة تهكماً بهم . واستثنى (الذين آمنوا وعملوا الصالحات)
آمنوا بقلوبهم وعملوا الأعمال الصالحة يجوارحهم (لهم أجر غير ممنون) غير
منقوص وغير مقطوع .. قال تعالى :

« فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّقَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥) » .

« بالشقق » الحجرة في الأفق . « وسق » جمع . « اتسق » استوى وتكامل . « طبقاً » عن طبق « حالاً بعد حال . « يوعون » يكتمون في صدورهم . « غير ممنون » غير مقطوع .

تفسير سورة البروج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ
وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ (٥)
إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧)» .

يقسم الله تعالى بالسماء (ذات البروج) أي ذات المنازل التي تنتقل بها
الكواكب لما فيها من بديع صنعه وعجيب تدبيره ... ! وأقسم أيضاً باليوم
الموعود وهو يوم القيامة .. وعد الله أهل السماء والأرض بالاجتماع فيه ، وأقسم
بالشاهد وهو يوم الجمعة والمشهود وهو يوم عرفة عند أكثر المفسرين ، وإنما كان
القسم بهذه الأيام لعظمها وشرفها واجتماع المسلمين فيها ، وجواب القسم (قتل
أصحاب الأخدود) تقديره لقد قتل أصحاب الأخدود .. وقيل جوابه محذوف
تقديره : لقد قتل هؤلاء الكفار كما قتل أصحاب الأخدود .. وذلك أن قريشاً
كانت تعذب من أسلم من بينهم ليرجعوا عن الإسلام . ! فذكر الله قصة أصحاب

« البروج » منازل الكواكب . « اليوم الموعود » يوم القيامة . « شاهد ومشهود » الشاهد
يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة . « قتل » لعن . « الأخدود » الحفرة المستطيلة في الأرض .
« شهود » حضور .

الأخدود وعيداً لهم وتعزية للمعذبين ! والأخدود هو الشق في الأرض جمعه أخاديد ، وقصة أصحاب الأخدود تناقلها المفسرون في صور وأقوال مختلفة ، وأجل القول فيها ابن كثير رحمه الله فقال عند تفسيرها : هذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله عز وجل فقهرهم وأرادهم على أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم فحفروا لهم في الأرض أخدوداً - أي حفرة مستطيلة - وأججوا فيه ناراً وأعدوا له وقوداً، ثم أرادهم على الكفر فلم يقبلوا منهم فقتلهم فيها .. انتهى ما أجمله ابن كثير وبهذا العمل لعنهم الله . قال ابن عباس : كل شيء في القرآن (قتل) فهو لعن و (شهود) حضور كانوا يجلسون على حافة الأخدود والنار متأججة فيه يقدمون كل من يرجع عن دينه ويرونه وهو يشوى بالنار ويتعذب .

ولم يكن ما أنكره أصحاب الأخدود على هؤلاء المؤمنين إلا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يضام من لاذبه ، المحمود في جميع أقواله وأفعاله وشرعه ، من له السموات والأرض وما بينهما ملك لا ينازعه أو يشاركه فيها أحد وهو عالم بأعمال خلقه لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه شيء سبحانه ، قال تعالى :

« وَمَا تَقَمُّوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) » .

ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء الكفار الذين فتنوا المؤمنين أي عذبهم

(وما تقموا منهم) وما كرهوا منهم .

وأحرقوهم إذا ماتوا على كفرهم ولم تصدر منهم توبة قبل موتهم أعدّ لهم في الآخرة عذاب النار يحرقهم بها كما أحرقوا المؤمنين وقيل : لهم في الآخرة عذاب النار ولهم في الدنيا عذاب الإحراق ، فقد روي : أن النار التي أحرقوا بها المؤمنين خرجت عليهم وهم قعود على جانب الأخدود فأحرقتهم ، قال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) » .

ثم أخبر سبحانه بما أعدّه في الآخرة للمؤمنين من النعم المقيم ، وقيل المراد بالمؤمنين هؤلاء الذين أحرقهم الكفار أصحاب الأخدود ، وقيل هي عامة لجميع المؤمنين ، فإن الله تعالى أعدّ لكل من صدّق بقلبه وعمل بحوارحه أعمالاً صالحة ، أعدّ له في الآخرة بساتين عظيمة تجري من تحتها الأنهار بالماء واللبن الذي لم يتغير طعمه وبالجمر والعسل ..! وهذا النعم وتلك الكرامة ، فوز لا يشبهه فوز ، فهو أعظم مما يتصوره المتصورون .. قال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) » .

ثم أخبر سبحانه عن عظيم بأسه وقدرته فقال : (إن بطش ربك) أي أخذه للظلمة وانتقامه منهم (لشديد إنه هو يبدىء ويعيد) : يخلقهم

في الدنيا ثم يعيدهم أحياء بعد الموت للحساب والجزاء ! وهو سبحانه الكثير
الستر لذنوب عباده المؤمنين المحب لأوليائه المتوّد إليهم بالمغفرة وهو صاحب
العرش العظيم العالي على كل الخلائق ؛ ففي ذلك إثبات صفة العلو للباري جل
وعلا . فالعرش أعلى المخلوقات وهو سبحانه مستو على عرشه استواء يليق بجلاله
وعظمته وهو سبحانه المجيد ، على قراءة الرفع أي العظيم الكرم والفضل . وهو
سبحانه الفعّال لما يريد لا يعجزه شيء ولا يمتنع منه شيء طلبه . وعلى قراءة
(المجيد) بالجر تكون صفة للعرش .. قال تعالى :

« إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِيهِ وَيُعِيدُهُ (١٣)
وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالٌ لِمَا
يُرِيدُ (١٦) » .

ولتقرير شدة بطشه سبحانه بالظالمين وجه الخطاب لرسوله محمد صلى الله عليه
وسلم يسلمه بذلك عن تكذيب قومه قائلًا قد أتاك خبر الجموع المكذبة لأنبيائها
ثم بينهم بقوله : (فرعون وثمود) وما حل بهم من عذاب الله ونقمته .. قيل
إنه خص فرعون وثمود بالذكر لأن ثمود في بلاد العرب وقصتهم مشهورة عند
مشركي مكة ، وأمر فرعون كان مشهوراً عند أهل الكتاب وغيرهم ، فدلّ
بهلاكهم على هلاك أمثالهم من المكذبين ومنهم هؤلاء المكذبون لرسول الله الذين
لم يؤمنوا بما جاء به من القرآن فهم في عناد وكفر وشك وريب .. والله محيط

بما يعملونه وقادر على إهلاكهم كما أهلك الأمم المكذبة قبلهم ..! وهذا الذي كذبوا به ، ليس كما يزعمونه سحراً وكهانة، أو حديثاً مفترى وأساطير الأولين ، إنما هو (قرآن مجيد) متناه في الشرف مكتوب في (لوح محفوظ) عند الله من وصول الشياطين إليه .. واللوح المحفوظ أخبرنا الله به وأخبرنا أنه أودعه كتابه فعلينا أن نؤمن بذلك وليس علينا أن نبحث فيما وراءه ، وقد ورد في أخبار كثيرة وروايات الله أعلم بها . قال تعالى :

« هَلْ أَتَيْكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢) » .

تفسير سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) » .

أقسم الله بالسماء وأقسم بالطارق وفسره بأنه النجم الثاقب ، والثاقب هو المنير كأنه يثقب الظلام فينفذ فيه أو يثقب الشياطين إذا أرسل عليها . وهذا النجم هو الشهاب الذي يُرجم به . والمراد هنا جنس النجوم أي جنس الشهب لا واحد بعينه . وإنما سمى النجم طارقاً ، لأنه يبدو في الليل ، كما يقال لمن يأتي إلى الناس ليلاً : طارق ؛ إذن فقد أقسم سبحانه بكل سماء وبكل نجم أنه (كل نفس عليها حافظ) أي من ربها يحفظ عملها ويحصى عليها ما تكسب من خير وشر ، قال ابن عباس : هم الحفظة من الملائكة ؛ وقيل : كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات ، وهذه الآية هي جواب القسم أي الشيء الذي أقسم من أجله ليؤكد كده ، ثم نبه سبحانه الإنسان وأرشده للتدبر في أصل خلقه حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته ومجازاته ، ونبيه أيضاً أن من كان عليه حفظة يحفظون عليه أعماله فجدير به أن لا يمل على حافظه إلا ما يسره

(الطارق) ما جاء ليلاً والمراد به النجم . (الثاقب) المنير .

في عاقبته ، وأوضح سبحانه أن الإنسان مخلوق من ماء وهو المني الضعيف المتدفق في الرحم الخارج من بين صلب الرجل وترائب المرأة ، وهي عظام الصدر والنحر من موضع القلادة ، ثم أخبر سبحانه أنه قادر على إرجاع الإنسان حياً بعد الموت وذلك هو البعث ، ومعروف بالبدهاة أن من قدر على الإنشاء من هذا الأصل الضعيف قدر على الإعادة والإرجاع إلى الحياة في يوم القيامة ، وهو اليوم الذي تمتحن فيه السرائر وتظهر خفايا الصدور ومكنونات الأنفس ! في ذلك اليوم العظيم ليس للإنسان من ناصر ينصره وليست لديه قوة يمتنع بها من عذاب الله .. قال تعالى :

« فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) » .

ثم أقسم الله مرة أخرى بالسماء (ذات الرجع) أي ذات المطر لأنه يرجع ويتكرر ، وأقسم بالأرض (ذات الصدع) أي ذات الانشقاق عن النباتات والأشجار والأنهار ، أن القرآن كلام فصل : يفصل به بين الحق والباطل وليس باللعب ولا بالباطل .. وقال عن الكفار : (إنهم يكيّدون كيّداً) لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويدبرون عليه لإحباط أمره .. وأنه سبحانه يكيّد لهم أي يستدرجهم من حيث لا يعلمون حتى يحبط عملهم ويهلكهم ! ثم أمر الله الرسول

(ماء دافق) أي مدفوق بمعنى مصبوب . (الصلب) عظام الظهر . (الترائب) عظام الصدر . (تبلى السرائر) تختبر السرائر وتظهر .

صلى الله عليه وسلم أن لا يعجل بالدعاء عليهم طلب هلاكهم ، بل يمهلهم إمهالاً قليلاً ، فسوف يحل بهم العذاب ، قال ابن عباس : هذا وعيد من الله عز وجل للكافرين ، قال تعالى :

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْمِلُهُمْ رُوَيْدًا (١٧) » .

(الرجع) المطر . (الصدع) الشق والمراد الأرض التي تنصدع عن النبات . (فصل) حق وجد يفصل بين الحق والباطل . (يكيدون كيداً) يخاتلون النبي صلى الله عليه وسلم ويمكرون به . (وأكيد كيداً) كيد الله استدراجه إياهم . (مهل الكافرون) فتأن عليهم . (أهملهم رويداً) أنظرهم قليلاً ولا تمجل .

تفسير سورة الأعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥)».

أمر سبحانه رسوله أن يقول سبحانه ربي الأعلى وإلى هذا التفسير ذهب جماعة من الصحابة والتابعين ، ويدل عليه ما روي عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سُبِّحْ اسم ربك الأعلى فقال : سبحانه ربي الأعلى ، وقيل أيضاً في معناها : نزّه ربك الأعلى عما يصفه به الملحدون . ثم وصف نفسه بأنه خلق الخلائق وسوّى كل مخلوق في أحسن هيئة ومن مخلوقاته الإنسان جعله مستوياً وعدل قامته ، وهو سبحانه (الذي قدّر فهدى) أي قدّر الخير والشر وقدّر السعادة لأقوام .. والشقاء لآخرين . ثم هدى كل فريق من الطائفتين إلى ما قدّر له أو عليه .. وقيل قدّر الأقوات والأرزاق وهدى الناس لمعاشهم وطرق اكتسابهم ، وهدى الأنعام لمراعيتها ، وهو سبحانه (الذي أخرج المرعى) أي أنبت العشب

(فسوى) سوّى كل مخلوق في أحسن هيئة . (فهدى) أرشد الناس لمعاشهم وأرشد الأنعام لمراعيتها . (المراعي) العشب وما ترعاه الأنعام من كل أنواعه . (غثاء) هشيماً كثيفاً السيل . (أحوى) أسود بعد الخضرة .

وما ترعاه الأنعام ألواناً بين أخضر وأصفر وأحمر وأبيض وجعله بعد الخضرة والانتعاش (غشاء) أي ذابلاً ومتهاككاً (أحوى) صفة لغشاء أي أسود ، وذلك أن العشب إذا ذبل وتكسر اسود ، ثم وجهه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً : إنه سوف يقرئه قراءة لا ينساها ، وتلك معجزة له صلى الله عليه وسلم فقد كانت أمياً لا يكتب ومع ذلك كان لا ينسى ما يقرئه له جبريل من القرآن لوعده الله بعدم النسيان ، إلا ما شاء الله أن ينساه مما نسخت تلاوته من القرآن فلا عليه إلا أن ينساه ويتركه ، وهو سبحانه يعلم السر والعلانية ، يعلم ما يسر العباد وما يحeroon به من أقوالهم وأفعالهم ، وقيل يعلم جهر الرسول صلى الله عليه وسلم بالقراءة مع جبريل وإسراره فيها خشية النسيان ؛ وهو سبحانه ييسر الرسول صلى الله عليه وسلم أي يوفقه ويشرعه له الشريعة اليسرى أي السهلة السمحة ، وأمره سبحانه بالتذكير والموعظة بالقرآن في المواضع التي تنفع فيها الذكرى . قيل أمره بأن يذكر ويعظ قياماً بواجب التبليغ ، نفعت الذكرى أو لم تنفع - وإنما ينتفع بالموعظة من يخشى قلبه الله ، ويبتعد عنها الشقي الذي يدخل النار الكبرى فيصطلي بحرها وعذابها : قيل سماها كبرى بالنظر لنار الدنيا يؤيده قوله صلى الله عليه وسلم : ناركم هذه التي توقدون : جزء من سبعين جزء من نار جهنم ؛ فإذا دخل هذا الشقي النار فهو مضطرب مبلبل حيث لا يموت فيستريح من عناء العذاب ، ولا يحيا حياة طيبة تنفعه . قال تعالى :

« سَنَقْرُوكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) »

(نيسرك) نوفلك . (اليسرى) للشريعة السمحة . (الذكرى) الموعظة .

سَيِّدٌ كَرُّ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى
النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣) .

ثم أعقب ذلك بذكر الفوز لمن تطهر من الشرك والذنوب وأدام الذكر لربه
وداوم على أداء الصلوات المكتوبة ، ابتغاء رضوان الله وامتنالاً لأمره ، وحافظ
عليها في أوقاتها . قال تعالى :

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) » .

ثم ذكر سبحانه أن من طبع النفوس تقديم العاجل على الآجل مع ما في
الآجل من الخير والفلاح ؛ والمراد بالعاجل الدنيا ، وبالآجل الآخرة ، وإيشار
الدنيا على الآخرة وتقديمها عليها خطأ واضح ، وذكر بعد ذلك سبحانه أن
فلاح المتزكي والمصلي وإيثار الخلق دنياهم على آخرتهم مع أن الآخرة خير لهم
وأبقى ، كل ذلك مذكور في كتب الأنبياء المتقدمين وهي المعنية بقوله :
(صحف إبراهيم وموسى) وقيل بل كان ما تضمنته هذه السورة أو كل ما
تضمنه القرآن من الدين مذكور في الكتب المتقدمة فدين الله واحد ؛ وكل الشرائع
قدعو إليه وإن اختلفت الوسائل والصور . قال تعالى :

« بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧)
إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩) » .

تفسير سورة الغاشية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) ».

يخاطب الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم قائلاً : قد أتاك حديث الغاشية وهي القيامة سميت بذلك لأنها تغشى كل شيء بأهوالها في ذلك اليوم تكون بعض الوجوه ذليلة لما اعترى أصحابها من الخزي والهوان ، وهي وجوه الكفار (عاملة ناصبة) قال ابن عباس : هم الذين عملوا ونصبوا في الدنيا على غير دين الإسلام من عبدة الأوثان وكفار أهل الكتاب وغيرهم لا يقبل الله منهم اجتهاداً ، يدخلون النار يوم القيامة . والنصب هو الدأب في العمل والتعب ، وقيل عاملة في الدنيا بالمعاصي

(هل) قد . (الغاشية) القيامة . (خاشعة) ذليلة . (عاملة) عملت في الدنيا بالمعاصي . (ناصبة) متعبة في النار بالعذاب . (تصلى ناراً) تعذب في النار . (آنية) متناهية الحرارة . (ضريع) طعام كالشوك اليابس .

ناصبة في الآخرة في النار ، أصحاب هذه الوجوه سواء كانوا الكفار أو أصحاب المعاصي يصطلون بنار حارة أشد ما تكون في الحرارة ويشربون من عين متناهية في الحرارة ، أما طعامهم فليس لهم في جهنم غير الضريع وهو شجر الشوك من شر الطعام وأبشعه قد انتفت منه منفعة الطعام فلا هو بالذي يفيد الجسم ولا بالذي يدفع الجوع ؛ وبعد أن ذكر سبحانه حال الكفار وحياتهم في الجحيم ذكر المؤمنين وحالهم في النعيم فقال : إنهم في حالة من النعيم يبدو أثرها عليهم ، وذلك يوم القيامة حين يدخلون الجنة راضين فيها بالنعيم الذي حصلوا عليه ؛ ثم أخذ يفصل في ألوان النعيم فذكر أنهم في جنان رفيعة عالية القدر لا يسمع فيها كلمة لغو ولا باطل ؛ بل فيها العيون الجارية المتدفقة في غير أخدود ، وفيها السرر العالية الناعمة كثيرة الفرش ، وفيها أواني الشراب معدة لمن أرادها من الشاربين ، وفيها الوسائل مصفوفة بعضها إلى جانب بعض وهي التارق - وفيها البسط العراض الفاخرة مبسوطة ومتفرقة في المجالس لكثرتها ووفرتها وهي الزرابي . ولما ذكر سبحانه أهل الجنة ونعيمها وحال أهل النار وعذابها ، عجب الكفار وكذبوا وأنكروا أن يكون شيء من ذلك ، فذكرهم الله بصنعه في أنفس أموالهم وهي الإبل قائلا (أفلا ينظرون) إلى هذا المخلوق العجيب في تركيبه ، وشدة قوته وحمله الأثقال ، وانقياده للقائد الضعيف ، فإن من صنع هذا في الدنيا هو الذي صنع لأهل الجنة ما صنع من النعيم ووسائل الترفيه ، ثم ألا ينظرون إلى السماء كيف رفعها الله رفعا بعيد المدى بلا ركيزة ترتكز عليها ومن غير أعمدة ، ثم ألا ينظرون إلى الجبال كيف جعلها منصوبة على الأرض لا تزول ولثلا

تميد الأرض ، ثم ألا ينظرون إلى الأرض كيف مهدت بحيث يستقر عليها كل شيء ، فنبه العرب بهذه المشاهدات التي تقع تحت حواسهم : الإبل التي يركبونها ، والسماء التي فوق رؤوسهم ، والجبال المنصوبة أمامهم ، والأرض التي يطأونها بأقدامهم ، نبههم أن لهذه الأشياء خالقاً هو الله سبحانه ، وهو الذي لا يستحق العبادة غيره . قال تعالى :

« وَجَوْهُ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ^(٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ^(٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ^(١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ^(١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ^(١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ^(١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ^(١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ^(١٥) وَزَرَارِيٌّ مَبْثُوثَةٌ ^(١٦) أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ^(١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ^(١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ^(١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ^(٢٠) . »

ولما ذكر لهم سبحانه هذه الأدلة الواضحة على توحيده ولم يتعظوا ولم يتفكروا ، وجه الخطاب لنبيه قائلًا : ذكرّ الناس وعظهم بما أرسلت به فلم يستعملوا ، وليس بيدك خلق الإيمان في قلوبهم أو إكراههم عليه ، لكن من أعرض عن العمل بما أرسلت به وكفر بالحق فلم يصدق به بعد التذكّر ، فإن الله الولاية عليه فهو يعذبه العذاب الأكبر في جهنم ،

(ناعمة) يعرف النعم فيها . (لاغية) لغو . (نمارق) وسائد . (زراري) بسط .
(مَبْثُوثَةٌ) مفارقة .

فرجوعهم إلى الله بعد الموت ، وعليه جزاؤهم ، قال تعالى :

« فَذَكِّرْ إِنْ نَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢)
إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ
لَنَا إِلَهُهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦) » .

(بمسيطر) يجبار . (إياهم) رجوعهم إلى الحياة .

التفسير الميسر - أول «٧»

تفسير سورة الفجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَبْرٍ (٥)» .

يقسم الله سبحانه بالفجر وهو انفجار الصبح كل يوم . وقيل المراد به فجر النحر خاصة . ويقسم بالليالي العشر .. وفي تفسيرها أقوال متعددة للمفسرين إلا أن أكثرية الأقوال أنها عشر ذي الحجة ، ويقسم بالشفع والوتر ، فالشفع النحر ، والوتر يوم عرفة . الشفع يوم النحر لأنه العاشر ؛ والوتر يوم عرفة لأنه التاسع . وفي تفسير الشفع والوتر أقوال متعددة أيضاً . ويقسم بالليل إذا يسر ، أي سار وذهب .. ثم عقب على هذه الأقسام بقوله هل في هذه الأقسام التي أقسمت بها قسم مقنع يكتفي به في القسم أصحاب العقول .. فالحجر هو العقل ، ثم أخذ يخوف المشركين من أهل مكة بذكر قصة عاد وإرم . وهي عاد الأولى التي أهلكها الله لما خالفوا رسولهم هوداً وقد كانوا أطول

(وليال عشر) هي الليالي العشر الأولى من ذي الحجة . (والشفع) هو يوم النحر (والوتر) يوم عرفة . (يسر) يذهب . (حجر) عقل .

أعماراً وأشد قوة من كفار مكة ، ووجه الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو عام قائلاً : ألم تعلم أيها الرسول ، أو الإنسان لعموم الخطاب ، كيف أهلك ربك أي خالقك ومالك أمرك عاداً الأولى وهم ولد عاد بن إرم لما كذبوا الرسول هوداً أنجأه الله ومن آمن معه منهم ، وأهلك المكذبين بريح صرصر عاتية ، وذكر الله قصتهم في القرآن ليعتبر بمصيرهم المؤمنون ، وقوله تعالى (ذات العمد) لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد ، وقيل سميت عاد : ذات العمد لطول قاماتهم ، ولم يخلق الله مثل هذه القبيلة في زمنهم في القوة والطول وشدة البأس . وفعل بشمود ، وهم قوم نبي الله صالح كما فعل بعاد من الإهلاك ، وصفهم الله بأنهم كانوا يقطعون الصخر بوادي القرى وينحتون منه بيوتهم ، وكما فعل بعاد وثمود فعل بفرعون حيث أهلكه الله بالفرق لما عصى رسول الله موسى . وصفه الله تعالى بأنه ذو الأوتاد ، وقيل في تفسير الأوتاد إنها الجنود تشد ملكه وتحكم أمره ، وقيل إنها أوتاد حقيقية كان يعذب الناس بها ؛ ثم أخبر عن عاد وثمود وفرعون أنهم طغوا في الأرض وتجاوزوا القدر في الظلم والعدوان وأكثروا الأذى والجور وعاثوا في الأرض بالإفساد . والفساد ضد الصلاح يشمل جميع أنواع الإثم فعاقبهم الله وانتقم منهم أجمعين ، وأنزل عليهم نصيباً من العذاب . وتوعد سبحانه الكفار وكل من يخالف أمره ويرتكب نهيه بأنه له بالمرصاد . يرصد خلقه فيما يعملون ويجازي كلا بعمله وسعيه يوم تعرض عليه الخلائق فيحكم فيهم بعدله .. قال تعالى :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) » .

وإن من كان له ربه بالمرصاد كان من الواجب عليه أن يسعى لما يسعده في عاقبة أمره ولا يكثر بعاجلته ، ولكن الإنسان قد استهوته العاجلة فعكس الأمر ، فاهتم بالدنيا وبحظوظه منها ، فإذا امتحنه الله بالنعمة وسعة الرزق وأكرمه بالمال ليشكر النعمة ، قال ربي فضلي وأكرمني ، وإذا ابتلاه بالفقر وتضييق الرزق عليه ليصبر فيؤجر قال ربي أهانني وأذلني ، فردّ الله عليه هذا الزعم بقوله (كلا) أي ليس الإكرام والإهانة في كثرة المال وقلة ، وسعة الرزق وضيقه ، وإنما الإكرام في توفيق العبد لطاعة ربه ، والإهانة في خذلانه والتخلي عنه ، كان هذا في معرض ذم الله لأقوال الإنسان ، ثم عقب عليه

(بعاد) قوم هود . (إرم) أي عاد بن إرم . (ذات العمد) صاحبة البيوت التي كانت ترتفع بالأعمدة . (جابوا) قطعوا . (ذي الأوتاد) صاحب الأوتاد ، والأوتاد الجنود يشدون ملكه أو يعذب الناس بالأوتاد . (سوط عذاب) نهاية العذاب . (بالمرصاد) يرقب أعمال العباد ويحازيهم .

بذم أفعاله مخاطباً له ، قائلاً لكل من يصنع هذا الصنيع المذموم ، (كلا)
إن لكم أفعالاً هي شر من أقوالكم : إنكم إن أكرمتكم بالغى لا تؤدرون فيه
الحقوق الواجبة من إكرام اليتيم والإحسان إليه . ولا يحض بعضكم بعضاً
على إطعام المسكين . وقد ذهبت إلى أبعد من ذلك في حب المال حيث
تجمعونه من حلال وحرام ، فتأكلون نصيب النساء والأطفال من الميراث
- وكانوا لا يورثون النساء والصبيان - وتجمعونه إلى نصيبكم ، وتحبون
جمع المال من أي وجه حباً شديداً حتى لو كان بحرمان أصحاب الحقوق
حقوقهم .. قال تعالى :

« فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ
رَبِّيَ أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ
رَبِّيَ أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ لَا تُكْرُمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحْضُونَ
عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩)
وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) » .

وبعد أن ذم سبحانه ما تقدم من أقوال الإنسان وأفعاله أورد شيئاً
من أهوال يوم القيامة . وأعقبها بتحسر الإنسان المفرط في دنياه حين

(قدر عليه رزقه) ضيقه . (التراث) الميراث . (أكلا لماً) شديداً حيث يأكل
نصيبه إلى نصيب غيره . (جمًّا) كثيراً .

يشاهد الأهوال ؛ فذكر سبحانه أن الأرض تدك « دكا دكا » أي مرة بعد أخرى ، ويكسر كل شيء عليها من جبال وبناء وشجر ، ويحيي الله لفصل القضاء بين عباده ، مجيئاً يليق بجلاله وعظمته ، وقد أثبت أهل السنة هذه الصفة لله على ما يليق بجلاله دون التعرض لتأويلها أو تشبيهها أو تكيفها ، وتجيء الملائكة صفوفاً بين يديه سبحانه ويؤتى بهم كما جاء في الحديث عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يؤتى بهم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها ، عندئذ وفي ذلك اليوم يتذكر الإنسان تقريظه وما قدمه من عمله في الدنيا ، ويتعظ الكافر ويتوب ، ولكن هيهات ، وكيف تنفعه التذكرة ، ومن أين له التوبة .. فيندم على ما كان منه من المعاصي إن كان عاصياً ، ويتمنى لو قدم في دنياه الخير والعمل الصالح لآخرتة ولحياته الدائمة . وفي ذلك اليوم ليس أحد أشدّ عذاباً من تعذيب الله لمن عصاه . وليس أحد أشدّ وثاقاً من الله لمن كفر به ، والوثاق هو الأمر في السلاسل والأغلال أي لا يبلغ أحد من الخلق ما يبلغه الله في العذاب لمن كفر به وعصاه ، وهذا العذاب والوثاق للمجرمين والظالمين ؛ أما النفس المطمئنة وهي الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن وهي النفس المؤمنة ، فيقال لها : يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى جوار ربك وثوابه وما أعدّه لعباده في جنته راضية في نفسك بالثواب مرضية عنك أي قد رضي الله عنها وأرضاها . ويقال لها ادخلي في جملة عباد الله الصالحين وادخلي الجنة دار كرامته ، قيل يقال ذلك عند الاحتضار وفي يوم القيامة أيضاً .. قال تعالى :

« كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ
صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ
وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤)
فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦)
يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨)
فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) » .

تفسير سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدِ
وَمَا وَلَدٍ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) »

أقسم سبحانه بهذا البلد وهو مكة ، فدل ذلك على عظم قدرها وحرمتها
ووعده نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحلها له حتى يقاتل فيها . وهو معنى
قوله تعالى : (وأنت حل بهذا البلد) أي حلال بهذا البلد تصنع فيه
ما تريد من القتل والأسر ، وقد أحل الله لنبيه مكة يوم الفتح : قاتل
فيها وقتل ثم قال إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض ولم
تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي وإنما أحلت لي ساعة من نهار
فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . ثم أقسم سبحانه بالوالد وما ولد ،
قيل أراد بالوالد آدم والولد ذريته ومعنى ما ولد أي ما نسل ، أقسم
بهم لأن فيهم الأنبياء والصالحين والدعاء إلى الله ، وقيل أراد بالوالد
والولد العموم لكل والد ومولود وجواب القسم هو (لقد خلقنا
الإنسان في كبد) وأصل الكبد بفتح الباء الشدة ومعنى الآية لقد

(لا أقسم) أقسم ، و « لا » زائدة . (حل) أي حلال . (كبد) شدة ومشقة .

خلق الله ابن آدم في شدة وعناء يكابد شدائد الدنيا منذ طفولته ويكابد شدائد الآخرة بعد ذلك .

ثم أخذ سبحانه يذكر غرور الإنسان بما أوتي من نعم الله عليه ويقول :
إنني لا يقدر أحد مهما أوتي من القوة على قهري . ويعني بهذا الإنسان شخصاً
معيناً في قریش قيل : هو أبو الأشد ، وقيل غيره ، وقيل المراد بالإنسان الجنس
فتكون الآية التالية عامة . ومعناها : أیظن ابن آدم أن الله لا يقدر على بعثه
ومعاقبته ؟ قال تعالى :

« اَيَحْسَبُ اَنْ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ اَحَدٌ (٥) » .

ولكن إذا كان المراد بهذه الآية شخصاً معيناً فيكون تفسير الآية التالية
إنه أنفق مالا كثيراً ملبداً بعضه على بعض في عدااء الرسول ﷺ على زعمه وهو
كاذب . وإن كان المراد به الجنس الإنسان فيكون المعنى أن ابن آدم يقول
لقد أنفقت مالا كثيراً ، فمن يحاسبني به . أیظن أن الله لم يره فيعلم مقدار
نفقته ؟ وقيل أیظن أن الله لا يسأله عن ماله من أين اكتسبه وفيه أنفق ؟
قال تعالى :

« يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (٦) اَيَحْسَبُ اَنْ لَّمْ يَرَهُ
اَحَدٌ (٧) » .

ثم أخذ سبحانه يعدد عليه شيئاً من نعمه ويذكرها ليشكر . فقال

« مالا لبداً » كثيراً بعضه فوق بعض .

في صيغة الاستفهام التقريري . أما جعلنا له عينين يبصر بهما المرئيات ،
ولساناً ينطق به ويعبر عما في ضميره ، وشفقتين يستعين بهما على الكلام
وأكل الطعام ، وجمالاً لوجهه وفمه ، وبيئنا له طريق الخير والشر والحق
والباطل والهدى والضلال ، فهلا كان من الأجدر به مقابل هذه النعم
أن ينفق ماله في مرضاة الله مما يحتاج به العقبة ، وهي في جهنم ،
وقيل : أنها مثل ضربه الله لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في
أعمال البر فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة ، ثم عظم شأن العقبة
بالسؤال عنها ، وأرشد إلى اقتحامها بسلوك أبواب من الخير : من
فك الرقاب أي عتقها من الرق ، وإطعام اليتيم القريب في يوم المجاعة ،
وإطعام المسكين الذي لا شيء له حتى كأنه لصق بالتراب من الفقر ،
ثم كان مع هذه الأعمال الكريمة التي ذكرت ، من المؤمنين الذين يحتسبون
ثواب ما قدموا من عمل صالح عند الله ، ومن الذين يوصي بعضهم
بعضاً بالصبر على طاعة الله ، والصبر عن معاصيه والصبر على ما يصيبهم
من البلاء ومن أذى الناس ، من الذين يوصي بعضهم بعضاً بالتراحم
والرفق بالخلق ، ولذلك رحوا اليتيم والمسكين . وأصحاب هذه الأوصاف
وصفهم الله سبحانه بأنهم أصحاب اليمين ، الذين يؤتون كتب أعمالهم
بأيمانهم ، أما الذين جحدوا بآيات الله بها وبالقرآن وكفروا فهم أصحاب
الשמال : (عليهم نار مؤصدة) تطبق عليهم فلا محيد لهم عنها ولا مخرج لهم
منها . قال تعالى :

« أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ

النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢)
فَكَ رَقَبَةً (١٣) أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا
مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ
آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ
الْمِثْمَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩)
عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ (٢٠) .

« النجدين » طريق الخير وطريق الشر . « فك رقة » عتق عبد أو جارية . « مسغبة »
مجاوعة . « متربة » فقر شديد . « المرحمة » الرحمة . « الميمنة » اليمين . « المشأمة »
الشمال . « مؤصدة » مطبقة عليهم .

تفسير سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) » .

هذه جملة أشياء أقسم بها الله تعالى ، فأقسم بالشمس وارتفاع ضوئها وهو ضحاها ، وأقسم بالقمر إذ تبع الشمس في الضياء والنور وذلك في النصف الأول من الشهر : إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة ، وأقسم بالنهار إذا جلا ظلمة البسيطة أي كشفها . أو جلا الشمس بأن تم فيه وضوحها ، وأقسم بالليل إذا غشي الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق . وأقسم بالسماء (وما بناها) أي ومن خلقها وهو الله سبحانه أي أقسم بنفسه ، وأقسم بالأرض (وما دحاها) أي ومن بسطها ومهدا للسكنى ، وأقسم بالنفس والمراد بها كل نفس من الجنّ ومن الإنس (وما سواها)

(وضحاها) ضوءها . (تلاها) تبعها . (جلاها) كشف الظلمة . (يغشاهها) يغطيها . (سواها) خلقها مستقيمة .

أي عدل خلقها وسوى أعضائها ، أقسم بمن سوى هذه النفس ، وبين لها طريق الخير والشر وعرفها طريق الفجور والتقوى لتسلك أيهما شاءت حسب تقديره لها في الأزل من الشقاوة أو السعادة .. أقسم الله سبحانه بكل هذه الأقسام أن الفوز والفلاح لمن يزي نفسه ويطهرها من الذنوب والمعاصي ، وأن الخيبة والخسران لمن يضع من نفسه ويحقرها بالذنوب والمعصية والكفر .. ومعنى دساها أخفاهما كأن الكافر أو العاصي أخفى نفسه بالكفر والمعاصي من أن ترتفع وتظهر بالطاعة والإيمان . قال تعالى :

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) » .

ثم ذكر سبحانه قصة ثمود ، وهم قوم صالح لأخذ العبرة منها وليرتدع من كذب رسول الله من قريش عن تكذيبه ، خشية أن يصيبه ما أصاب من قبله من الأمم المكذبة ، فأخبر سبحانه أن ثمود بسبب طغيانها كذبت رسول الله صالحاً فيما أخبرهم به من عذاب الله ، حين قام لعقر الناقة التي جعلها لهم آية ، قام لعقرها أشقى ثمود ، فنهاهم رسول الله صالح عن عقرها قائلاً احذروا عقر ناقة الله وذروا الماء في اليوم الذي تشرب منه لا تتعرضوا له ولا تعتدوا عليها في سقيها ، فكذبوا صالحاً فيما جاءهم وفيما أنذرهم به من العذاب وتجراً أو فعقروا الناقة ، فأهلكهم الله هلاك استئصال فلم يفلت منهم أحد ، لأنهم أجمعوا على قتل الناقة وتكذيب الرسول ، فسوى الله بينهم في العذاب والدمدمة والتدمير وتضعيف

« زكّاها » طهرها . « دساها » نقصها وانخط بها .

العذاب وإطباقه عليهم ، فعل بهم سبحانه كل ذلك ولم يخف فيه تبعه من أحد ،
فهو الحكيم في صنعه لا يسأل عما يفعل . قال تعالى :

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ
لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ
عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥) » .

« بطغواها » بطغيانها . « انبعث » أسرع . « سقياها » شربها . « دمدم » فدمر .
« فسواها » عاقبهم على السواء . « عقباها » عاقبتها

تفسير سورة الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ
الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) » .

أقسم سبحانه بالليل حين يغشى النهار بظلمته فيذهب بضوئه ، وأقسم
بالنهار إذا بان وظهر بضياءه وإشراقه ، وأقسم سبحانه بنفسه وهو الذي
خلق الذكر والأنثى من ماء واحد ، أقسم أن أعمال العباد مختلفة متضادة
فمن فاعل خير ومن فاعل شر .

ثم فصل في ذلك فقال : أما الذي أعطى ماله في سبيل الله
وأعطى ما أمر بإخراجه من الزكاة وخاف الله تعالى فلم يرتكب محارمه ،
بل وفى كل أموره وصدق بالحسنى - قيل هي المجازاة على الأعمال
والثواب عليه ، وقيل : بالخصلة الحسنى وهي الإسلام والاعتراف
بالشهادة - فسيهيئه الله في الدنيا للخلعة اليسرى ، وهي العمل بما يرضي
الله تعالى ، وعلى العكس من ذلك من يخل بالنفقة في الخير ، واستغنى
عن ثواب الله فلم يرغب فيه ، وكذب بالحسنى كما مر تفسيرها ، فسيهيئه
الله لطريق الشر حتى يعمل بما لا يرضي الله فيستوجب به النار . جاء في

« يغشى » يغطي . « تجلى » ظهر . « لشتى » مختلف .

الحديث : اعملوا فكل ميسر لما خلق له . أما أهل الشقاء فييسرون لعمل أهل الشقاء ، وأما أهل السعادة فسييسرون لعمل السعادة - ثم قال سبحانه : وأي شيء ينفع هذا البخل بالمال إذا مات وتردّى أي وقع في جهنم ؟ وقيل : وما يغني عنه أي ليس ينفعه ماله إذا مات أو هوى في النار ، فما هنا معناها النفى . قال تعالى :

« فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) » .

وبعد أن بيّن سبحانه ما للمحسن من اليسرى وما للعسيء من العسرى ، أخبر أن بيده سبحانه الإرشاد والهداية ، وعليه بيان طريقهما يرشد أوليائه إلى العمل بطاعته ويصرف عن العمل بها أعداءه ، وأخبر أيضاً أن الدنيا والآخرة ملك له فمن طلبها من غيره أخطأ الطريق . قال تعالى :

« إِنَّا عَلَّمْنَا لَهْدَى (١٢) وَإِنَّا لَنَّا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى (١٣) » .

ثم أخذ سبحانه يخوف المكذبين لرسوله من عذاب النار ، وأخبر أنها (تلظى) أي تتوقد وتتلهب ، ولا يدخلها إلا الشقي الذي كذب الرسول وأعرض عن الإيمان ، وسوف يُبعد عن النار التقى الذي يعطي ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه ولا يطلب بما ينفقه رياء وسمعة

(بالحسنى) بالخصلة الحسنى . (فسيسره) نهيه . (اليسرى) للخير . (كذب) (بالحسنى) بالجزاء . (العسرى) للشر . (تردى) هوى وسقط .

وهو أبو بكر الصديق في قول المفسرين جميعاً كان رضي الله عنه وأرضاه يشتري العبد المسلم فيعتقه تخليصاً له من تعذيب قريش . ولفظ الآية عام في كل من يتصف بخلال الخير ولا يفعل الخير جزاء على نعمة أنعم بها عليه أحد فيما سبق فيكون كـرد الجميل . لكنه يفعل الخير خالصاً لوجه الله تعالى رجاء أن يثيبه الله عليه في الآخرة . ومن حسن الثواب النظر إلى وجه الرب الكريم في روضات الجنات . وسوف يرضى هذا المحسن بما يعطيه الله له من الجزاء في الآخرة على إحسانه في الدنيا ، قال تعالى :

« فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١) » .

(تلظى) تتلظى أي تنوقد . (لا يصلها) يحترق بها . (تولى) أعرض عن الإيمان والعمل . (نعمة تجزى) يد يكافأ عليها .

تفسير سورة الضحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلِالْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) » .

أقسم سبحانه بوقت الضحى وهو صدر النهار . وقيل المراد به النهار كله . كما أقسم بالليل إذا سجد أي سكن واستقر ظلامه . وقيل سجد غطى كل شيء بظلامه . وأقسم أنه ما ودَّع الرسول أي ما تركه منذ اختاره لرسالته ولا أبغضه منذ أحبه . وذلك أنه عندما فتر نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الوحي الأول قالت قريش ودعه ربه وقلاه . فردَّ الله عليهم بقوله : (ما ودَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) فهو الحبيب المختار . وإن له في الدار الآخرة من المقام المحمود والحوض المورود ورفع الدرجات وغير ذلك ما يجعله يزهد في الدنيا وما فيها . فالآخرة خير له من الدنيا ولسوف يعطيه الله في الآخرة من كل ذلك حتى يرضى .

(سجدى) غطى كل شيء بالظلمة . (قلى) أبغض .

ثم أخذ سبحانه يعدد نعمه على رسوله منذ طفولته ليقبس عليها ما يُستقبل من نعم الله فتطيب نفسه ويقوى رجاؤه في الله . ووجه الخطاب إليه قائلاً : ألم تكن يتيماً حيث فقدت أبويك في طفولتك فأراك إلى عمك أبي طالب فكفلك ؟ . ووجدك ضالاً عن معرفة الشريعة فهداك إليها ، فالضلال هنا بمعنى عدم المعرفة ، أي خالي الذهن عن معرفة الشريعة وعما يراد بك من النبوة .. ووجدك الله فقيراً فأغناك عن سواه .. فالعائل هو الفقير - وهذا الفقر والغنى في المال . وغناؤه صلى الله عليه وسلم هو أن الله أعطاه الكفاف وجعله قانعاً بما أعطاه . وفي الحديث ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس ، قال الله تعالى :

« أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) » .

ذكر سبحانه تعداد هذه النعم على رسوله ثم ذكر له ثلاث وصايا ووصاه بها . والخطاب عام : وصاه بعدم قهر اليتيم أي بعدم انتصاره وإهانته وإذلاله وغلبته على ماله ومنعه من حقه .. ووجوه القهر كثيرة .. بل يتلطف باليتيم ويحسن إليه .. ووصاه أيضاً بعدم نهر السائل وزجره ، بل يرده بلين ولطف ، و (السائل) قيل المراد سائل الطعام والمال ، وقيل المراد به الذي يسأل العلم ، فعلى الأخير تكون التوصية بإرشاده وتعليمه . ووصاه أيضاً بأن يتحدث بنعم

(آوى) ضك إلى عمك . (ضالاً) غافلاً أو حائراً . (فهدى) هداك إلى التوحيد . (عائلاً) فقيراً .

الله عليه ، والمراد بنعم الله جميع النعم ، ويدخل فيها نعمة النبوة وتعليم القرآن والشرائع ، فهو من التبليغ الذي يشمله معنى التحدث بالنعمة ، قال تعالى :

« فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) » .

تفسير سورة الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) » .

(أَلَمْ نَشْرَحْ) : استفهام بمعنى التقرير ، أي قد شرح الله صدر نبيه . وشرح الصدر باتساعه للعلم وتنويره بالحكمة والمعرفة ، وقيل : المراد شق جبريل لصدره صلى الله عليه وسلم في صغره . ويكون شرح الصدر بمعنى شقه . وما بعده من الآيات : نعم يعددها الله على رسوله . ومعنى وضع عنه وزره أي حط عنه ما سلف منه في الجاهلية ، فهو كقوله تعالى : ليقفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر .. وقيل : الوزر هو تكاليف النبوة ، وضعها عنه ، أي أعانه عليها . هذا الوزر على اختلاف تفسيره أثقل ظهر الرسول صلى الله عليه وسلم وصار عليه كالحمل الثقيل ، فرفعه الله عنه ورفع ذكره عليه الصلاة والسلام فلا يذكر اسم الله إلا ويذكر اسم رسوله معه .. في الأذان والخطب .. في التشهد والدعاء .. وفي غير ذلك .. وهو أعظم رفعة لشأنه صلى الله عليه وسلم !

(نَشْرَحْ) نفسح ونوسع . (وَوَضَعْنَا) حططنا عنك . (وَزْرَكَ) الوزر الحمل والثقل . (أَنْقَضَ) أثقل .

وبعد هذه النعم .. أخذ يسليه سبحانه عن معاناة الشدائد في جهاد المشركين والصبر على أذاهم ، ويذكر سبحانه أنه قد أنعم عليه بالنعم السابقة ، وسوف يبدله من عسره الذي هو فيه ، وشدته التي يعانيتها ، يسراً .. ! وكرر سبحانه الوعد له بذلك ليعظم رجاءه . ا قال تعالى :

« فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) » .

أي مع الشدة رخاء ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم عندما أنزلت عليه هذه الآية : أبشروا .. ! قد جاءكم اليسر .. لن يغلب عسر يسرين ! .. !

وبعد أن عدد عليه نعمه .. ووعد باليسر والنصر وإظهاره على أعدائه ، أمره أن يتفرغ لعبادة ربه بحيث تكون كل أوقاته عامرة بها فلا يفرغ من عبادة إلا ويتبعها بأخرى ، والنصب هو التعب والمراد يتعب نفسه في طاعة الله شكراً لله . وأمره أيضاً أن يعلق قلبه بالله وحده ، بحيث لا يرغب في كل أحواله إلا إليه ، لا إلى أحد غيره ، قال تعالى :

« فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨) » .

(العسر) الشدة . (يسراً) سهولة . (فانصب) فاتعب . (فارغب) اجعل
رغبتك في الله .

تفسير سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣)» .

ورد في تفسير التين والزيتون جملة أقوال منها قول ابن عباس: التين تينكم الذي تأكلون ، والزيتون زيتونكم الذي تعصرون . ومنها القول بأنها ثلاثة مواضع بعث الله في كل منها رسولا : فالموضع الأول موضع التين والزيتون هو بيت المقدس بعث الله فيه عيسى ابن مريم ، والموضع الثاني (طور سين) وهو طور سيناء الموضع الذي كلم الله فيه موسى ، والموضع الثالث مكة وهو البلد الأمين بلا اختلاف .

ثم أخبر سبحانه : أنه خلق الإنسان والمراد به الجنس في أحسن صورة وشكل ، معتدل القامة مستويا ، على عكس الحيوان (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) وهو جواب القسم . ولكن الإنسان غفل عما ميز به عن سائر المخلوقات وعمل بمعاصي الله وأعرض عما ينفعه في معاده ، من أجل ذلك جعل

(طور سين) الجبل الذي كلم الله عليه موسى .

الله مرده إلى أسفل سافلين أي إلى النار في الآخرة ، إن تمادى في غيه ولم يعمل بطاعة ربه ويتبع رسله ، وقيل ، المراد بهذا الإنسان الكافر . أما المؤمن الذي يعمل الأعمال الصالحة ، فإنه لا يرد إلى النار بل يعطى جزاء أعماله أجراً غير مقطوع - وقيل أيضاً في تفسير (ثم رددناه أسفل سافلين) : إن المرء يرد بعد الشباب والنضارة إلى الهرم والشيخوخة .. فالمؤمن إذا بلغ الهرم وعجز عما كان يعمل من الأعمال الصالحة في الدنيا ، يعطى أجر ما كان يعمل في عهد الشباب والصحة أجراً وجزاء في الآخرة غير منقوص . ثم خاطب الله الإنسان قائلاً له : أي سبب يملك أيها الإنسان على التكذيب بالمعاد والجزاء على الأعمال بعد أن ظهرت لك البراهين واضحة في خلقك وانتقالك من حال إلى أخرى ، ومن قدر على الخلق قدر على إعادته ، أليس الله بأعدل الحاكمين قضاءً وحكماً ؟ ومن عدله جعل المعاد لينتصف للمظلوم من الظالم ، قال تعالى :

« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ (٨) » .

« أحسن تقويم » في أعدل خلقه . « أسفل سافلين » من أهل النار إن لم يطع ربه لأن جهنم بعضها أسفل من بعض . « غير ممنون » غير مقطوع . « بالدين » بالجزاء في المعاد .

تفسير سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢)
أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ
يَعْلَمْ (٥) » .

الخطاب بكلمة (اقرأ) موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، أول نزول
الوحي عليه إذ كان يتعبد في غار حراء ، فجاء جبريل بوحى الله وابتدأه
بقوله : (اقرأ باسم ربك) أي اقرأ ما أنزل إليك من القرآن مفتتحاً باسم
ربك الذي خلق جميع المخلوقات ثم خص الإنسان بالذكر من بين المخلوقات
لشرفه ولأنه هو المخاطب بالتنزيل ، وأخذ يفصل سبحانه في خلق الإنسان ،
فذكر أنه خلقه من علق ، وهو الدم الجامد بعد النطفة ، وعلق جمع علقه ،
ذكره بلفظ الجمع لأنه أراد بالإنسان الجمع والإنسان هو ابن آدم . ثم كرر الأمر
بالقراءة للتأكيد حيث قال : (اقرأ) . ومعنى (وربك الأكرم) أي البالغ
أقصى حدود الحلم والكرم فلا يعجل بالعقوبة على عباده بل يعفو ويتجاوز عن
سيئاتهم .. ومن عظيم نعمه وكرمه أنه علم الإنسان الخط بالقلم .. ونقله بذلك

(علق) جمع علقه وهي قطعة دم جامدة .

من ظلمة الجهل إلى نور العلم .. ولولا الكتابة لما دونت العلوم ولما استقامت أمور الدين والدنيا ولهذا قال تعالى : (علم الإنسان ما لم يعلم) أي بالكتابة علمه ما لم يكن يعلمه من العلوم النافعة والكتب المنزلة .

ثم أخبر سبحانه عن حال الإنسان وجهله ومن دلائل ذلك الجهل أن الغنى يطغيه ، وبدأ ذلك بقوله : (كلا) أي حقاً كما مر .. ثم قال : إنه إذا رأى نفسه كثير المال واسع الثروة يرفل في النعيم .. طغى وتجاوز حده وتمرد . قيل : إن هذه وما بعدها في أبي جهل وقد توعد الله سواء كان أبا جهل أو غيره بما لعله أن يجزه قائلاً : إن المرجع والمصير إلى الله ، وسوف يحاسب كل إنسان عن ماله من أين جمعه وفيه أنفق . قال تعالى :

« كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغِيَ (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ أَلُّجُعَى (٨) » .

واستمر بعد ذلك يذكر طرفاً من عداء أبي جهل لرسوله صلى الله عليه وسلم مبتدئاً ذلك بقوله : (أرايت) ومعناها ألا تخبر . ؟ وفيها معنى التعجب ! ألا تخبرني إن كان الذي تنهأ عن الصلاة عند البيت على هدى من ربه أو كان يأمر بالإخلاص والتوحيد ، أليس يكون ناهيه عن الصلاة هالكاً ؟ قال تعالى :

« أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ

كَانَ عَلَى أَلْمَدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ
وَتَوَلَّى (١٣) .

ثم تواعد سبحانه هذا الناهي وهو أبو جهل بصيغة الاستفهام التقريري
قائلاً : أما علم أن الله يراه ويعلم فعله ويسمع كلامه وتهديده وسيجازه عليه ،
قال تعالى :

« أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤) » .

ثم زاد سبحانه في تواعد هذا الناهي وتهديده ، قائلاً : إنه إن لم ينته عن
إيذاء الرسول وتكذيبه لناخذن بناصيته يوم القيامة فتطوى مع قدميه
ويطرح في النار .. ! ووصف ناصية هذا الطاغية بأنها ناصية كاذبة في قولها ،
خاطئة في فعلها ، والمراد صاحبها .. والناصية شعر مقدم الرأس ، عبّر عن
الكل بالجزء .

روي أن أبا جهل مرّ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو
يصلي عند البيت ، فقال : ألم أنك عن هذا ؟ فأغلظ له رسول الله صلى
الله عليه وسلم في القول فقال أبو جهل : بأي شيء تهددني ؟ أما والله إني
لأكثر أهل هذا الوادي نادياً .. فأنزل الله تعالى (فليدع ناديه) ليدع قومه
وعشيرته وليستنصر بهم إن كانوا يستطيعون نصره .. ! وأما نحن فإننا
(سندع الزبانية) ملائكة العذاب الغلاظ الشداد .. قال ابن عباس : لو
دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته .. ! والنادي المجلس الذي
يجتمع فيه الناس ، والمراد أهل النادي . ثم أمر الله رسوله بعصيان هذا

الناهي المعتدي كما أمره بعبادته ، والاقتراب منه : اللجوء إليه ، والصلاة له ،
وعبر عن الصلاة بحزء منها ، وهو السجود ، قال تعالى :

« كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ
خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ
وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩) » .

(لنسفعا بالناصية) الناصية شعر مقدم الرأس والمعنى لتأخذن بناصيقه ولنجرنه إلى النار .
(ناديه) قومه وعشيرته . (الزبانية) الملائكة الغلاظ الشداد ، زبانية جهنم .

تفسير سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (١٣) » .

يخبر الله سبحانه أنه أنزل القرآن في ليلة القدر ، روي عن ابن عباس وغيره قال : أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، وليلة القدر قيل معناها : ليلة العظمة والشرف .. وقيل سميت ليلة القدر لأنها ليلة تقدير الأمور والأحكام ، يقدر الله فيها أمر السنة في عباده وبلاده .. ثم قال سبحانه معظماً شأنها : (وما أدريك ما ليلة القدر) ويبين مقدار فضلها بقوله : (ليلة القدر خير من ألف شهر) أي العبادة فيها وإحيائها بالطاعة يعدل عبادة ألف شهر وبالطبع ليس في شهر منها ليلة القدر .

ثم أخبر عن زيادة فضلها وكثرة بركتها أن الملائكة يكثر تنزلهم فيها وينزل معهم جبريل .. وهو المعني بقوله تعالى : (والروح) أي وينزل الروح أيضاً ؛ ينزلون بكل أمر من الخير والشر قدره الله ،

(ليلة القدر) هي ليلة الشرف الرفيع والقدر العالي .

ونزولهم بأمر الله سبحانه ، ثم زاد في فضلها فقال : إنها (سلام) أي تسلم الملائكة ليلة القدر على المؤمنين في الأرض من حين غياب الشمس إلى أن تطلع ، وقيل : (سلام هي) أي ليلة القدر سلام وخير كلها ليس فيها شر إلى مطلع الفجر . صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في فضل قيامها : من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، وقال في وقتها : التمسوها في أوتار العشر الأواخر من رمضان ؛ أي في الأيام الفردية من الثلث الأخير من كل رمضان . قال تعالى :

« تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤)
سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) . »

(الروح) هو جبريل . (من كل أمر) بكل أمر من الخير والشر . (سلام) المراد تسلم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد أو أن ليلة القدر سلام لا يقدر الله فيها إلا السلامة .

تفسير سورة البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) » .

أهل الكتاب هم اليهود والنصارى .. والمشركون هم عبدة الأوثان والنيران من العرب والعجم ، وأخبر الله سبحانه أن أهل الكتاب والمشركون لم يكونوا منفكين أي منتهين عن كفرهم وشركهم حتى جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو البينة أي الحجة الواضحة ، أتاهم بالقرآن ودعاهم إلى الإسلام والإيمان فأمن به فريق من كل من الصنفين .

ثم وضح البينة أيضاً بقوله : (رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة) أي البينة هي الرسول الذي يقرأ القرآن والقرآن مكتوب في صحف وصفها سبحانه بأنها مطهرة من الباطل والكذب ، (فيها) أي في الصحف (كتب) أي مكتوب أحكام عادلة مستقيمة فـ (كتب) بمعنى المكتوب في الكتب وهو كما تقدم المراد به القرآن فيه أحكام الحلال والحرام وغير ذلك . قال تعالى :

« منفكين » منتهين . « البينة » الحجة الواضحة .

« رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) » .

ثم أخبر سبحانه أن أهل الكتاب كانوا مجتمعين على صحة نبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ كانوا يعلمون من كتبهم أمر بعثه فلما بعث اختلفوا وتفرقوا . فآمن به بعضهم وكفر به آخرون .. وقيل : أراد بتفرق أهل الكتب اختلافهم في الكتب المنزلة على رسلهم ، والشيء الذي أراده الله من معانيها ومقاصدها .. كما جاء في الحديث : اختلفت اليهود على إحسدى وسبعين فرقة ، واختلفت النصارى على إثنين وسبعين فرقة ، الحديث . قال تعالى :

« وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) » .

أي جاءتهم في كتبهم أنه نبي مرسل ، أي الرسول ﷺ .

ثم أخبر سبحانه أن أهل الكتاب لم يؤمروا في كتبهم إلا بعبادة الله وحده وبإخلاص الدين له وبأن يكونوا حنفاء أي مؤمنين بجميع الرسل مائلين عن الأديان كلها إلى دين التوحيد ، وأمروا أن يقيموا الصلاة أي يؤدوها في أوقاتها وأمروا أيضاً بإعطاء الزكاة الواجبة متى وجبت وهي حق المال ، ومجموع هذه الأمور هي الملة المستقيمة العادلة . قال تعالى :

« مطهرة » طاهرة من الكذب والباطل . « قيمة » عادلة مستقيمة .

« وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ (٥) » .

ثم أخبر سبحانه عن حال الأشقياء والسعداء في الآخرة فقال : إن الكفرة من أهل الكتاب والمشركين يدخلهم الله في الآخرة نار جهنم خالدين فيها لا ينفك عنهم عذابها لأنهم بكفركم وتكذيبهم صاروا شر الخليقة فجازاهم الله بالعذاب الأليم في جهنم . وعلى عكسهم المؤمنون الذين يعملون الأعمال الصالحة يتقربون بها إلى الله هم خير الخليقة جازاهم الله في الآخرة بالدخول في جنات عدن لا يتحولون عنها ، أي جنات إقامة لا انقضاء لها . ووصف سبحانه هذه الجنان بأن الأنهار تجري من تحتها ، وهم خالدون في هذه الجنات لا يموتون ولا يرتحلون وقد رضي الله عنهم بقبول أعمالهم ورضوا عن الله لما آتاهم من الثواب في الجنة . وهذا الرضاء وحسن الجزاء لكل من خاف ربه في دنياه وانتهى عن معاصيه ، قال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨) » .

« حنفاء » مقبلين على التوحيد معروضين عن الشرك . « دين القيمة » الملة المستقيمة .
« البرية » الخليقة .

التفسير الميسر - أول «٩»

تفسير سورة الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ
أُثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤)
بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) » .

يقول الله تعالى : إذا تحركت الأرض حركتها الشديدة لقيام الساعة ، وإذا
أخرجت الأرض ما في بطنها من الأموات وما في داخلها من الكنوز فألقته على
ظهرها ، واستنكر الإنسان أمرها حيث اضطربت بعد الاستقرار والسكون ،
قيل : إن الذي يستنكر أمرها ويعجب من حالها هو الكافر لأنه كان لا يؤمن
بالبعث ، أما المؤمن فهو موقن بكل ذلك فلا يعجب ولا يستغرب ، في ذلك
اليوم تحدث الأرض بأخبارها أي تخبر بما عمل العاملون عليها وتشهد عليهم
بأعمالهم ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه
الآية (يومئذ تحدث أخبارها) فقال : أتدرون ما أخبارها؟ قالوا : الله ورسوله
أعلم ، قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها
تقول عمل عليّ كذا وكذا يوم كذا وكذا ، قال فهذه أخبارها . . وهذا الإخبار

« زلزلت » حركت حركة شديدة . « زلزالها » تحريكها . « أثقالها » موتها .

والتحدث من قبل الأرض بسبب أن الله تعالى أوحى إليها أن تتحدث ، وأذن لها في ذلك .

ثم أخبر سبحانه أنه في ذلك اليوم يرجع الناس من موقف الحساب متفرقين أنواعاً وأصنافاً بين شقي وسعيد ، فأخذ ذات اليمين إلى الجنة وأخذ ذات الشمال إلى النار ، وصدورهم هذا من موقف العرض والحساب ليروا جزاء أعمالهم التي عملوها في الدنيا ، ولينزلوا منازلهم من الجنة أو النار حسب ما تؤهلهم له أعمالهم ، فمن يعمل في الدنيا وزن نملة صغيرة - أصغر ما تكون من النمل - من خير أو شر يلقى جزاءه في الآخرة . قال ابن عباس : ليس مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً في الدنيا إلا أراه الله له يوم القيامة فأما المؤمن فيرى حسناته وسيئاته ، فيغفر الله له سيئاته ويثيبه على حسناته ، وأما الكافر فتزد حسناته ويعذب بسيئاته . قال تعالى :

« يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) » .

« يصدر الناس » يرجع الناس من موقف الحساب . « أَشْتَاتًا » متفرقين . « مِثْقَالَ ذَرَّةٍ » وزن نملة صغيرة .

تفسير سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ
ضُبْحًا (٣) فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) » .

أقسم الله سبحانه بالخيول حين تعدو بأصحابها للغزو في سبيل الله فتضبح ..
والضبح صوت أجوافها إذا عدت ، وتوري أي توقد النار بحوافرها إذا اصطكت
بالحجارة من شدة العدو ، وتغير صباحاً بأصحابها فتثير الغبار وتتوسط بهم
وسط جمع العدو .. أقسم سبحانه بكل ذلك أن الإنسان لنعم ربه لوجود ،
وأن الله على كفر الإنسان لنعم ربه لشهيد ، وقيل أقسم : إن الإنسان شاهد على
نفسه بهذا الكفر لنعم الله بما يظهر من ذلك في أقواله وأفعاله ، وإن الإنسان (لخب
الخير) وهو المال (لشديد) أي لشديد الحرص على المال ، بخيل به لشدة حبه
له ، أفلا يعلم هذا الإنسان الكفور لنعم الله الشديد الحرص والحب للمال أن
الله سبحانه سوف يثير القبور ويخرج ما فيها من الأموات ليوم البعث ،

« العاديات » الخيل إذا أجريت في سبيل الله . « ضبحاً » الضبح هو الصوت الذي يسمع
من الفرس حين تعدو . « فالموريات » قدحاً أي تصطك نعالها بالضر فتقدح منه النار .
« نقعاً » غباراً .

وسوف يبرز ما يكون مكنوناً في الصدور ومستوراً في النفوس فيحاسب العباد
ويجازيهم عليه يوم الجزاء . فهو عليهم في ذلك اليوم ولا يخفى عليه منهم
خافية ، وكل الآيات التي وردت بعد ذلك القسم جواب له .. قال تعالى :

« إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧)
وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩)
وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١) » .

تفسير سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣)
يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ
كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) » .

(القارعة) من أسماء القيامة سميت بذلك لأنها تفرع القلوب بالفرع .
(ما القارعة) استفهام عن القارعة ، معناه أي شيء هي القارعة ، وأعاد
سبحانه الاستفهام في الآية التالية تعظيماً لشأن القارعة وتهويلاً لأمرها . (وما
أدراك ما القارعة) ثم فسر ذلك بقوله : (يوم يكون الناس كالفراش المبعوث)
أي تكون القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبعوث . والفراش هو ما يطير
في الجو ويتهاافت على السراج ويتساقط في النار ، شبه الناس عند البعث
بالفراش في انتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومجيشهم وحيرتهم مما هم فيه ،
ثم شبه الجبال بالصوف المنفوش الذي شرع في الذهاب والتمزق ، أي تصير
هباء وتزول .

(القارعة) من أسماء القيامة . (الفرش) دويبات صغيرة تنهافت في النار . (المبعوث)
المفرق . (العهن) الصوف .

ثم ذكر الله ما يكون بعد ذلك من وزن الأعمال فمن ثقلت موازين أعماله ورجحت حسناته على سيئاته فهو في عيش مرضي يرضاه صاحبه في الجنة؛ وعلى عكسه من خفّت موازين أعماله بمعنى رجحت سيئاته على حسناته فسكنه النار . سمي المسكن أمّا لأن الأصل في السكون أن يكون إلى الأمهات . والهاوية اسم من أسماء جهنم ، سميت بذلك لأنه هوي فيها مع بعد أسفلها ...! ثم استفهم عنها سبحانه أي عن الهاوية لتحويل أمرها وفسرها بقوله : (نار حامية) شديدة الحرارة قوية اللهب . قال تعالى :

« فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧)
وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ
مَا هِيَ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) » .

تفسير سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) .

هذا إخبار والمراد منه الوعظ والتقريع ، ومعناه : شغلتكم المكاثرة والمباهاة بكثرة المال والعدد ، عن طاعة الله وما ينجيكم من عذابه ، وتماديتم في ذلك حتى جاءكم الموت ودفنتم في المقابر . ثم أخذ سبحانه يتوعد المتكاثرين بقوله (كلا سوف تعلمون) أي انزجروا عن هذا التكاثر ، وكرر هذا الوعيد مبالغة في الزجر ومعناه سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم بالمال والولد واشتغالكم بذلك عن الآخرة إذا نزل بكم الموت ، قال تعالى :

« كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) » .

وكرر سبحانه الزجر في الآية التالية بقوله : (كلا) . ثم قال بعدها لو تعلمون علماً يقيناً عاقبة أمركم بعد الموت ، لشغلكم ذلك عن التكاثر والتفاخر ، ثم توعد سبحانه عباده برؤية النار في الآخرة بأبصارهم ، ثم أكد هذا الوعيد بتكراره معطوفاً بثم تغليظاً في التهديد والتوعد قائلاً

(ألهاكم) شغلكم . (التكاثر) أي المفاخرة بكثرة المال والولد . (زرتهم المقابر) متم ودفنتهم في المقابر .

لترونها رؤية هي اليقين نفسه ، ولسوف تسألون في يوم الجزاء عن كل ما أنعم الله به عليكم في الدنيا من النعم على اختلاف ألوانها ، قال تعالى :

« كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرُونَ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوْنها عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) » .

تفسير سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) » .

العصر قيل : هو الزمان . وأقسم الله به لما فيه من العبر والعجائب . وقيل : هو صلاة العصر أقسم الله بها لفضلها ، وأقسم سبحانه أن جنس الإنسان في خسارة وهلاك .

ثم استثنى من هذا العموم الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الأعمال الصالحة يجوارحهم ، وأوصى بعضهم بعضاً بلزوم الحق وهو التوحيد والإيمان وأداء الطاعات ؛ وأوصى بعضهم بعضاً بالصبر على أقدار الله المؤلة ، وبالصبر على الأذى في حالة أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، قال تعالى :

« إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) » .

(العصر) الدهر ، أو وقت صلاة العصر . (خسر) خسارة وهلاك . (تَوَّاصَوْا) أوصى بعضهم بعضاً .

تفسير سورة الهمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١)» .

الهمز : يكون بالقول واللمز بالفعل . والمراد انتقاص الناس وازدراؤهم ، وقد توعد الله أصحاب هذه الرذائل بالويل وهو الخزي أو العذاب أو الهلاك .

والذي حمل هذا الهماز اللماز على الزاوية بالناس وانتقاصهم هو كثرة ما جمعه من المال وإحصاء عدده ، يظن أن في هذا الجمع والإحصاء زيادة في رفع مكانته على من هو دونه ، ويظن أيضاً أن جمعه المال سوف يكتب له الخلود في الدنيا .. قال تعالى :

«الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يُحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣)» .

ثم ردَّ الله عليه هذا الظن الكاذب والزعم الباطل بقوله (كلا) أي ليس جمعه المال الذي يخلده في الدنيا ، بل سوف يموت ، وليطرحن في جهنم جزاء صنيعه ، سميت جهنم بالخطمة لأنها تحطم ما يلقي فيها وتلتهمه ، وفسر الخطمة وعظم من شأنها بالإستفهام عنها قائلاً (وما أدراك ما الخطمة ، نار الله الموقدة) أي الخطمة هي نار الله الموقدة ، أي المسعرة المتلهمية ،

(همزة لمزة) طعان مقتاب . (عدده) أحصى عدده .

ثم وصفها سبحانه بأوصاف تشعّر بمغايرتها لنار الدنيا ، وبشدة عذابها فوصفها أولاً بأن ألمها يصل إلى القلوب ، وهو المراد بقوله تعالى : (تطلع على الأفئدة) وذكر ثانياً أنها مطلعة على من يعذب فيها بحيث لا يستطيع الانفكاك من عذابها أو الخروج منها ، وذكر أيضاً أنها مع إطباقها عليهم تكون موصدة بأعمدة أي بأوتاد من حديد من نار زيادة في شدة التعذيب حتى يرجع عليهم غمها وحرها . وقيل : إن أصحاب النار يعذبون بعمد في النار . قال تعالى :

« كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥)
نَارُ اللَّهِ الْمَوْقِدَةُ (٦) الَّتِي تَطْلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ
مُؤَصَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩) » .

(لينبذون) ليلقون . (الحطمة) من أساء النار . (تطلع على الأفئدة) يبلغ ألمها إلى القلوب . (مؤصدة) مطبقة مغلقة . (في عمد ممددة) يعذبون في النار بعمد أو أنها مطبقة عليهم بعمد ممدودة على أبوابها .

تفسير سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدُهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥) ».

قصة أصحاب الفيل مشهورة مذكورة في التفاسير وكتب السير بطرق مطولة ، والعبارة منها حماية الله لبيته ممن أراد به كيداً وعزم على هدمه وهي نعمة عظمت على قريش جيران البيت تبعث على الشكر والقيام بتوحيد الله وطاعته ، وفيها أيضاً الأدلة العظيمة على قدرة الله تعالى وشدة عقابه للظالمين . وبدأ سبحانه السورة بالاستفهام التقريري قائلاً (أَلَمْ تَرَ) قيل الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أي ألم تعلم ما فعلت بأصحاب الفيل الذين قدموا لهدم الكعبة والخطاب وإن كان للنبي صلى الله عليه وسلم لكنه عام يشعر بعظم منة الله تعالى ، وأصحاب الفيل من الحبش قائدهم يدعى أبرهة كان معه فيل ، وقيل

« كيدهم » مكروهم . « تضليل » خسارة وبطلان . « أبابيل » جماعات كثيرة متفرقة . « سجيل » الطين المتحجر . « كعصف » العصف : التبن أو ورق الزرع الذي أكلته الدواب فصار روثاً .

جملة أفيال غير أن فيلهم هو أعظم الفيلة فنسبوا إليه ، ولم يستطيعوا تنفيذ
خطتهم بل انتقم الله منهم قبل أن يصلوا إلى البيت ، ولذلك قال تعالى : (ألم
يجعل كيدهم) أي مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة وهدمها في خسارة
وبطلان حيث أرسل عليهم من أضعف مخلوقاته جماعات من الطير ، فمعنى أبابيل
أي مجتمعة ، وقيل متتابعة بعضها في إثر بعض ، هذه الجماعات العظيمة من الطير
ترمي هؤلاء المعتدين الذين قصدوا هدم الكعبة بحجارة من طين ؛ أحمي عليها في
نار جهنم ، قيل معنى السجيل الطين الذي تحجر ، فكان وصفهم بعد هذا العذاب
الذي أنزله الله بهم كالعصف المأكول ، قيل هو التبن ، وقيل ورق الزرع الذي
يكون كالغلاف على الزرع تأكل الدواب بعضه ويتناثر ويتفرق البعض الآخر ،
وقيل تأكله الدواب فيظهر منها روثاً ثم تتفرق أجزاء الروث ، شبه تقطع
أوصالهم وتناثر أجزائهم بتناثر أجزاء الروث .

تفسير سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) » .

تقول ألفت الشيء إلفاً وآلفته إيلافاً لزمته وعكفت عليه ؛ ومعنى إيلاف قريش : عجبوا للزوم وعكوف قريش وحبها رحلة الشتاء والصيف وتركها لعبادة الله . ولهذا قال :

« إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) » .

أي لزومها لرحلة الشتاء التي كانت ترتحلها إلى اليمن لغرض التجارة ولزومها لرحلة الصيف التي كانت ترتحلها للشام لغرض التجارة أيضاً ، وكانت العرب تحترمها فلا تعرض لها في أسفارها بسوء لأنها تسكن في جوار البيت وذلك بما يستوجب شكر هذه النعمة ، ولذلك أمرهم الله تعالى بعبادته وحده دون سواه فهو رب البيت الذي من أجله يحترمهم الناس ، والبيت هو الكعبة المشرفة وقيل : المراد به الحرم ، وهو الذي أطعمهم من بعد جوع بأن جعل الأرزاق تجيء إليهم من كل بلد بدعوة خليل الله إبراهيم وهم في وادي غير ذي زرع ، وهو الذي أمنهم من المخاوف فلا يعرض لهم أحد بسوء لا في بلدهم مكة لأنها

(لإيلاف قريش) لإلفهم وتعودهم ، اعجبوا لذلك !

حرم حرمها الله تعالى ولا في أسفارهم لأنهم سكان الحرم ، وذلك ما يستوجب الشكر العظيم للنعيم بهذه النعم وهو الباري جل وعلا ، وفي مقدمة شكره إخلاص العبادة له فلا اتخاذ وسطاء ولا اتخاذ شفعاء كما يفعلون ، ولا عبادة أوثان ولا عبادة أصنام كما يعبدون ، قال تعالى :

« فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ
وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) » .

تفسير سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ
الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) » .

بدأ سبحانه هذه السورة بالاستفهام عن (الذي يكذب بالدين) أي بالحساب
والجزاء ، ثم قال إن كنت لا تعرفه فهذه أوصافه : إنه (يدع اليتيم) أي
يدفعه دفعا عنيفا ويزجره إن جاء يطلب شيئا ، أو جاء يطالب بحقه ، وهو
أيضا لا يرغب في إطعام المسكين ولا يفعله لأنه يكذب بالجزاء عليه . قيل :
أراد بهذه الآيات شخصا معينا هو العاص بن وائل أو الوليد بن المغيرة .
وقيل : هي عامة والخطاب بالاستفهام في أول السورة موجه إلى الرسول
صلى الله عليه وسلم .

ثم عقب على هذه الأوصاف المذمومة بأوصاف أخرى لفريق آخر
من الناس ، هي أيضا موضع الذم ، وتوعد أصحابها بالويل وهو العذاب
أما أصحابها فهم المنافقون وأول أوصافهم أنهم (عن صلاتهم ساهون)
ثم وضع ذلك بأنهم (براءون) أي يصلون الصلاة في العلانية ليظن فيهم

(أرايت) هل عرفت . (بالدين) بالجزاء . (يدع) يدفع ويزجر .
(لا يحض) لا يحث .

الإسلام والخير ، ويتركونها في السر لأنهم لا يؤمنون بها فهم ساهون عن فعلها بتركها .. وهم مراءون بها عند فعلها تامة . وثاني أوصافهم أنهم لا يحسنون إلى العبادة حتى بالأمور الصغيرة التي يحصل بها التعاون كإعارتهم أواني الطعام والشراب وغيرها للمحتاجين إليها ، والزكاة من أبرز ما يكون به التعاون ، ولهذا صرف بعض المفسرين قوله تعالى : (ويمنعون الماعون) إلى الزكاة أي لا يخرجون زكاة أموالهم التي يحصل بها تعاون الأغنياء للفقراء ، قال تعالى :

« فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥)
الَّذِينَ هُمْ يُرَاهُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) » .

قال كثير من العلماء : إن كل من أخر الصلاة عن وقتها ولم يؤدها تامة كما أمر الله بأركانها وشروطها فهو ساهٍ يلحقه ما في هذه السورة من الوعيد . فلنحافظ على الصلاة . وقانا الله شر المال ، وأعاننا على خير الأعمال .

تفسير سورة «الكافرون»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) » .

أمر الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يوجه الخطاب إلى المشركين وأن يتبرأ منهم وما يعبدون ، وذلك أن قريشاً طلبت منه أن يعبد آلهتهم سنة وهم أيضاً يعبدون الله تعالى سنة فيجاملهم ويحاملونه ، فتبرأ الرسول كما أمره ربه من عبادة ما يعبدونه في الحال وأخبرهم بأنهم يكذبون في ادعائهم عبادة الله وحده في الحال أيضاً ، ثم كرر لهم البراءة من معبوداتهم في المستقبل كذلك ، وأخبرهم أنهم لن يفعلوا ذلك في المستقبل أيضاً بل سيظلون في كفرهم بالله وما اتخذوه لأنفسهم من معبودات باطلة ، لأن عبادة الله وحده لا تستقيم مع الإشراك به ودين الله لا يستقيم إلا بالبراءة من الشرك وما يتصل بالشرك .. قال تعالى :

«وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥)» .

وختم هذه البراءة بإخبارهم أن لهم دينهم الذي اختاروه لأنفسهم وهو الشرك وله دينه الذي ارتضاه الله له وهو التوحيد . وقيل إن هذا الخطاب بهذه السورة لمن سبق في علم الله أنهم لن يؤمنوا ولن يهتدوا . قال تعالى :

« لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) » .

تفسير سورة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) » .

النصر هو العون ، والفتح ، فتح مكة . والمراد نصر الله لرسوله ﷺ عليه وسلم وعونه له حتى تمت له الغلبة على أعدائه ومكّنه الله من فتح مكة . المعنى إذا رأيت نصر الله لك وتأيمده بفتح مكة وجعلها دار إسلام ورأيت الناس على العموم يدخلون في الإسلام جماعات ؛ عندئذ صل شكراً لله حامداً له على ما آتاك من الظفر والفتح ، ولذلك صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ثمانين ركعات شكراً لله تعالى وقيل : المراد من معنى هذه السورة أنك إذا فتحت مكة ودخل الناس في الإسلام أفواجا فقد فرغ شغلك من الدنيا وانتهت مهمتك فتهياً للقدوم علينا وفي خلال ذلك (سبح بحمد ربك) أي قل سبحان الله وبحمده .. سبحانك اللهم وبحمدك .. وما شابه ذلك وأكثر من

(النصر) هو العون . (الفتح) فتح مكة . (أفواجا) جماعات .

الاستغفار إنه كان تواباً . قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن أنزلت عليه سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) إلا يقول : سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي . وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثير من الصحابة من هذه السورة دنو أجله . روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما سمعها بكى وقال : الكمال دليل الزوال .. وبكى العباس أيضاً ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما يبكيك يا عم ؟ قال : نعت إليك نفسك ، قال : إنه لكما تقول - أي مثما تقول - وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها أياماً ، قيل ستين ، وقيل أكثر ، ثم التحق بالرفيق الأعلى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه .

تفسير سورة المسد

بسم الله الرحمن الرحيم

« تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) » .

تبت أي خسرت والتباب هو الخسران ، والمراد أبو لهب نفسه هو الذي خاب وخسر ، (وتب) تحققت خسارته وهلاكه ، فتبت الأولى دعاء عليه بالخيبة والخسارة و (تب) الثانية خبر عنه بأنه قد خسر فعلاً . وأبو لهب هو عبد العزى أحد أعمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من أشد الناس عداوة لرسول الله ، وقيل في سبب نزول هذه السورة : إن الرسول صلى الله عليه وسلم صعد الصفا وجعل ينادي بأعلى صوته قائلاً : واصباحاه فاجتمعت عليه قريش فقال لهم : إني لكم نذير بين يدي عذاب شديد ، فقام عنه أبو لهب وهو ينفض يده ويقول : تباً لك ، ألهذا جمعنا ؟ فأنزل الله هذه السورة .

وكان أبو لهب صاحب مال وولد فاعتز بماله وولده ، وقال : إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإني أفندي نفسي بمالي وولدي فردّ الله عليه بأنه خاب وخسر ولن يغني عنه شيء من عذاب الله لا ماله ولا ولده ، عبر عن الولد بقوله (وما كسب) لأن الولد من كسب أبيه ، وقيل (ما كسب) أي ما اكتسبه

(تبت) خسرت . (وتب) خسر وخاب .

من المال ، وسوف يدخل ناراً يصلى بجرها تتلهب عليه . وستصطلي وتعذب بهذه النار أيضاً امرأته وهي أم جميل أخت أبي سفيان ، أخبرنا عنها أنها (حمالة الخطب) ومعنى ذلك أنها كانت تمشي بالنميمة إطفاء لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم . يقال لمن يسعى في الفتنة ويفسد بين الناس .. هو يحمل الخطب ، وقيل : كانت تحمل الشوك تضعه في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم لإيذائه . ثم وصف سبحانه لونها من عذابها في النار فأخبر أنها تطوق في عنقها وهو معنى (جيدها) بجبل مما أحكم قتله وهو من مسد جهنم . وقيل في عنقها طوق من حديد ، وقد كان لها قلادة فاخرة تتحلى بها في عنقها فقالت لأنفقتها في عدا محمد ، فأبدلها الله عنها حبلاً من مسد النار ، قال تعالى :

« مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣)
وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْخَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ (٥) » .

تفسير سورة الاخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) » .

سبب نزول هذه السورة أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ : انسب لنا ربك ، وقال بعضهم : صف لنا ربك ، فأنزل الله هذه السورة ، والأحد هو الذي لا شبيه له ولا مثيل ولا نظير . والصمد هو السيد الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم أي تقصده في جلب النفع ودفع الضر عنهم ، وتلك هي صفات الإله الحق المعبود . وهو الذي لم يلد ولم يولد ، أي ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة . وهو الذي لم يكن له أحد كفواً ، أي ليس له نظير ولا مماثل . ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

« الله الصمد » المقصود وحده في قضاء الحوائج . « كفواً » نظيراً ومماثلاً .

تفسير سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) » .

أمر الله رسوله بالالتجاء إلى رب الفلق والاعتصام به ، والفلق هو الصبح ، وأن يستعين من شر جميع المخلوقات ، ومن شر الليل وهو الغاسق (إذا وقب) إذا دخل بظلامه ، وأمره أن يستعين من شر السواحر إذا رقين ونفثن في عقد الخيط ومن شر أي حاسد إذا أظهر حسده وعمل به ، والحسد تمنى زوال النعمة عن المحسود . والخلاصة : أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يتعوذ من جميع الشرور ، وجعل خاتمه ذلك الحسد تنبيهاً على كثرة ضرره ومفسدته ، والخطاب عام للأمة كلها .

« أعوذ » ألوذ وأعتصم وأستجير . « الفلق » الصبح . « غاسق » الغاسق : الليل .
« وقب » دخل . « النفاثات » السواحر . « العقد » ما يعقده من الخيط وينفثن فيه السحر .

تفسير سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣)
مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ
النَّاسِ (٥) مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ (٦) » .

أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة والالتجاء إليه فهو رب
الناس ؛ أي مربيهم بنعمه ، ومصلحهم بأمره ونهيهِ ، وهو ملك الناس ، أي
مالكهم والمتصرف فيهم والمدبر أمورهم ، وهو إله الناس ، أي معبودهم الذي
لا يستحق العبادة غيره فله سبحانه الربوبية والملك والالوهية . وجملة هذه
الاستعاذات تكون من شر الشيطان فهو الوسواس .. أي الوسوس ، سمي بفعله
مبالغة ، أي كثير الوسوسة ، وهو أيضاً الخناس ، أي الذي من عادته أن يخنس
أي يرجع ويتأخر إذا ذكر العبد ربه ، وإذا غفل رجع ووسوس وهو الذي
دأبه الوسوسة في قلوب الناس ووسوسته هي الدعاء لطاعته ؛ والوسوسة الصوت
الخفي وليست الوسوسة قاصرة على الجن وشياطينهم ؛ بل في الإنس شياطين

(رب الناس) مربيهم بنعمه . (ملك الناس) مالكهم والمتصرف فيهم .

يوسوسون ويدعون إلى الباطل وطرق الشر ، ولذا قال تعالى : (من الجنة والناس) أي الذين يوسوسون : بعضهم من شياطين الجن يوسوسون في الصدور وبعضهم من شياطين الإنس يوسوسون علانية ، فأمر الله بالاستعاذة من الفريقين والالتجاء إليه من شرورهم .

وصلى الله على نبيه محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

انتهى

والحمد لله أولاً وآخراً

فهرس

صفحة	صفحة
٩٤ تفسير سورة الفاشية	٤ تفسير سورة المزمل
٩٨ » » الفجر	١١ » » المدثر
١٠٤ » » البلد	٢٠ » » القيامة
١٠٨ » » الشمس	٢٧ » » الإنسان
١١١ » » الليل	٣٥ » » المرسلات
١١٤ » » الضحى	٤٣ » » عم - النبأ
١١٧ » » الإنشراح	٥٠ » » النازعات
١١٩ » » التين	٥٨ » » عبس
١٢١ » » العلق	٦٤ » » التكوير
١٢٥ » » القدر	٦٩ » » الانفطار
١٢٧ » » لم يكن	٧٢ » » المطففين
١٣٠ » » الزلزلة	٧٩ » » الانشقاق
١٣٢ » » العاديات	٨٣ » » البروج
١٣٤ » » القارعة	٨٨ » » الطارق
١٣٦ » » التكاثر	٩١ » » سبح

صفحة	تفسير سورة العصر	صفحة
١٣٨	تفسير سورة العصر	١٤٨
١٣٩	الهمزة » »	١٤٩
١٤١	الفيل » »	١٥١
١٤٣	قريش » »	١٥٣
١٤٥	الماعون » »	١٥٤
١٤٧	الكوثر » »	١٥٥
		تفسير سورة «الكافرون»
		النصر » »
		المسد » »
		الإخلاص » »
		الفلق » »
		الناس » »



تفسير سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ (٢) إِنْ شَاءَ نَشْكَهُوَ الْآبَتَرُ (٣) » .

بدأ هذه السورة سبحانه بأنه امتن على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بإعطائه الكوثر ، والأقوال في تفسير الكوثر كثيرة متعددة ، منها أنه حوض النبي صلى الله عليه وسلم في الآخرة ، ومنها أنه القرآن والشفاعة ، ومنها أنه الخير الكثير على ما فسره بذلك ابن عباس ؛ وهو يجمع كل الأقوال . فقد أعطى الله رسوله خيراً كثيراً في الدنيا والآخرة ، وكما امتن على رسوله بإعطائه الكوثر ، أمره بعبادته وحده دون سواه ، وإخلاص الدين له ، فالصلوات كلها فرضها ونقلها أمره بأن يجعلها خالصة لله . وذبح القرابين أمره أن يجعله خالصاً لله على عكس ما يصنعه المشركون من الذبح للأوثان وغيرها ، والخطاب معني به الأمة كلها . ثم أخبر سبحانه أن من لم يسر على طريقته من أمته في التوحيد وإخلاص الدين لله فذلك هو الأبتر ، أي الأذل الأقل المنقطع الذكر ، وقيل : إن الأبتر هو الذي لا ولد له وذلك أن العاص بن وائل كان يقول لقريش : دعوا محمداً فإنه أبتر أي لا ولد له فإذا مات انقطع ذكره بموته . فأكذبه الله وقال لرسوله : (إن شئت) أي مبغضك وعدوك هو الأبتر أي المنقطع الذكر .

(الكوثر) الخير الكثير . (شئت) مبغضك . (الأبتر) المقطوع الأثر .

طبع على مطابع
دار لبنان
للطباعة والنشر

ماتن ٢٥٧٤١١ - ٢٩٤٢٠٤ - ٢٩٣٠٤٣
بيروت - لبنان - ص.ب ٥٦٢٠

٧١/١٥٠٠٠/٢٠٤٩